



مشهد بديع في حديقة الحيوانات بالجيزة

تمثل طائر السقاء او بجمع مصر

ا تصوير الدكتور حسن كمال ا

المقتطف

مجلة علمية صناعية زراعية

الجزء الاول من المجلد السابع والثمانين

١ يونيو سنة ١٩٣٥

٢٩ صفر سنة ١٣٥٤

اثبات الابوة

العلم يكاد يحل مشكلة قديمة

كواشف الدم الحديثة ومغزها

اعترف المشترون من قديم الزمان بالصعاب التي تحول دون اثبات الابوة. فجاء في القانون الروماني ان « ان الوالد مشكوك فيه دائماً » Pater semper incertus وورد في التلمود انه لا يجوز باي حال لرجل ما ان يقسم بانه والد طفل معين، وان المرأة فقط لها ان تقسم فتقول « هذا ولدي » من اقدم الوسائل المستعملة لاثبات الابوة — ومحاكم بعض الامم لا تزال تعتمد عليها الى يومنا هذا — وسيلة اثبات التشابه بين الوالد وولده. وفي اكثر الاحيان يعتمد على التشابه العام في الهيئة والقامة، ولكن في بعض الحوادث ينظر في تفصيلات هذا التشابه في جميع الملامح. وقد اشار شكسبير في فقرة له اوردها في رواية « حكاية الشتاء » اذ قال « ... نسخة من الأب، العين والانف والشفة، لفتة العبوس، والجبهة، بل منخفض الذقن والوجنتين، بسماته وقالب يده وظفره واصبعه » في هذه الفقرة وما تقدمها وما تلاها من عبارة شكسبير حاولت بولينا ان تقنع ليونتيوس ان زوجة هرميونز كانت امينة على عهده وان الولد الذي رزقت به انما كان ولده، وهي تشبه ما تنطوي عليه مرافعات بعض المحامين في قضايا من هذا القبيل في عصرنا هذا

ويجدر بنا في هذا الصدد ان نذكر ان قضية نظرت في مقاطعة فاييت في ولاية بنسلفانيا الاميركية سنة ١٩٣١ ادعي فيها ان رجلاً ايطالياً كان والدًا غير شرعي لولد امرأة بيضاء، فلما استعملت كواشف الدم الحديثة، قطع الدكتور هيز Heise بان ذلك الرجل لا يمكن ان يكون والد الطفل.

ولكن لما كان المحلفون قد اقتنعوا بما جاء في مراعاة المدعي العام وهو ان الطفل يشبه الرجل المدعى عليه في ملامحه ، ادانوا الرجل غير ملتفتين لشهادة الطبيب

من المعروف ان الاقارب يتشابهون في بعض الملامح ، ولكن ليس من المستغرب ان يتبين الناس شبيهاً ما بين اثنين لا تربطهما صلة دم . ثم انه لما كانت الملامح متغيرة ابدأ ، وخاصة في دور الانتقال من الطفولة الى البلوغ ، فمحاولة الحكم استناداً الى التشابه او عدم التشابه امر لا يصح الاعتماد عليه . لذلك لا تسلم القوانين في بعض الولايات — كولاية نيويورك الاميركية — بعرض الطفل على المحلفين بقصد اثبات الابوة او نفيها . وفي رواية « حكاية الشتاء » التي اشرنا اليها في الفقرة السابقة ، لم يقتنع ليونتس بخطبة بولينا وما جاء فيها من الادلة على ان ولدهرميونز هو ولده . ومع ذلك رى محلفين في مطلع العقد الرابع من القرن العشرين يقتنعون بادلة من هذا القبيل — كما حدث في قضية الايطالي المذكورة سابقاً — ولكن القاضي لحسن الحظ كان رجلاً حكيماً ، فلما رأى الحكم مناقضاً للادلة ، اعلن ان المحاكمة لم تستوف جميع الشروط . وكان من شأن الزوجة المدعية على الايطالي ، انها لم تطلب محاكمة اخرى ، ثم لم تنقض مدة طويلة ، حتى اخذت ملامح الطفل في التحول . ويبدو عليه الان ، وقد انقضت ثلاث سنوات ، ان ملامحه قريبة كل القرب من ملامح الزوج وعلى كل حال من الخير ، ان يحاكم اليوم في بعض البلدان ، لا تعتمد على هذا النوع من التدليل الى المدى الذي كانت تعتمد عليه المحاكم في العصور القديمة . فقد روى المؤرخ استرابون ان الاطفال كانوا اذا بلغوا الشهر الثاني من العمر ، يعرضون على لجنة خاصة للفحص فكانوا اذا لم يبد على ملامحهم شبه كبير بلامح والديهم ، يعدمون

فليس من الغريب ان يعتمد الناس في مختلف العصور الى ابتداع وسائل اخرى لاثبات الابوة وقد كان الاقدمون يسندون الى الدم قوى خفية ، ولا يزال اثر هذه المعتقدات ماثلاً في لغاتنا في هذا العصر . ففي اللغة الانكليزية عبارة مشهورة مؤداها الدم يكشف الحقيقة blood will tell وغيرها كثير . والدلالة على هذه المعتقدات نذكر الوسائل التالية لتبين صلة الدم بين فردين او اكثر من الناس منترعة من كتب صينية ويابانية يرتد عهدها الى القرن الثالث عشر

تؤخذ قطرة من دم كل من الشخصين اللذين يُظن ان بينهما صلة قرابة وثيقة ، بوخز اصبع كل منهما ، ثم توضعان في اناء فيه ماء . فاذا كان الشخصان قريبين امتزجت قطرة الدم الواحدة بقطرة الدم الاخرى . فاذا كان الوالد او الوالدة قد مات توضع قطرة الدم على عظمة من عظام الميت فاذا اخترق الدم العظم حتى لا يمكن غسله عنه ثبت ان بين صاحب قطرة الدم وصاحب العظم صلة دم وثيقة اما في بلاد البوسنة فقريب العهد بالزواج من الشبان ، يأخذ طفله اذا ولد قبل تمام الشهر التاسع ويضعه على عتبة الباب فاذا وقع الطفل الى داخل البيت اثبت ذلك في رأي الزوج انه ابنه لا ريب فيه ، واذا وقع الى خارج البيت فهو ليس ابنه وينكره

وكثيراً ما يستشهد بحكاية الملك سليمان والطفل الذي ادّعه امرأتان ، ويقال ان الطريقة التي عمد اليها كانت الهاماً من السماء . ولو ان الملك سليمان فعل الآن ما فعله حينئذٍ لقليل عنه انه سيكولوجي بارع . ومما يحسن ذكره ان الصحف الاميركية اشارت من سنوات الى حادثة يصح أن تكون الطبعة الحديثة لقصة الملك سليمان القديمة . فقد جاءت امرأتان الى قاضٍ ، وادعت كل منهما انها والدة طفل معين . فقال القاضي انه لما كان لا يملك وسيلة تمكنه من معرفة من هي امه حقيقة ، فقد قرّر ان يبعث به الى أحد الملاحيء العامة . فارتاحت احدي المرأتين الى هذا القرار وقالت كذلك ، لانها تفضل ان يبعث بالطفل الى ملجأ عام على أن تموزه المدعية الاخرى . ولكن السيدة الثانية قالت انها تتنازل عن ابنها لخصيمتها لأنه يحرم في الملجأ محبة الأم وعنايتها . فحكم القاضي للسيدة الثانية بالطفل

ولكن هناك طريقة اقرب الى المبادئ العلمية قد يمكن الاعتماد عليها أحياناً في اثبات الابوة . فقد يكون في أحد الوالدين او في كليهما خواص تشريحية معينة غير سوية تظهر في بعض اولادها او في جميعهم . ومن أبرز هذه الصفات التشريحية التي تنتقل بالوراثة ما تصاب به الأصابع من تشويه . وللدلالة على دقة انتقال هذه الصفات بالوراثة ثبت هنا خلاصة قضية رفعت سنة ١٩٢٦ . فقد كان الوالد متميزاً بقصر غير سوي في الاصبع الثانية والاصبع الثالثة والاصبع الرابعة في اليدين والقدمين ، سببه عدم نمو العظام الخاصة بها ، وكان ابهاما اليدين سويين . ولكن قاعدة ابهام القدم كانت قصيرة . فلما فحص الطفل وظهرت هذه الصفات التشريحية فيه ، حذوك النعل بالنعل ، حكم في القضية بأن الرجل والد الطفل لا ريب فيه

ولما كانت بعض هذه الصفات التشريحية غير السوية تنتقل بالوراثة على انها صفات مغلوطة لاغالبية (recessive) فقد تظهر في اولاد والدين يبدو لنا انهما سويان . وقد ظل الناس يسندون هذه الصفات ، حتى عهد قريب ، الى بعض ما تراه الام أو تحس به في اثناء الحمل . والاعتقاد قديم في ان الحامل اذا شاهدت مشهداً مخيفاً أو قبيحاً يبدو اثر ذلك في طفلها . وقد استعمل الكتاب والشعراء أمثال شكسبير وغوته ودكنز هذه المعتقدات في كثير من مؤلفاتهم . بل ان آرثر شنزلر وهو من مؤلفي العصر الحديث ، قص قصة امرأة ولدت طفلاً زنجياً على أثر زيارتها ملهى من الملاهي في فيينا كانت جماعة الممثلين فيه من الزوج . ولما كان زوجها يثق كل الثقة بها ، اقتنع بأن الحادث يفسر بالاعتقاد المتقدم . وعمد الى جمع ما ذكر عنه في كتب الادب . ولكن في رواية شكسبير التي عنوانها « تيطس اندونيكوس » تحاول الزوجة تامورا ان تقتل طفلاً اسود ولدته لانها تعلم ان زوجها لا يقتنع بما يقال في تفسير ذلك . وقد روى العالم طمسن Thomsen من عهد قريب حادثة وقعت في بلاد الدنمارك ، خلاصتها ان امرأة ولدت ولدًا غير شرعي ، كانت اصابعه متصفة بصفات تشريحية خاصة تمتاز بها اصابع مخدّماها . فعرضت المسألة على المحكمة فرفضتها ،

وعملت المحكمة ذلك ، بقولها ان مشاهدة المرأة الدائنة لتلك الصفة في اصابع مَخدّمها أثرت فيها فظهرت في طفلها . وهذا يبين لنا مقدار ما نلقاه من الصعوبة في تبديد بعض الاوهام العامة العالقة بالأذهان

لم يحلّ العلم حتى الآن مشكلة اثبات الابوة حلاً تاماً . ولكن بعض الوسائل الحديثة ، القائمة على حقائق علمية لا تقبل الجدل ، تمكن الباحثين الآن من الحكم حكماً صريحاً في بعض هذه القضايا . وهذه الوسائل وليدة فرع جديد من فروع الطب يعرف بعلم المصل serology فالدّم مؤلف — في حدود موضوعنا — من الكريات الحمر وهي التي تلونه بلونه الأحمر و«البلازمة» (يعرف السائل المصفّر الصافي الذي يبقى بعد تخثر الدم بالمصل serum والمصل بعض البلازمة) . ففي الكريات الحمر في دم الانسان مادتان تدعي كل منهما «أغلو تينوجين» (١) احدهما توسم بحرف (A) والثانية بحرف (B) . فاذا كانت هاتان المادتان في دم انسان ما قيل انه من فريق (AB) فاذا كان دمه خالياً منهما قيل انه من فريق (O) فاذا كان يحتوي على مادة (A) فقط قيل انه من فريق (A) واذا كان يحتوي على مادة (B) قيل انه من فريق (B)

وفي مصل الدم مادتان تدعيان «أغلو تينين الفا» و«أغلو تينين بيتا» (٢) . فاذا مزج مصل محتوي على ملبّد (أغلو تينين) الفا بكريات حمر محتوية على أغلو تينوجين A (اي اذا كان من فريق A او من فريق AB) تلبدت هذه الخلايا ، وظهرت كتلاً كتلاً ، أو هي قد تتلاشى . ولكن ملبّد الفا لا يؤثر مطلقاً في خلايا حمر لا تحتوي على أغلو تينوجين A (اي انه لا يؤثر مطلقاً في كريات حمر من دم رجل في فريق O او فريق B) . وعلى المنوال نفسه يؤثر ملبّد بيتا في تلبيد الكريات الحمر المحتوية على أغلو تينوجين B (اي اذا كان من فريق B او فريق AB) ولا تؤثر مطلقاً في خلايا دم من رجل في فريق O او فريق A

ومن الطبيعي ان رجلاً من فريق A لا يمكن ان يحتوي دمه على ملبّد الفا والآ تلبدت كرياتهُ الحمر ومات خنقاً لعجز الكريات الحمر عن القيام بعملها وهو نقل الاكسجين من الرئتين الى الاعضاء ونقل ثان اكسيد الكربون من الاعضاء الى الرئتين . وكذلك يرى ان رجلاً من فريق B لا يمكن ان يحتوي دمه على ملبّد بيتا للسبب عينه فيحسب هذه القواعد يمكن تقسيم الناس على اختلاف سلالاتهم والوانهم الى اربعة فرق متميز احدها عن الآخر

أما طريقة استعمال هذه الحقائق في اثبات الابوة فعلى جانب من السهولة . فكل ما نحتاج اليه

(١) معنى اللفظ مولد الملبّد والتلبّد أو الابتداء ترجمة لـ agglutination وهو التصاق بعض الجسيمات العضوية كالكريات أو المكروبات الدقيقة بعضها ببعض فتتألف منها كتل (٢) ترجمته «ملبّد» لانه اذا اجتمع بالمادة الاولى لبدّها . وقد احتفظنا بالحروف الفرنجية في الدلالة على هذه الفرق لانها أصبحت بمثابة أعلام

هو بعض الكريات الحمر المأخوذة من دم الطفل الذي يراد اثبات ابوته ، ومزجها بمحلول ملحي خاص . ثم يؤخذ مصلان ، احدهما يحتوي على ملبد الفا (اي من دم رجل من فريق B) والثاني يحتوي على ملبد بيتا (اي من دم رجل من فريق A) . ويمكن الحصول على هذا المصل بأخذ مقدار من الدم وتركه حتى يتخثر فينفصل المصل عن سائر محتويات الدم

ثم تمزج قطرة من محلول الدم بقطرة من احد المصلين ثم تمزج قطرة اخرى من محلول الدم بالمصل الثاني . فاذا تلبدت الكريات الحمر في محلول الدم بالمصلين فصاحب الدم من فريق (A B) . واذا لم تلبد على الاطلاق فهو من فريق (O) . واذا تلبدت بالمصل المحتوي على ملبد الفا فهو من فريق (B) واذا تلبدت بالمصل المحتوي على ملبد بيتا فهو من فريق (A)

ثم يمتحن دم الرجل الذي يراد اثبات ابوته او نفيها ، بالطريقة نفسها . فاذا ظهر ان دم الطفل من فريق (O) وان دم الرجل من فريق (A) فالرجل اذا ليس والد الطفل . وهذا الحكم قاطع . اما اذا ثبت ان دم الطفل ودم الرجل من فريق واحد من الفرق الاربعة فعندئذ يحكم بأنه من الممكن ان يكون الرجل والد الطفل . وهذا كل ما يقال الآن استناداً الى هذه الكواشف

ومما يسهل الاعتماد على هذه الطريقة في اثبات الابوة او نفيها ، في نطاقها المحدود ، ان مكان الطفل من فرق الدم يمكن تعيينه بعيد الولادة ، وانه لا يتغير بعد ذلك مدى الحياة ، وانه يتوارث بحسب قواعد مندل في الوراثة . وهذه حقائق اثبتها العلماء ولا تقبل الريب الآن

ويروي الدكتور الكسندر وينر (كاتب هذا المقال في عدد ابريل من المجلة العلمية الشهرية) انه من عهد قريب اتهمت سيدة من مقاطعة نيوهايفن رجلاً بأنه والد ابنها غير الشرعي . فانكر المتهم التهمة الموجهة اليه ، ولكن الرأي العام كان ضد الرجل . فبعث بدم الرجل ودم السيدة ودم الطفل الى كاتب المقال وهو من قسم الباثولوجيا في احد المشافي الكبيرة بنيويورك فامتحنها جميعاً وثبت له من الامتحان ان الرجل المتهم من فريق (A) والمرأة من فريق (O) والطفل من فريق (B) ولما كان كريات دم الطفل تحتوي على اغلوتينوجين (B) وهو غير موجود في كريات دم الام ، فوالد الطفل يجب ان يكون من فريق (B) او فريق (A B) والمتهم ليس منهما . ولما واجهت المحكمة المدعية بهذه الحقائق استردت تهمتها وبرئت مساحة الرجل . فحال امتحان الدم في هذه القضية دون انحراف العدالة ولكن لنفرض ان امتحان دم الرجل المتهم اثبت انه من فريق (B) او فريق (A B) كما يجب ان يكون والد الطفل . فهل يثبت هذا ان الرجل والد الطفل حقيقة ! كلا . اذ اي رجل من فريق (B) او فريق (A B) يمكن ان يكون ذلك الوالد . ففائدة هذه الطريقة انما تنحصر في ابعاد الشبهة عن رجل متهم اذ ثبت انه من فريق غير الفريق الذي تتوافر فيه الشروط المطلوبة ، ولا تمتد الى اثبات الابوة بالمعنى الدقيق

الا ان العلم يأتي التسليم بالخذلان ، وفي جعبته فراغ ومال للبحث وذكاء للابتداع . وكذلك

والى العلامة لاندشتينر بمحة بالتعاون مع طبيب آخر يدعى لفين Levine فوجد سنة ١٩٢٧ مادتين جديدتين في الكريات الحمر بدم الانسان تولدان الملبدات (اي من قبيل اغلوتينوجين A و B) فدعيا الواحدة اغلوتينوجين M والثانية اغلوتينوجين N وكان قد فات الباحثين كشفهما لانه لا توجد عادة ملبدات في مصل دم الانسان وبعض الحيوانات تؤثر فيهما . ولكن بمحقن هاتين المادتين في عروق الارانب والهررة والماعز يمكن الحصول على الملبدات الخاصة بهما . وهاتان المادتان والملبدان اللذان يقابلانها لا صلة لهما مطلقاً بالمواد A و B والملبدين الفا وبيتا . فيمكن اذاً تقسيم الناس تقسيماً آخر بحسب المادتين M و N ومليديهما الى ثلاثة فرق جديدة احدها فريق M في دمه اغلوتينوجين M فقط والثاني فريق N ودمه يحتوي على اغلوتينوجين N فقط والثالث فريق M N ودمه يحتوي على المادتين معاً . وقد فحص حتى كتابة هذه المقالة ٣٠ الف رجل وامرأة وطفل فلم يوجد ان دم احدهم خالي من احدى هاتين المادتين M و N

وفي سنة ١٩٢٨ اثبت لاندشتينر ولفين ان هذه الخصائص الدموية الناشئة عن وجود مادتي M و N تورث بحسب قواعد مندل واذن صار من الممكن الاعتماد عليها في اثبات الابوة

قلنا في ما تقدم انه اذا نوزع في ابوة طفل وكان دم الطفل يحتوي على اغلوتينوجين A وجب ان يكون والده من فريق A او من فريق A B . فاذا كان الرجل المدعى عليه من فريق B أو O فلا يمكن ان يكون والد الطفل . وكذلك يبرأ . أما اذا كان المدعى عليه من فريق A او فريق A B وكان زوج المرأة الشرعي كذلك ، فلا يمكن بحسب هذه الكواشف ان يعين من والد الطفل وكل ما يمكن ان يقال ان الرجلين من فريق الرجال الذين يمكن ان يكون احدهم والد الطفل فبإضافة الكواشف الخاصة بمادتي M و N اللتين تقدم ذكرهما يمكن الوصول الى تحديد أدق في هذا الصدد

خذ مثلاً على ذلك القضية التالية . كان محورها نزاعاً على ابوة طفل . وكان زوج الوالدة مستعداً ان ينفق على الطفل بصرف النظر عمّن كان أباه . ولكن المرأة اصرّت على انها لا تساكن الاً والد ابنها الحقيقي . وكان الرجلان من فريق A وكذلك الطفل . فتعين الواحد دون الآخر لم يكن ممكناً بحسب الكواشف الاولى . فلما امتحنت دماء الاربعة لتبين ما فيها من مادتي

الزوج A ، M العشيقة A ، N الزوجة B ، M الطفل A ، M

فتبين ان الزوج هو والد الطفل ، لانه لا يمكن ان يربط الطفل مادة (M) من والد ليس في دمه الاً مادة (N) . ولكن الزوجة خرجت على قرارها الاول واختارت ان تلحق بعشيقتها . وفي حادثة اخرى كان النزاع على ثلاثة اولاد . فنكتفي بنتائج بحث الدم للمادتين (A و B) وللمادتين (M و N) الزوج M N ، O العشيقة N ، A الزوجة M N ، O الولد الاول M N ، O الولد الثاني M N ، O

الولد الثالث N ، A

(١) أي ان دمه لا يحتوي مادتي A ولا B ويحتوي على مادتي M و N

ولما كان الوالدان اللذان من فريق ١ لا يمكن ان يلبدا الا اولاداً من فريق ٢ فالطفل الثالث لا يمكن ان يكون ولدها بل قد يكون ولد العشيق
 اما البلدان التي تعتمد على كواشف لاندشتينر لاثبات البنوة في اوربا فهي النمسا والمانيا والدنمارك وايطاليا والسويد . ولكن الاعراض عنها في اميركا يكاد يكون عاملاً لولا حوادث متفرقة في ولايات كونكتكت واوهايو والينوي وبنسلفانيا . ومع انه من الحكمة التريث قبل استعمال المكتشفات العلمية في الاوضاع القانونية الا ان الثقات يذهبون الى ان كواشف الدم لاثبات البنوة في النطاق المحدود الذي رسمناه قد خرجت من دور التجربة ويصح الاعتماد عليها

ويجدر بنا في هذا الصدد ان نذكر ان اول من كشف فرق الدم ، كما بيناها في ما تقدم كان الطبيب لاندشتينر النمساوي وهو الآن من اطباء معهد روكفلر الطبي في نيويورك وقد احرز جائزة نوبل الطبية من سنوات

وقد كان لاندشتينر كذلك اول من اقترح الاعتماد على هذا التقسيم في عمليات نقل الدم من سليم الى مريض . ولهذا الاقتراح ، شأن خطير في تقدم بعض ضروب العلاج الحديث . ففي العمليات الاولى التي عولج بها بعض المرضى بنقل الدم اليهم استعمل دم الحملان (دنيس سنة ١٦٦٧) . فتلا ذلك رد فعل مميت . وظل الاطباء في حيرة من هذا الامر الى ان ثبت لهم ، ان مصل دم الحيوانات يلبد الكريات الحمر في دم الانسان او يلاشيها . وان مصل دم الانسان يلبد الكريات الحمر في دم الحيوانات كذلك (لاندوي سنة ١٨٧٥) . فعدل عن هذه الطريقة الى طريقة نقل الدم من انسان الى انسان ، وحجة القائلين بها حينئذ ، انه ما زال الناس من نوع واحد ، فهذه الطريقة يجب ان تكون سليمة . ولكن بعض الحوادث التي نقل فيها الدم من انسان سليم الى انسان مريض عقبها رد فعل مميت . وظل الامر سرّاً مكنوناً عن افهام العلماء حتى جاء لاندشتينر وبيّن ، ان الناس اربعة فرق من حيث بعض خواص الدم وانه اذا نقل الدم من رجل سليم من فريق B الى رجل مريض من فريق A عقب النقل رد فعل مميت لان ملبد الفا في دم الرجل السليم يلبد الكريات الحمر في دم الرجل المريض

واعتماداً على اكتشاف لاندشتينر هذا يمكن الآن القيام بعمليات نقل الدم من سليم الى مريض على اهون سبيل ومن دون تعريض المريض لخطر الموت على شرط ان يفحص دما الرجلين قبل العملية للتمثبت انهما من فريق واحد . واذا علمت ان عشرة آلاف عملية من هذا القبيل تعمل كل سنة في مدينة نيويورك وحدها ادركت مقام هذا الاكتشاف في الطب الحديث

لورنس

العسكري والرجل والثورة العربية

Lawrence of Arabia (١)

كان غرضه من ساعة دخوله الميدان مزدوجاً — ان يبدد ما أحاط بمقام بلاده من الغيوم في الشرق الأدنى بإنشاء دولة عربية تتكئ عليها بريطانيا في خطتها الحربية ، وان يحرر العرب من نير الأتراك فيفسح لهم المجال لتحقيق آمالهم . وقد تحقق هذا الغرض على يديه أبداع تحقيق . فأعمال العرب التي تمت بإشراف لورنس في خلال الحرب ، كان لها شأن كبير في شل قوى الأتراك ونفخ روح الحياة في حركة البريطانيين . فكانوا بذلك عاملاً حيوياً في هزيمة الأتراك ونصر الإنكليز . ثم ان تيار الثورة العربية الذي امتد من مكة الى دمشق انتهى الى انشاء دولة عربية في سورية

أما بعد الحرب فقد تعارضت مصالح حليفة بريطانيا الكبرى مع مصالح حليفتها الصغرى فتغلبت عليها ، فهدم بناء الدولة السورية الجديدة . وما كان للورنس حيلة في دفع هذا الانحراف ، ولكنه خرج في سنة ١٩٢١ من عزلته في أكسفورد فوجه سياسة دولته توجيهاً كان من شأنه ان منح فيصل ملكاً جديداً بعد أن سلبه الفرنسيون ملك الشام . وأقيم أحد اشقائه أميراً على الدولة العربية الجديدة في شرق الأردن

كانت الحركة العربية التي غذّاها لورنس وارشدها وهي في مهدها أهم حركة ظهرت من بلاد العرب في خلال القرون العشرة الأخيرة . وليس ينقص من قيمة نتائجها ان بعض قبائل العرب فقط اشترك فيها اشتراكاً فعالاً . اذ لا ريب في ان العرب اصبحوا بعد انقضاء قرون ، عاملاً قوياً في ميدان السياسة يجب ان يحسب حسابه . فاتصال العرب بالشعوب الاوربية هذا الاتصال الجديد ، يسوغ من الناحية التاريخية تلقيب لورنس — وقد كان العامل الفعال في هذه الصلة الجديدة — لورنس اوف ارايا ولكن هناك تسويغ أهم شأنًا وابعد أثراً وهو التسويغ النفسي . فالألقاب الجغرافية ، تنزل في مكانها الصحيح ، عند ما تعرب عن اندماج بين الشخصية الانسانية والحقيقة الجغرافية . فالصحراء كانت في دم لورنس ، وقد كان الاندماج بين روحه وروح الصحراء اندماجاً تاماً

كان لورنس يحب التجوّل من حدائنه ، ويميل الى العزلة بفطرته . فكان يقضي ساعات فراغه في حدائنه يتتبع الجداول الى منابعها او الى مصابها ، او يجمع قطعاً من الخزف الروماني القديم او

(١) ملخص فصل انشاء ليدل هارت Liddel Hart ا كبر النقطة العسكريين الانكليز في «كتاب المظالم المعاصرين» الذي نشره محل كاسل في اوائل هذه السنة . وألف افضل كتاب حديث في سيرة لورنس



الڪولونل لورنس بملايسه الرسمية

Colonel T. E. Lawrence

يرود وحده الكاتدرائيات والقصور القديمة معنياً بتفصيلات هندستها المعمارية وفي حديثه كذلك تجول في فرنسا ، ثم قبل تخرجه من الجامعة جاس خلال سوريا مشياً على الاقدام ، في حرارة العطلة الصيفية ، باحثاً في قصور الصليبيين منقباً عن آثار الحثيين . ثم عاد اليها في السنوات السابقة للحرب ، لممارسة اساليب البحث الاثري . فلما توقفت اعمال التنقيب في قرقيش جال في العراق وفلسطين ومصر واسيا الصغرى واليونان . وكان يصحبه في بعض رحلاته احد ابناء البلاد . وكان يرتزق في خلالها من القيام ببعض الاعمال كسوق الابل او جمع الحصاد بل انه اشتغل مرة مع زمرة العمال في بورسعيد في تعبئة احدى البواخر بالفحم . وقد اشار الى ذلك في بعض كتاباته فقال : « كنت دائماً رائحاً وغادياً حيث كان الرواح او الغدو رخيصاً » . وقال ايضاً : « حملني فقري على الاتصال بالجماهير ، حيث السائح الغني يفصل عنها بماله ومن يتولى خدمته » . وكذلك افلح لورنس ، بتخليسه عن تقاليد الحياة المدنية ، في صيرورته مستعرباً بدلاً من ان يظل زائراً اورياً لبلاد العرب . فكانت لا تهمة مظاهر الاحترام ، التي يطلبها ويتوقعها الزوار الاوريون وبوجه خاص الزوار الانكليز . وقد مهد له هذا السبيل اعتناقه من قيود الشعور بان الناس طبقات فاندماج في العرب وصار احدهم بالانتساب

ولكي يسهل الامر عليه ، مال الى لبس الثوب العربي في خلال تجواله . وحجته في ذلك « انه اذا ذهب بعض العرب الى وِغن (وهي بلدة صناعية في لانكشير) باثوابهم العربية فالغالب ان اولاد وِغن يرجونهم بالحجارة »

فالاختلاط بالاطفال يقتضي ان تجردهم من نوازعهم الخاصة التي تقصيههم عنك . ولعل هنالك من يقول كيف استطاع لورنس ان يفعل ذلك ، بشعره الاشقر ، وذقنه الحليق ، وبشرته التي تهرم من وقع الشمس بدلاً من ان تسمر ؟ بيد ان هناك ما يدل على ان العرب قبلوه واحداً منهم وان كانوا لم يخطئوه . وهو يقول ان ذلك لم يكن صعباً في سوريا ، حيث افضى اختلاط السلالات الى كون بعض ابناء البلاد شقراً ، والى كون بعضهم لا يعرف العربية الا معرفة ناقصة . قال : « كان من المستحيل علي ان احسب عربياً ، ولكنه كان من السهل ان احسب احد ابناء البلاد الذين يتكلمون العربية »

ولكن لورنس تخطى في كلامه هذا التفسير الصحيح لنجاحه وهو مقدرة على فهم العرب . فقد كان هذا الفهم ميسوراً له لان روحه كانت مطبوعة بما طبع عليه العربي من حب للحرية المطلقة . وكان مثله مجرداً من اية رغبة في حيازة الممتلكات المادية في سبيل الرفاهة ، بعد ان يدفع ثمنها غالباً بخضوعه للقيود التي تفرضها على الانسان . وكان العطف سرّاً فهمه للعرب . فهذه الملكة استطاع ان يتبين انه لا توجد بينهم فوارق طبيعية او تقليدية ، الا فارق القوة التي يمتاز بها شيخ من الشيوخ نتيجة لعمله . قال : « وقد علموني انه ليس ثمة رجل يستطيع ان يصبح زعيماً لهم الا اذا اكل

طعام السواد ولبس ملابسهم وطاش في مستواهم على ان يكون له من قوة نفسه ما يميزه عنهم .
هذه المعرفة عند التطبيق كانت سر نجاح لورنس في صلته بالعرب

وله في هذا الصدد كلام واف افرغه في قالب تعليمات وزعت على الضباط البريطانيين الذين تبعوه الى المنطقة العربية في خلال الحرب الكبرى . فهذه التعليمات كانت بمثابة وصفة للنجاح في اتصال البريطانيين بالعرب ، ولكنها كانت كذلك منطوية على تحذير من المصاعب وبيان لما تقتضيه من الجهد ومن اقواله فيها : « اذا لبست ملابس العرب امض في الطريق الى نهايتها . اترك اصدقاءك الانكليز وعاداتهم على الشاطئ واتبع عادات العرب بمخافيرها على ان جهد المعيشة في جو غريب ، والتفكير بلسان غريب لا تفهمه الا نصف فهم ، وأكل الطعام البدوي ، ولبس الملابس الغريبة ، واتباع الاساليب الغريبة ، والتنازل عن كل انزال وسكون ، واستحالة تراخيك في مراقبة نفسك وأنت تقلد غيرك شهوراً متوالية ، كل ذلك مضافاً الى المصاعب العادية في معاملة البدو والترك ، والتعرض لحالة الجو المرهق ، تفرض على الانسان عبئاً ثقيلاً ، فعليه ألا يختار هذه الطريق الا بعد تأمل وتفكير عميق

« ان الالف والياء في سر الاتصال بالعرب هما عدم الوفي عن درسهم . فكن دائماً على حذر . لا تقل قولاً لا تقتضيه الضرورة . راقب نفسك ورفاقك دائماً . اسمع كل ما يقال والبحث عما يجري وراء الظواهر . اقرأ اخلاقهم . اكتشف ما يلد لهم ، وتبين مواطن الضعف فيهم ، واحتفظ بكل ما تكتشفه لنفسك ، . . ونجاحك يكون على قدر الجهد الذهني الذي تبذله في هذا السبيل »
في هذه العبارة الاخيرة ، مفتاح لفهم عمل لورنس بوجه عام ، بل مفتاح لفهم نجاحه في القيادة الحربية وفي قيادة العرب في الحرب . ولعل أهم ظفر اوتي له لم يكن استنفار العرب للحرب ، بل فرض مقدراته كزعيم عسكري ، على اخوانه الضباط الانكليز الذين اتصلوا به اتصالاً وثيقاً . وليس ثمة أبعد على الدهشة من استعداد هؤلاء الضباط الذين كانوا يفوقونه ، رتبة عسكرية ، لاتباع قيادته . كان هذا دليلاً على انهم كانوا رجالاً متميزين ، يستطيعون ان يسموا فوق تقاليد الطبقة التي ينتمون اليها ، فهو برهان كذلك على صفاته العسكرية الممتازة

ولعلنا نستطيع ان نفسر مقامه هذا بعض التفسير بإيراد العبارة التي قالها فولتير في القائد مولبورو : كان يمتاز عن سائر قواد عصره بشجاعته الهائلة في وقت الصخب ، وبطمانينة نفسه في زمن الخطر وهما أعظم ما تهبه الطبيعة للقائد »

ولكن لورنس امتاز بشيء اكثر مما تقدم . فالبريق الذي اقترن بامم لورنس واللمعان الذي أضفى على شخصيته ، اخفيا عن بعض العيون ، القوة التي نبعت من معرفته العميقة بفنون الحرب . وفي هذه المعرفة نجد الرسالة التي تستمد من عمله العسكري ، لان لورنس كان في الواقع ، أعرق معرفة بقواعد الحرب من أي قائد في الحرب الكبرى

قد يكون قولنا الاخير باعناً على الاستغراب عند النظرة الاولى . ولكنه في الواقع قول صحيح . فلا ريب في ان طائفة كبيرة من قواد الحرب الكبرى كانت اعرف بالجيش من لورنس . ولكنه كان يمتاز عليهم في كل ناحية اخرى . وقد ساعده على ذلك شبابه . كان معظم هؤلاء القواد قد قضوا الشطر الاكبر من حياتهم في سبيل الارتقاء من الصفوف الى مناصب القيادة . كانوا في شبابهم اما ضباطاً في « المدفعية » ، او في « المشاة » او غيرها ولكن خبرتهم في نوع السلاح الذي اختصوا به فقدت أكبر جانب من قيمتها بارتقاء وسائل الحرب . فالمدفع الرشاش الذي كان مسيطراً على ميادين القتال في الحرب الكبرى ، كان سلاحاً جديداً ، اتقن استعماله بعد ما تخطوا هم دور الشباب . ولكن لورنس توفّر على جميع هذه الآلات الجديدة ، توفراً يستغرب حتى من شاب متحمس ذكي ، ثم إنه لم يكتف بذلك بل اضاف الى استعمالها شيئاً من ابتداعه الخاص

ليست معرفة ادوات الحرب معرفة وثيقة مما لا يستغني عنه القائد ، ولكنها معرفة لها قيمة عظيمة . ونحن اذا نظرنا الآن الى سير الحرب الكبرى ، نرى انه لو كانت معارف القواد الكبار بادوات الحرب الجديدة اتمّ مما كانت ، لساعدتهم على اجتناب كثير من الاخطاء التي وقعوا فيها . كان لورنس في حدائنه قد وثّق معرفته بالتاريخ وبنظرية الحرب العليا . والواقع انني لا اعرف قائداً يضاهي لورنس في سعة مطالعته في هذا الموضوع . بدأ وهو في السادسة عشرة بمطالعة ما كتبه كرسى ونايير وماهان وهندرسن في هذا الصدد وهو لا كانوا في الغالب جهداً ما يبلغه القائد البريطاني في دراسته العسكرية . ثم ارتقى بعد ذلك الى مطالعة كلوز ولتز وجوميني وجولتز وفوش . ولما لم يكتف بما تقدم عزم على تصفح رسائل نبوليون التي تملأ اثنتين وثلاثين مجلداً وهذا حمله على دراسة الكتب التي بنى عليها نبوليون قواعد خططه العسكرية فانكب على دراسة جيبور وبورسه وساكس . وكذلك رى هذا الطالب القتي يتتبع الخطط النبوليونية الى مصادرها في زمن كانت فيه هذه المصادر مجهولة من معظم العسكريين . ومع ذلك لم تكن مطالعته في التاريخ العسكري ، الا ناحية واحدة فقط من مطالعته الواسعة النطاق ، حتى لقد قيل انه قرأ كل كتاب في مكتبة اتحاد اكسفرد . ولكن الصحيح انه قرأ كل كتاب لذت له قراءته فكان يجلس في المكتبة ويبدأ في مطالعة رف من الكتب في موضوع يهمه ، فيتصفح بعضها ويأخذ معه الى داره ما يهمه انعام النظر فيه . فكان يطالع كذلك نحو ثلاثة كتب رزينة في اليوم ورواية بعد الظهر انتجاعاً لراحة الذهن . وكان في جميع مطالعته يعتمد الى المراجع ولا يكتفي بالنتف والمخلصات

ومما كان له أثر عظيم في نفسه مطالعته لمؤلفات مفكري القرن الثامن عشر الذين مهدوا للشورة الفرنسية . فهذه الثروة العظيمة من المعرفة التاريخية مؤيدة بمعرفة عامة في جميع الموضوعات المتصلة بالحرب جعلته فذاً بين قواد عصره . فلما جمع الى معرفته النظرية خبرته وعناصر شخصيته القوية حوّل معرفته العسكرية النظرية الى عبقرية عسكرية عملية نادرة

مكنته عبقريته هذه من التغلب على حوائل لم يتعرض لها كبار القواد في الحرب الكبرى . كان عليه ان يكون قائداً من دون قيادة . وزعيماً لا يسعه الا افراغ أوامره في قوالب النصح والارشاد . وكان جيشه مؤلفاً من رجال عرفوا بنزعتهم الفردية المستقلة وقد جمعوا من قبائل مختلفة ومتنافرة أحياناً . أما وسائل الحروب الحديثة ، التي درسها لورنس وعرف مزاياها ، فكانت غير متوافرة لديه فاضطر ان يعتمد على قوة ابتداعه ، لابتكار الخطط التي تمكنه ، رغم كل هذا من تحقيق الغرض الذي وضعه نصب عينيه . بل ان اكبر العوائق التي قامت في سبيله كانت اقناع رؤسائه بقيمة هذا الجيش في الصحراء ، مع شدة اعراض هؤلاء واحتقارهم لأية مساعدة عسكرية غير نظامية

ان تاريخ السنتين التاليتين ، مقياس للنجاح العظيم الذي أصابه في هذا المسلك الوعر . ان ما تم على يدي لورنس والعرب من أعجب ما يرويه التاريخ العسكري . فقد نظمت الثورة العربية ، وتحول احتلال الاتراك للجزيرة الى حامية محصورة ، لم تلبث ان سقطت في أيدي أعدائها ، كما تسقط التفاحة الناضجة عند هبة الريح . وقد كان احتلال العقبة وحده من نوادر الظفر الحربي . فقد احتلها العرب بقيادة لورنس بعد خسارة رجلين من الفريق المهاجم مقابل ١٢٠٠ قتيل وجريح وأسير من الاتراك . فكان هذا الظفر ملافياً للخذلان الذي اصيب به الجيش الانكليزي في غزة ، وتقويتاً لاضراره ، وأزال كل خطر يهدد مواصلات الجيش الانكليزي في فلسطين ، والمواصلات الامبراطورية البريطانية في قناة السويس . ولكن انتشار الثورة في بلاد العرب ، كان له الى جانب هذه النتائج السلبية ، نتائج ايجابية ، لان عدد الاتراك الذين عهد اليهم في حماية سكة حديد الحجاز ، والبلاد التي الى جنوبه ، كانوا اكثر من الاتراك الذين واجهوا الانكليز في فلسطين

وفي المرحلة الثانية من غزوة الانكليز لفلسطين ، أي بعد احتلال القدس ، كانت القوات العربية ، كالجنح يحمي مؤخرة الجنرال اللنبي ، ويستوقف نظر الاتراك فيضطر هؤلاء الى توزيع قواهم بين فلسطين والصحراء . وقد بدأت خدمة العرب هذه ، بعناية لورنس بتدمير قطارات سكة حديد الحجاز ، ذاهباً في عمله هذا الى الشمال ما استطاع ، حتى لقبه المعجبون به من العرب «بمدمر القاطرات» . ولما كانت ذخيرة الاتراك من القاطرات أقل من ذخيرتهم من الرجال ، كان تدمير القاطرات افعال في اضعافهم من قتل الرجال . ثم قطع العرب موارد الاتراك من منطقة القمح شرق البحر الميت بالسطو على القوافل المحملة قمحاً . وكذلك استطاع لورنس والعرب ان يسترعوا عناية الاتراك في النصف الاول من سنة ١٩١٨ لما كان جانب كبير من جيش اللنبي قد نقل الى فرنسا لتعويض خسائر الحلفاء في ميادينها

ثم انه باعماله هذه حال دون تجميع الاتراك لقواتهم ، وتنظيم مقاومتهم للجيش البريطاني ، فهدد خير تمهيد ، لضربة اللنبي القاضية في خريف سنة ١٩١٨ . وقد اعترف الجنرال ليمان فون ساندزر انه تخلى عن فكرة مقاومة الانكليز لانه عجز عن صد الثوار العرب في مؤخرة الجيش التركي

وفي سبتمبر كان اللبني مستعداً للهجوم. وكان نصف الجيش التركي ، المربط الى جنوب دمشق مضطراً ان ينصرف عن مقاومة اللبني خوفاً من تهديد بضعة آلاف من العرب في الصحراء . وكذلك استطاع اللبني ان يهاجم الاتراك بقوة تفوق قوتهم خمسة اضعاف . وكان لورنس في الشهر السابق قد خدع الاتراك بسلسلة من المناورات ، فحملهم على الظن ان هجوم اللبني سوف يجيء من الشرق من ناحية عمان بدلاً من الشمال من ناحية الجليل . وفي الايام الثلاثة الاخيرة من الاستعداد للمعركة الفاصلة ، خرج العرب من مكائهم ونسفوا خطوط السكة الحديد الى الشمال من درعا والى جنوبها وغربها، وكانت هذه النقطة ملتقى مواصلات الاتراك . فضعفت هذه الضربة الاتراك اذ كان اللبني مستعداً للانقضاض عليهم فسحقهم في المعركة التي تلت سحقاً واجهزت الطائرات البريطانية وفصائل الفرسان البريطانيين على الذين لاذوا بالفرار . ولما يبق امام البريطانيين الا الجيش التركي الرابع ، وهو اقوى وحدات الاتراك . فاقدم لورنس بفصيصة من العرب على الزحف الى مؤخرة الجيش فلم يلبث الجيش الرابع حتى تفرق بدياً فانهمك التراجع ، وعند ابواب دمشق التقى العرب باكبر شرذمة منه فاجهزوا عليها ، ودخلوا دمشق امام الانكليز

لم يكن احتلال العرب لدمشق ، تزكية لثورتهم فقط ، بل تزكية كذلك لفكرة قامت في ذهن لورنس ، وتأيداً لنظرية عسكرية مضى عليه زمن وهو يطبقها . واذا كانت بزور هذه النظرية قد زرعت في ايام المطالعة اذ كان لا يزال طالباً في اكسفر د ، فان ميعاد القطف جاء في خلال سنة ١٩١٧ لما كان لورنس على فراش المرض في وادي قيس ، وامامه من الوقت متسع للتفكير والتأمل . فعلى فراش المرض تدبر لورنس كيف يستطيع ان يعالج القوة التركية في الحجاز ، وكانت حينئذٍ مجتمعة في المدينة . فالخطط الحربية المتشعبة كانت تقضي ببذل الجهد لاجراجهم من المدينة . ولكن هذا الحل لم يبد بسيطاً في نظره وخاصة في نظر من يعرف نفور العرب من قتلى الحرب . واذا هو يفكر هبط الجواب عليه ، كأنه نقحة من الالهام . فقال : ولماذا نهتم هذا الاهتمام بالمدينة وحاميتها . ان افتتاحها الآن متعذر . ولكن ما الفائدة من افتتاحها على اية حال . بل اليس من الضرر ان نفتتحها ؟ واليك ما كتبه في هذا الصدد « ان الاتراك فيها مدافعون لا يتحركون ، يتغذون بلحم الحيوانات التي يجب ان تستعمل لنقلهم الى مكة . انهم وهم مرابطون في المدينة لا يستطيعون ان ينالونا باذى . فاذا اسرناهم كلفونا غذاء وحراسة في مصر . واذا اخرجناهم من المدينة ودفعناهم امامنا الى الشمال انضموا الى الجيش التركي المربط لنا في سيناء . فالأفضل ان يبقوا حيث هم . هم يهتمهم البقاء في المدينة . فليبقوا فيها » على ان لورنس لم يكتف بهذا . بل قال في نفسه ، ولماذا لا نعمم هذه الخطة ، فنطلقها على جميع الاماكن التي يمكن حصر الترك فيها . « فالاتراك يحتاجون عندئذٍ الى ستمائة الف محارب لحماية المدن والمناطق المختلفة من غضب العرب . وليس عندهم الا مائة الف » ثم هناك ناحية اخرى . كانت فخيرة الحرب في الجيش التركي غير كثيرة التيسير وكان المحاربون

في الجيش التركي أكثر من الادوات الحربية اللازمة للنزال . لذلك يجب ان يكون غرضنا تدمير ذخيرة الحرب لا قتل المحاربين . فتدمير جسر تركي ، او قاطرة تركية ، او مدفع تركي ، او مفرقة تركية ، اكبر فائدة من موت جندي تركي . ان حربنا يجب ان يكون حرب انفصال . اننا نستطيع ان نتفوق على العدو ، بالتهديد الذي تعانته صحراء لها اول ما لها آخر . اما نحن فلا نظهر في الميدان الا في ساعة الهجوم . وهذا الهجوم ليس من الهجوم المألوف في شيء ، لانه يجب ان يوجه الى مواد الحرب لا الى المحاربين . ولذلك يجب ألا نبحث عند الهجوم ، عن مواطن الضعف او القوة في جيش العدو ، بل يجب ان نبحث عن مادته الحربية التي تكون اقرب ما يكون الى متناولنا .

هذا الابتداء في الخطط الحربية ، اذ درس مقترناً بفتايج الحرب الكبرى ، اصبح لاعمال لورنس في بلاد العرب مغزى جديد . فالتاريخ العسكري لا يسعه ان يقول ان لورنس كان قائد قوة غير نظامية ويكتفي بذلك . فهو ليس زعيماً من زعماء حروب العصابات . بل انه ذو عبقرية فذة في تدبير الخطط العسكرية ، وقد استشف بثاقب بصيرته ، الميل في الحروب الحديثة والمقبلة الى هذا النوع من الخطط ، الناشئ عن زيادة اعتماد الامم على مراكزها الصناعية . رأى ذلك أولاً في صحراء بلاد العرب ، وها نحن نرى الامم العسكرية اليوم تضع خططها الحربية ، واول اهدافها تدمير المراكز الصناعية قبل افناء المحاربين . وقد اثبت ليدل هارت بكتاب وردله من لورنس ، ان لورنس نفسه كان يدرك كل الادراك مغزى خطته هذه في تطبيقها على الحروب بوجه عام

قلما تُحجب الحقيقة المنطوية في القول المأثور « ان التاريخ يعلمنا اننا لا نقيم وزناً لعب التاريخ » عن رجل كلورنس درس التاريخ ونفذ الى عبره . فكان ادراكه هذا باعثاً له على الشعور بوجوب الانفصال عن الدنيا والتفرغ لمطالب الروح العليا ، فانتظم « نقرأ » في سلاح الطيران الجوي البريطاني ولم يقبل الا ان يكون « نقرأ » فيه . واتفق ساعات فراغه في دراسة الآداب القديمة وقد اخرج للناس من سنتين ترجمة جديدة لالياذة هوميروس

ان شهوة العظمة والسلطان منبع أعظم الشرور ، فاذا لم تضبطها الحكمة ضبطاً تاماً — وقلما تجتمع الحكمة وشهوة السلطان — افضت الى اخفاق الرجل او الى تعرضه لحرية غيره من الناس . ونتيجة اطلاق العنان لهذه الشهوة ، كان من شأنه في جميع ادوار التاريخ ، أذية أصحابها وخلفائهم والقضايا التي نهضوا لتأييدها . وقد حال بين لورنس والانتظام في سلك هؤلاء الرجال صفاء ذهني كاد ان يكون حكمة خالصة

كان في شبابه يطمح الى بلوغ مقام العظمة في ميداني العمل والتأمل . ولكن خبرته اثبتت له تنافرها . فأطبق « فرامل » التأمل على « عجالات » العمل وقال لنفسه الى هنا وكفى

كان في السادسة والعشرين من عمره لما خاض ميدان الحرب وهدفه أن يصبح جنرالاً وان يحوز

لقب « فارس » قبل ان يبلغ الثلاثين ، ولكنه طرح هذه المطامح جانباً قبل بلوغ الثلاثين اذ كان تحقيق هذه الاغراض في متناول يده . ولكن المطمح الذي ظل قائماً في نفسه وهو في طريقه الى دمشق ، كان العمل دون الابهة التي تصحبه . فلما وصل دمشق قذف حتى بهذا المطمح الى الرياح . اقام في دمشق ثلاثة أيام وهو حاكماً المطلق من وراء ستار . فلما كان اليوم الرابع ، ادرك خطر السلطان على حكمته وحرية فارخى العنان . ذلك ان رداء السلطان كان قد التى على كتفيه عند ما فضجت في نفسه ثمرة الحكمة المبتغاة . فطرح الرداء ولاذ بالحكمة

كان الطموح آخر قيد يفرضه الروحانية ، فطرح القيد ليبلغ الانعتاق التام . وكأن الطبيعة قد أعدته خاصة لذلك فجردته من شهوات معظم الرجال . فليس لشهوة الطعام والشراب أثر في حياته . انه يستطيع ان يأكل عشاءاً كامل اللون وان يتمتع بلذاته ، الا انه يفضل اكلة واحدة في اليوم ، وافضل الطعام ابسطه . ويظهر انه كان كذلك مجرداً من الشهوة الجنسية . وما على المرء الا ان يقدر ما تشغله هاتان الشهوتان من حياة الانسان ، وكيف تكبلانه بقيود منظورة وخفية ، حتى يعرف مدى الحرية التي ادرکها لورنس بتجرده منهما

ثم هناك قيد آخر تقيّد به الروح الحرة ، ولكنه قيد خفي ، وهو النزوع الى المنافسة . فهذا النزوع لازم لحث معظم الناس وحضهم على العمل . ولكنه يقوم حجر عثرة في سبيلهم كلما خطوا بضع خطوات . اما لورنس فقد تجرد منه فكان في حياته يرغب عن الالعب المدرسية القائمة على المنافسة ، وروى انه من سنوات اعمل العناية بحديقة صغيرة عزيزة عليه ، في محطة الطيران ، لما اعلن ضابط الفرقة انه يمنح جائزة لمن تتفوق حديقته على حدائق اخوانه

فقد كان هم لورنس في خلال حياته ، ان يبلغ مستوى معين من الرجولة اقامه في ذهنه ، لا ان يتفوق على احد . وكذلك ازال من حياته ، مصدران اهم مصادر النزاع بين الناس

ثم ان غريزة الامتلاك ابعث اثرها في تكبيل النفس من نزعة المنافسة . وقد حاول لورنس جهده ان يقطع جميع حبالها . ولكن كيف يستطيع ذلك وهو انسان . ها هي تظهر في كتاب يملكه او في قطعة موسيقى يحوزها . حاول لورنس ان ينقص مطالبته الى المادية الى اقل حد مستطاع ، ومحاولاته في التفلسف من بعض قيودها وسمت بعض افعاله بسمة الشذوذ . قال : « لو كان في وسعي لوهبت كل شيء ولتنازلت عن كل شيء » . ولكنه لم يستطع ذلك ، من دون ان يتعرض لاختاد رغباته الروحية ، او رغباته الحسية المتصلة بالروح . فالجمال لا ينفصل عن الحق . والحكمة نفسها تحول دون بلوغ الحرية المطلقة

لقد فاق لورنس كل رجل آخر اعرفه في اقتراحه من الحرية المطلقة . ولكنه لم يستطع بلوغها . كان روح الحرية مجسماً في عالم مكبّل بالاغلال ، ولكن تجسيم هذه الروح ، في قالب انساني ، يقضي بالخضوع لبعض القيود ، ولو كان خفية عن عين الانسان العادي

سوريا في زمن الصليبيين^(١)

انقول لا زياد

حالة سوريا السياسية

سهل ساحلي ضيق في الشمال ، متسع في الجنوب ، تحذب عليه من الشرق سلسلة من الجبال الجميلة ، وقد يقوى عطفها عليه ، فتعانق البحر مرات رافة به ، وتسند هذه الجبال سلسلة اخرى الى الشرق منها ، فتدفع عنهما غائلة البحر الرمي المنبسط شرقاً الى حدود العراق . وبين السلسلتين سهول منخفضة ، يشتد بها الانخفاض والضغط حتى تفقد الحياة في البحر الميت . في شمالها جبال طوروس الوعرة المسالك ، وفي جنوبها صحراء سيناء القديمة السبل — هذه هي سوريا

تتوسط الشرق الادنى ، وبذلك كانت قلب العالم المتمدن الخلفاء . تقوى مصر فترنو اليها ، وينشط العراق فيتطلع نحوها ، وتقوم قائمة آسيا الصغرى فتفكر فيها . ويدفع البحر المتوسط باقوامه وسفنه فيجدون في شواطئها الملجأ . وتقسو الصحراء على اهلها ، فيهرعون اليها ، ليستمتعوا بخيراتها ، وليستوطنوا اديعها . ويسود السلام انحاء العالم ، فيعنى بالتجارة ، وفي مواليء سوريا تتبادل سفن اليم وسفن الصحراء اثقالها

من الصحراء جاءها اكثر سكانها ، قرناً بعد قرن ، حتى كانت خاتمة المطاف هذه الحملة الاخيرة العربية ، التي وحدث — الى درجة كبيرة — لغة السوريين ، وثقافتهم ، وعقليتهم ، وتفكيرهم ، ودينهم ، منذ ثلاثة عشر قرناً

خضعت سوريا للراشدين ، وجمت الامويين ، وتبعت العباسيين ، وتقربت من الفاطميين . وطالها القرن الحادي عشر الميلادي (القرن الخامس الهجري) وهي نهب مقسم بين المتغلبة على الاطراف من اتباع العباسيين وخصوصهم . فالفاطميون في القاهرة ، والسلاجقة في ظلال الخلافة البغدادية ، والامراء المحليون والقبائل التركمانية والروم والقرامطة والمماليك ، يتنازعونها . وكل يستميل ويسترضي ، ويهب ويمنح ، ويقايل ويفتح ، لقاء خضوع يرجوه ، او مال يزجي اليه ، من غلال الفلاح ، او رسم يفرض على تجارة تهبط البلاد

اما السلاجقة فقد شغلوا بامر انفسهم واطماعهم الخاصة ، فلم تكن لهم دولة بل دول ، وما كانوا يمتنعون عن اللجوء الى خصم اجنبي ليتقوا على آخر شرقي ، خصوصاً بعد وفاة كبيرهم ملكشاه (١٠٩٢ م) ، فصار الامر الى الاتابكة الذين شغلوا الناس في القتال دون مطاعمهم

(١) القيت في نادي الشبيبة الارثوذكسية بيافا (فلسطين)

وأما الفاطميون فمع ان سلطانهم السياسي قد دفع عن أكثر سوريا، فقد بقي لهم في المدن الكبرى وفي الضياع اتباع يدينون برأيهم حتى ان السلاجقة الامراء كانوا كثيراً ما يترضونهم^(١) وما تغلب السلاجقة الا لانهم سفيون وأكثر السكان من مذهبهم^(٢)، ولان المصريين اساءوا السيرة مع هؤلاء^(٣) ثم انهم لم يعيروا السكان التفاتاً لما دهمهم الخطر الافرنجي. فقد ذكر النويري ان السبب الذي دعا اهل طرابلس الى التسليم انهم بينا كانوا ينتظرون وصول النجدة بحراً من مصر جاءهم رسول الخليفة الفاطمي على مركب يطلب منهم، لاسم الخليفة، جارية جميلة كانت في طرابلس وخشب مشمش يصلح لعمل عود وغيره من آلات الطرب^(٤) اضاف الى ذلك انهم (اي المصريين) لما دهشوا لغزو الفرنج الشام، لم يريدوا ان يثيروا حفاظهم خشية ان يهاجروا مصر، فكان انجادهم للشام ضعيفاً

والخلافة العباسية كانت في نحوى عن كل ما في الشام او غيره. فالضعف مستحوز عليها وامرها بيد غيرها. فلاخير يرجى منها ولا أمل. فهذا ابن عمار، صاحب طرابلس، يشتد به الامر (١١٠٧ م و١٥٠١ هـ) فيذهب الى بغداد مستنجداً، ويطول مقامه هناك على غير طائل^(٥). وهذا هاشمي من حلب، يذهب الى بغداد (١١١١ م و٥٠٥ هـ) يصحبه صوفية وتجار وفقهاء ليستنجدوا، فلا يؤبه لهم حتى يدخلوا جامع السلطان، فينزلون الخطيب من المنبر، ويكسرونه، ويصيحون ويبيكون، لما أصاب سوريا من غزو الفرنج، ويمنعون الناس من الصلاة جمعيتين متتاليتين، حتى يوعز السلطان— وهو صاحب الامر والنهي في الخلافة — الى رؤساء الاجناد، بالتأهب للسير الى دار الجهاد^(٦) وفي غمرة هذا النزاع، ينشئ الامراء العرب أماراتهم الخاصة في سوريا. فطلي^(٧) في شرق الاردن، وعقيل في اطراف العراق، وكليب في حلب، وبنو عمار في طرابلس، وبنو منقذ في شيزر^(٨). هذا الى عدد كبير كانت له سيادة خاصة^(٩). كما ان غيرهم من متغلبة الامراء، صرفوا همهم في لهو وعيب، وترف وبذخ^(١٠). والامير يرث ابناؤه ملكه، كما يرثون مزرعته وبيته، فتنقسم الامارة الواحدة، وتصبح حرباً على نفسها^(١١)

ويتراءى لنا ان سكان البلاد كانوا راضين بهذا الذي أصابهم، من خصومة تستعر، ونزاع يستعر، بين الدول والامراء والزعماء والمتغلبة. ولكن الواقع ان هؤلاء هم الذين كونوا مادة الدول وقوتها، وكانوا هشيم القتال وناره، وكان لهم من ثم، نفوذ في شؤون بلادهم، وخشيم حكامهم الاتراك، كما استماتوا في الدفاع عن نفوسهم ضد الصليبيين^(١٢). وكانت جبال لبنان مأوى الموارد، وشمالهم النصيريون (العلويون) وجنوبهم الدروز وشيعة جبل عامل، وقد استطاع

(١) Gibb 16-17 (٢) الخطط ١-٢٦٣ (٣) الخطط ١-٢٥٨ و٢٤٩ (٤) نقله كرد علي الخطط ١-٢٩٢

(٥) الخطط ١-٢٩١ (٦) الخطط ١-٢٩٦ (٧) اسامة ١٢ (٨) راجع مقدمة الدكتور فيليب

حتى لكتاب الاعتبار لاسامة بن منقذ (٩) Gibb 17-18 والخطط ١-٢٤٦ و٢٤٩ (١٠) الخطط ٢-٥٢

(١١) الخطط ٢-٤٨ (١٢) Gibb 26-27

هؤلاء ان يتمتعوا باستقلالهم المحلي الى مدى بعيد^(١). وفي القلاع الحصينة القوية كان الاسماعيليون^(٢) الثوار، ينظمون شؤونهم، ويوفدون رسلهم ليغتالوا كل من يحاول النيل منهم أو التعرض لهم وكل من هؤلاء الامراء كان يعنى بتحصين قلاعه وتضخيم أسواره ضد سيده أو جاره^(٣) وباختلاف هؤلاء القواد كانت تختلف أجناس الجند، فأكثرهم أترك من اواسط آسيا، ولكن بينها السلافيون من شرق اوربا، والروم، والارمن، والكرج^(٤) (الشراكسة) والديلم^(٥) والتركان (الغز)^(٦)، والمغاربة^(٧)، والاكراد^(٨)، والخوازمية^(٩)، والخراسانية^(١٠). فقد اجتمع في الجيش الصلاحي، مثلاً، من الجموع والألسنة، من لا يحصر معدوده، ولا يتصور وجوده^(١١).

والجيوش التي جيشها مختلف الامراء تفاوت عددها كثيراً. فقد كان جيش ملكشاه (٤٠٠.٠٠٠) وله (٤٦.٠٠٠) من العبيد^(١٢)، وجيش كربغا الذي قاده لحصار انطاكية (٥٠.٠٠٠)^(١٣)، وفي سياحات مندقل أنه من السهل على ملك مصر أن يجيش (٥٠.٠٠٠)^(١٤) أما جيش صلاح الدين في حصاره لعكا (١١٨٩ — ١١٩١) فنستطيع ان نتصور عدده اذا اطلعنا على ما جاء في السلوك عن «السوق الذي في عسكر السلطان»^(١٥). فقد روى المقرئ في نقله عن البغدادي «كان السوق الذي في عسكر السلطان على عكا عظيماً جداً، ذا مساحة فسيحة. فيه مئة واربعون دكان بيطار. وعددت عند طباط واحد ثمانية وعشرين قدراً، كل قدر تسع رأس غنم. وكنت أحفظ عدد الدكاكين لأنها كانت محفوظة عند شحنة السوق، وأظنها سبعة آلاف دكان، وليست مثل دكاكين المدينة، بل دكان واحد مثل مئة دكان، لان الحوائج في الاعدال والجواليقات. ويقال ان العسكر أنقنت منزلتهم لطول المقام، فلما ارتحلوا غير بعيد. وزن سمان اجرة نقل متاعه سبعين ديناراً. وأما سوق البز العتيق والجديد فشيء يهر العقل. وكان في العسكر اكثر من الف حمام، يغسل الرجل فيه رأسه بدرهم أو اكثر» وكان أصغر الامراء له على الاقل الف جندي^(١٦).

(١) Gibb 28، الخطط ٢ — ٤ و ١٤ و ٣٢ و ١٢٢ و ١٣٥ و ١ — ٢٥١ والكنيسة ١٨ — ٢٠٩ و Lamb ١٨٧ والحريري ٧٦ ولعل بعض الموازنة انضم الى الصليبيين كما ساعدتهم بعض شيعة جبل عامل (٢) ابن جبير ٢٢٩ والمقرئ (السلوك) ١ — ٦١ (٣) مثل تحصين انطاكية — راجع 45 Kugler و Lamb 106 (٤) Gibb ٢٩ و ٣٣ و Kugler 7 و Lamb 166 والخطط ١ — ٢٨٠ واسامة ١٠٣ و ١٠٦ و ٢٠١ وتاريخ الكنيسة ٧٥ (٥) Gibb 35 (٦) Gibb 19, 25, 36 والخطط ١ — ٢٥٣، ٢٦٢، ٢٦٣، والفتح ١٥٦ (٧) Gibb 37 (٨) اسامة ٣٧ و ٤٧ و ٤٨ و ٤٩ و ٦٦ و ٩٥ و ١٢٢ و ١٤٩ (٩) تاريخ الكنيسة ٨١ و ٨٢ والخطط ٢ — ١٠١ (١٠) اسامة ٧٣ و ٧٤ و ١٥٦ و ١٥٨. والظاهر ان مهمتهم كانت نقب الاسوار (١١) أبو شامة ٢ — ١٨٥ والفتح ٢٤٩ — ٢٥٠ (١٢) Gibb 36 والخطط ١ — ٢٧٥ (١٣) Kugler 50 (١٤) Early Travels 146 (١٥) المقرئ «السلوك» ١ — ٩٤. والمقرئ يقول انه نقله عن عبد اللطيف البغدادي، ولعل المصدر الذي يشير اليه هو الذي يسميه البغدادي الكتاب الكبير المذكور في كتابه المطبوع. والكتاب الكبير هذا لم يصل الينا (١٦) Gibb 36

ومن ملاحظة ما ذكرناه عن الجند نستطيع أن نقول أن سكان سوريا في العصر الصليبي كانوا مجموعة من الشعوب ، أكثرهم عرب ، ومعهم هذه القبائل التي مرت بنا ، وفيهم النساطرة واليعاقبة واليونان والموارنة من النصارى ^(١) ، والباقون — وهم أكثر السكان طبعاً — المسلمون . وفي كثير من المدن كان اليهود ، وبأيديهم الصناعات ^(٢) . ولعلّ عددهم لم يتجاوز العشرة آلاف ^(٣) . وكانت اللغة العربية اللغة الجامعة لهم جميعاً ، ولهم لغاتهم الخاصة . والعلاقات بين أهل سوريا ، مع اختلاف المذاهب ، كانت حسنة ^(٤)

وقد أناط الحكم بالنصارى واليهود أعمالاً رسمية كثيرة من ذلك ان العادل ولى (١١٨٣ م و ٥٧٩ هـ) الانشاء وما يتعاق بأمر السر « الصنعية بن النحال » وكان نصرانياً — ثم اسلم على يد العادل — فولى ابن النحال الوظائف لجماعة من النصارى ، وفي ذلك يقول الشاعر :

فاق دين المسيح في دولة العادل حتى علا على الأديان

ذا أمير وذا وزير وذا وَا ل وذا مشرف على الديوان ^(٥)

كما أن مستوفي دار حلب كان نصرانياً ^(٦)

الحالة الاقتصادية

هذا الوضع السياسي الشاذ الذي كانت فيه سوريا ، ترك في كل نواحي الحياة فيها آثاراً سيئة ، فهذه الاحداث المستمرة أثرت في احوال البلاد الاقتصادية ، زراعتها وتجارتها وصناعاتها . واذا ساءت الادارة ساء معها كل شيء . وهذه دمشق ينقص عدد سكانها من نحو نصف المليون الى ثلاثة آلاف بسبب ادارة الفاطميين السيئة (١٧٠٥ م) ^(٧) . أما حلب فتتقدم بحسن ادارة اق سنقر ^(٨) فأما الزراعة فلم يولها السلاجقة عنايتهم ولا رعايتهم . وكان أصحاب الاطراف أشد وطأة منهم ^(٩) وتضررت البلاد من الاحداث . فلم تينع الثمار ، وتكثر الزروع ، وتستغل الأرض ، الا في الأماكن الممتازة بحسب تربتها وكثرة ماؤها كغوطة دمشق واطراف يافا وقيسارية وناطكية وطرابلس . ولعلّ سبب ذلك شيوع التملك الفردي ^(١٠) . وفي زمن احتلال الصليبيين للبلاد لم يكن للفلاحين حرية في استثمار الارض بله امتلاكها ، وتأخرت الفلاحة السورية وبقيت اراض كثيرة مواتاً ^(١١) . ومن هنا كانت كثرة حدوث المجاعات في سوريا أبان القرون الحادي عشر والثاني عشر والثالث عشر ^(١٢) . على أن بعض التحسن طرأ على الحالة الزراعية بعد ان استقرّ الفرنج في البلاد ، واطمان اليهم الفلاحين ، واطمانوا هم الى الفلاحين

(١) Gibb 29 و Kugler 11 و Lamb 127 وتاريخ الكنيسة ٧٥ و ٧٧ واسامة ٧٩ و ٨٠ وأبو شامة

١ — ٣٢ (٢) الحسني ١١٨ (٣) Prutz 8,151—152 و Early Travels 78—98 (٤) ابن جبير ٢٦٨ ،

ابن بطوطة ١ — ٤٩ (٥) أبو شامة ٢ — ٥٢ (٦) الخطط ٥ — ٧٢

(٧) Gibb 27 عن سبط ابن الجوزي (٨) نفس المكان (٩) الحسني ١٠٠ (١٠) الحسني ١٠١ (١١) الحسني

١٠٥ (١٢) نفس المكان

وأما الصناعة فقد قامت في المدن الكبرى قوية على العموم . وقد كانت سوريا مناطق ، تحيد كل منطقة منها صناعة . ففلسطين تصنع المرايا المعدنية والزجاجية وقدور القناديل والابر والخرز ، وصور تصنع الزجاج ، ودمشق تصنع الديباج والانسجة ودهن البنفسج والورق ، وبلبلك وحلب تحيك الاردية ويروت تتقن تربية الحرير ونسجه ^(١) . وتشارك طرابلس تكرير السكر ونسج الحرير ^(٢) ، وفي طرابلس وحدها كان المشتغلون بالحرير نحو اربعة آلاف ^(٣) واشتهرت مدن اخرى بالمينا والصيني . هذا الى الاسلحة المتنوعة المموهة بالذهب . وقد وصلت المدي الشامية جاوه في جزر الهند الشرقية ^(٤)

وفي زمن الحروب الصليبية احتاج الجنود الكثيرون الى الثياب والعُدّة والسلاح ، فقوى ذلك الصناعات المختلفة . وقد ترك لنا ابن جبير الرحالة المغربي وابن بطوطة والادريسي والمقدسي وجوانشيل ومنذفيل ^(٥) وغيرهم ممن اقام في سوريا اوساح فيها في تلك الازمنة صوراً حية قوية للتقدم الصناعي الذي كانت عليه سوريا ، وانواع الصناعات التي كانت فيها ، ومدى اتقانها . فالحرير والزجاج والصابون والاسلحة والصيني والسكر والدبس السوري كان في درجة المصنوعات الرومية والاصفهانية والعراقية والمصرية ^(٦)

وقد احتفظت سورية بقيمتها التجارية ، سيما وان المدن الايطالية كانت لا تعرف غيرها طريقاً للشرق الاقصى ، وخصوصاً بعد ان ضيق ملوك برنطية الخناق عليهم خوفاً من منافستهم . وهذا الاتجاه الجديد في اتخاذ موانئ سوريا مراكز للتجار مع الشرق الاقصى قام به الجنوبيون والبيزيون والبنادقة والاملفيون ^(٧) والنابليسون ، فصارت عكا واسكندرونة وطرابلس وصور محط رحال القوافل ، ومستودعاً لحاصلات الصين والهند وبلاد العرب ، وموزعاً لاسواق ايطاليا وفرنسا . وقد كان اول قنصل في التاريخ بندقياً تعين في عكا في اواسط القرن الثاني عشر الميلادي ^(٨) وفي اثناء الحروب اعان تجار الاوربيين الصليبيين على الفتح ، وكان جزاؤهم على ذلك اسواقاً وخانات خاصة بنوها لتجارهم وتجارهم ، مع انهم لم يهتموا ببناء كنيسة حتى في القدس . وزاد في العصر الصليبي اشتراك اهل جنوب فرنسا مثل سكان موندليه ومرسيليا وزيون . في هذه الاسواق السورية كانت تلتقي الثمار والفواكه والمصنوعات المحلية بالبهارات والجواهر والمسك والتمر والنيلة واليشب وبقية

(١) الحسني ٩٢ — ٩٣ و ١١٦ (٢) الحسني ٩٤

(٣) الحسني ١١٢ عن هايد (٤) الحسني ٩٤ (٥) رحالة انكليزي زار سوريا في القرن الرابع عشر راجع اخباره في Early Travels 127—282 وعن الصناعة ١٤٣ (٦) الحسني ١١٦ — ١٢٠ (٧) كان لالماني المدينة الايطالية مستعمرات تجارية في برنطية وانطاكية والقدس . راجع 8 — 9 Kugler و 108-9, 358 Prutz (٨) فيليب حتي — الكتاب الذهبي ليوبيل المقتطف ١٤٩

منتجات الشرق الأقصى ، وبالأجواخ والانسجة الملونة والكتان والخيوط الذهبية والحرير
الفرنسية والإيطالية (١)

ولعل خير شاهد على التقدم التجاري ، غير ما مر بنا ، الخانات التي كانت بين المدينة والآخرى
ينزل فيها التجار . فبعضها كان كانه القلاع امتناعاً وحصانة وابوابه حديد ، وهي من الوقاية في غاية (٢)
حتى أبان المعارك ، ما كانت تقف التجارة ولا تمتنع . يقول ابن جبير (٣) ومن اعجب ما يحدث
به ان نيران الفتنة تشتعل بين الفتيين مسلمين ونصارى وربما يلتقي الجمعان ويقع المصاف بينهم ورفاق
المسلمين والنصارى يختلف بينهم دون اعتراض عليهم . وفي مكان آخر (٤) ان قوافل المسلمين تخرج
الى بلاد الافرنج وسيبهم يدخل الى بلاد المسلمين . وقد شاهد هذا هو بنفسه . وكانت الضرائب
معينة متفقاً عليها بين الافرنج والمسلمين ، يدفعها تجار كل قوم في بلاد الآخرين (٥) وكانت هناك
ضرائب على الجسور وعند مداخل الاودية وامام الحصون (٦) اما كن دفع الضريبة منها تبني وبانياس
وكان بين مصر وسوريا مركز جرمي في قسطنطينية (حول العريش) حيث يفتشون التجار والامتعة
والجواز عليها من الشام الى مصر وبالعكس براءة ، ومجباها كل يوم الف دينار من الذهب (٧) على
انه لما خضعت مصر والشام لدولة واحدة ، واشتدتا في مقاومة الصليبيين ، قويت التجارة بينهما
وزالت الحواجز الجرمية (٨)

الحالة العامة

قبيل الحملة الصليبية الاولى كانت سوريا مركزاً قوياً من مراكز الحضارة الاسلامية . ذلك لان
الثقافة الاسلامية ، التي اقتضت قبلاً على بغداد وما إليها ، وجدت الآن في كل مدينة كبيرة تربة
خصبة . فتنقل العلم في المدائن ، وانتشرت المكتبات الكبرى ، ووضعت الموسوعات ، وتعددت انواعها
كما تنوعت الابحاث العلمية والسياسية والاقتصادية ، واصبحت المعرفة موزعة على كثير من السكافة
بعد ان كانت وقفاً على الخاصة . وشجع الامراء المحليون هذه النزعات الادبية ليم لهم مجال الفخر
على اقرانهم ، والتفوق على أندادهم ، أو حرصاً على نشر التعاليم الاسلامية أو رغبة في العلم نفسه (٩)
فأدى هذا الى نضوج الفكر (١٠) في كل ما درس من علوم الرياضة والفلك والطب والفلسفة والمنطق .
ومع أن الاوضاع السياسية والحربية في العصر الصليبي كان من شأنها ان تصرف الناس عن العلم ،
فقد احتفظت سوريا بالكثير من علمها ، وكانت المدارس منتشرة (١١) ، وحلقات التدريس في المساجد

(١) الحسن بن ١١٢ والمقرئ «السلوك» ١ - ١٨٦ (٢) ابن جبير ٢٣٣ - ٢٣٤ (٣) ابن جبير ٢٦٨

(٤) ابن جبير ٢٨٠ و ٢٨٢ (٥) ابن جبير ٢٦٨ (٦) الحسن بن ١١٢ (٧) ابن بطوطة ٣١ - (٨) المقرئ

«السلوك» ١ - ٩٩

(٩) تاريخ الموصل ٢ - ٨٩ - ٩٠ (١٠) زيدان - آداب اللغة العربية ٢ - ٢٣١ (١١) زيدان - آداب اللغة

العربية ٣ - ١٢

معقودة ، ودور القرآن بالطلاب عامرة ، والمعاجم التاريخية والجغرافيا موضوعة بين أيدي الناس .
والذي وصل إلينا من أمهات الكتب التي ألفها العلماء في الابحاث المختلفة ، منذ أواسط القرن الرابع
الهجري الى أواسط القرن السابع أربى على السبعائة غير ما فقد منها وهو كثير (١)
وأول من أنشأ ابنية خاصة للمدارس هو نظام الملك وزير ملكشاه السلجوقي ، في القرن الحادي
عشر للميلاد ، ثم هذا الاتباع حذوه . وكانت قبله دور العلم هي المساجد وحدها . وقد زاد عدد
المدارس السورية الكبرى ، في امهات المدن ، عن المائة والخمسين بين القرن الخامس والقرن السابع
الهجري (٢) . وكان في دمشق وحدها ثلاث مدارس عالية للطب (٣) ومدرسة للهندسة (٤) . وهذا
صلاح الدين لا يكاد يفتح القدس (١١٨٧ م و ٥٨٣ هـ) حتى يؤسس فيها مدرسة (٥) ، ويفعل مثل
ذلك في عكا (٦) وقد غني الامراء بانشاء دور للقرآن (٧) ودور العلم والحكمة ، كالتي انشأها ابن عمار
في طرابلس ، فاصبحت طرابلس بها مباءة علم ودرس ومباراة في التعليم ، وجهز هذه الجامعة بمائة
الف مجلد (٨) وكانت فيها مدرسة اليعاقبة (٩) ولعل طرابلس كانت اول مدينة علمية بالشام لما استولى
عليها الصليبيون (١٠) وكذلك كانت مدن كثيرة في سوريا مشحونة بالعلم ككفر طاب وقرى دمشق (١١)
والقدس . وكان الاتفاق على التعليم يتوافق مع العناية بالمدارس ، لان لكل مدرسة اوقافاً نجس
عليها ، فلا تصرف في غير هذه السبيل . وقد كان ارزاق ارباب العمام في دولة صلاح الدين تتجاوز
مائتي الف دينار بشهادة الله (١٢) وكان للسلطين وكبار القواد والامراء مجالس ادب يحضرها العلماء
والفقهاء ، والمحدثون والشعراء ، فتكون سبيل ارشاد وافادة (١٣) وهذا صلاح الدين كان ينفق من
صدقاته على ستمائة من فقهاء دمشق (١٤) والملك المنصور صاحب حماة كان يصحبه نحو مائتين من
النحاة والفقهاء والمشتغلين بالعلم (١٥) وكان في سوريا ، وفي مدنها الكبيرة فقط . نحو عشرة
مستشفيات مع ما يتصل بها من صيدليات ومدارس طبية (١٦)

هذه العوامل المختلفة ساعدت على نشر التعليم بين عدد كبير من الناس كما قدمنا ، ولم تحصره
في عدد قليل من الخاصة . ولعل من الخير ان نشير هنا الى ان تعاليم اخوان الصفا الفلسفية كانت منتشرة
بين الاسماعيليين (١٧) . وقد عثر على كثير من نسخ رسائلهم في القلاع الاسماعيلية (١٨) . وقد كانت
أشهر الكتب تداولاً في نهاية القرن العاشر للميلاد رسائل اخوان الصفا ومفاتيح العلوم والفهرست
لابن النديم (١٩) ، وهي كتب لها خطرهما في الحياة العقلية

(١) راجع زيدان - تاريخ آداب اللغة العربية - الجزء الثاني والثالث وأيضاً 4-53 Prutz

(٢) الدكتور خليل طوطح ١٤٤ - ١٦٣ والخطوط ٦٨ - ٧٠ وتاريخ الموصل ٩٠ - ٩١ (٣) الخطوط ١٠٢ - ٤ (٤) الخطوط ٤٩ - ٥٤ (٥) Prutz 54

(٦) الفتح ٧٣ (٧) الخطوط ٤ - ٧ و ٣٨ « اول دار انشئت للقرآن سنة ٤٤٤ هـ » (٨) الخطوط ٤ - ٣٨
(٩) منها ابو الفرج العبري المؤرخ . راجع الخطوط ٤ - ٣٩ (١٠) الخطوط ٤ - ٣٨ عن فان برشم (١١) ابن النديم
في الخطوط ٣٨ - ٣٩ (١٢) القاضي الفاضل في الخطوط ٤ - ٣٩ (١٣) الفتح ١٢١ والنوادر السلطانية ٧ (١٤) الخطوط ٤ - ٣٩ (١٥) الخطوط ٤ - ٤٤ (١٦) الخطوط ٦ - ١٦٢ - ١٦٣ (١٧) الكلية ١٨ مقال للسيد طيباوي عن
« اخوان الصفا » (١٨) نفس المكان (١٩) نفس المكان

جبال النور

لصمى ملبى

مصلحة السكك الحديدية المصرية

ان العمل بالمرصد الفلكية الرئيسية في أنحاء الكرة الارضية قائم الآن على قدم وساق لوضع خريطة مساحية لتخطيط السماء (Great Star Map) قالة التصوير تعمل مضافة الى المرقب (التلسكوب) بمجد ونشاط والمديرون يدرون دفة الاعمال بهمهم عالية ومساعدوهم يدأبون أثناء الليل واطراف النهار . ومع ان هناك صعوبة تذكر في تصوير النصف الجنوبي من السماء لقلة عدد المرصد الفلكية في نصف الكرة الارضية الجنوبي وعدم انتظام مواقعها الجغرافية بالمقابلة مع نصف الكرة الارضية الشمالي ، فقد بلغ عدد النجوم التي تم تصويرها فعلا حوالي عشرين مليون نجم ، ولا تستغرن فمسألة تسجيل عدد النجوم أصبحت سهلة الآن بفضل استعمال الجهاز المسمى (Billiard Marker) المستعمل عادة عند كبار هواة البلياردو فبينما الفلكي يحرك لوحاته تحت المرقب بأحدى يديه وهو « سهران يعد النجوم » يمكنه باليد الاخرى أن يضغط على زبركات الجهاز ضغطات تسجل كل منها عدداً معيناً من النجوم التي يكون قد عدّها من دون أن يحول نظره البتة عن لوحاته فيتم العمل على هذا الوجه بسرعة وضبط مقطوعي النظر . ويقول اولو الامر أن تلك الخريطة المساحية العامة ينتظر أن تقع في جملة لوحات (Charts) لا يقل عددها عن ٣٠٠٠٠ لوحة لو وضعت بعضها فوق بعض لبلغ ارتفاعها اكثر من تسعة أمتار وبلغ وزنها طنين كاملين وهنا ربما سأل سائل ما هو مجموع عدد النجوم التي ينتظر ان تحويها تلك الخرائط المسكدة بعضها فوق بعض في النهاية يا ترى ؟

يعتقد الفلكي الشهير الدكتور شابلي الاستاذ بجامعة هارفرد ومدير مرصدها Dr. Shapley أن عدد نجوم المجرة وحدها Milky Way — ونظامنا الشمسي جزء منها — يبلغ مائة الف مليون نجم ويعتقد وغيره من الفلكيين أن عدد نجومها يربى على ثلاثة أمثال هذا الرقم . وليست مجرتنا هي المجموعة النجمية الفردية في الكون لا بل من المسلم به أن بواسطة تلسكوب مرصد جبل ولسن — وقطر مرآته العاكسة مائة بوصة — يمكن الوصول الى نحو مليوني مجرة كمجرتنا منشورة كالجزر في بحر الفضاء . فمجرتنا اذن كما قال الفلكي العظيم السير جيمز جينز Sir James Jeans ما هي الا منزل واحد من ملايين المنازل وأسرة واحدة من ملايين الأسر النجمية (السدم) ، فلو قلنا بعد ذلك أن مجرتنا تحوي أكثر نجوم السماء كان مثلنا مثل من قال أن منزلاً واحداً يحوي سكان بريطانيا العظمى بأسرها

والآن دعنا نضرب صفحاً عن عدد المجرات التي سوف نراها اذا ما تمّ بناء التلسكوب الجديد الذي سوف يكون قطر مرآته ٢٠٠ بوصة والذي قيل أن من المنتظر الوصول به الى ١٦ مليون مجرة . ودعنا نتساهل الى أبعد حد ممكن ونعتبر فرضاً ان ليس في فضاء هذا الكون الفسيح الرحيب سوى مجرتنا العظيمة والمليوني مجموعة من المجموعات النجمية التي ترى بواسطة تلسكوب مرصد جبل ولسن فكم يكون مجموع النجوم التي ينتظر أن تحويها صحائف مجلدات الخريطة النجومية الكبرى الجاري وضعها الآن ؟

ان مجرتنا كما قال الدكتور شابلي تحتوي على مائة الف مليون نجم اما كل مجرة من المليون في مجرة
ال اخرى فتتكوّن على الاربع من الف مليون نجم في المتوسط فيكون المجموع هكذا :

مئة الف مليون نجم + ٢ مليون مجموعة \times الف مليون نجم = ١٠٠.٠٠٠.٠٠٠.٠٠٠

$$1 \cdot 2 \cdot 3 \cdot 4 \cdot 5 \cdot 6 \cdot 7 \cdot 8 \cdot 9 \cdot 10 = 2 \cdot 3 \cdot 4 \cdot 5 \cdot 6 \cdot 7 \cdot 8 \cdot 9 \cdot 10 \times 2 \cdot 3 \cdot 4 \cdot 5 \cdot 6 \cdot 7 \cdot 8 \cdot 9 \cdot 10 +$$

$$1 + 2 + 3 + \dots + 100 = \frac{100 \times 101}{2} = 5050$$

هنا دعنا نسلّم جدلاً ان تلك النجوم والكواكب والشموس التي يفوق حجم كثير منها حجم شمسنا مئات المرات قد تضاعلت وانكشفت حتى اصبح حجم الواحد منها لا يزيد عن حجم البرتقالة العادية ودعنا ايضاً لنصدق ما لا يمكن لعقولنا تصديقه من ان تلك البرتقالات اللوامع قد هبطت جميعها بسلام على سطح كرتنا الارضية فكم يكون حجم تلك البرتقالات اذا ما رآكمت بعضها فوق بعض او قل معي كم يكون حجم «جبال النور» المتلائة التي سنراها يا ترى ؟

اننا لو قدرنا ان قطر البرتقالة العادية يساوي ثمانية سنتيمترات لكانت هذه البرتقالات الساطعة الالامعة مجمعة بعضها فوق بعض على شكل مكعب متساوي الاضلاع تساوي ما يأتي : —

$${}^2_3\text{م} ۲ \cdot ۴۸ \cdot ۵۱۲ \dots = (\lambda \times \lambda \times \lambda) \times ۴ \dots ۱ \dots$$

اي ۲۰۰ ۰۰۱ ۲۰۴۸ مترًا مکعبًا اي اکثر من ۲۰۴۸ كيلو مترًا مکعبًا

اي ان « جبل النور » هذا يبلغ طوله ١٢٦٧٠٠ كيلو متر وعرضه ١٢٦٧٠٠ كيلو متر وارتفاعه كذلك ١٢٦٧٠٠ كيلو متر . فتأمل !!

واذا تراصت هذه البرتقالات على شكل هرمي لبلغ حجم هذا الهرم ما يأتي : - نفرض ان عدد صفوف هذه البرتقالات اللوامع المتراسة على شكل هرمي هو «ن» فيكون
برتقالة = $\frac{1}{n} (1 + n) (1 + 2 + \dots + n)$ قانون ومن هنا ينتج أن « ن » اكبر من ٢٢٨٩٤٤ واصغر من ٢٢٨٩٤٥ اي ان الصف الاخير عند قاعدة هذا الهرم البرتقالي يحتوي على ٢٢٨٩٤٤ برتقالة ولما كان قطر البرتقالة هو ثمانية سنتيمترات فرضاً

فاذن : طول ضلع القاعدة المربعة لهذا الهرم الموهوم يساوي : —

$$1831052 = 8 \times 228944$$

[التمتع في الاخبار العلمية]

عالم المستقبل العجيب

مستقبل الحرب والملبس والمأكل

أهم ما جاء في محاضرتين أذاعهما رئيس تحرير المقتطف من محطة الاذاعة اللاسلكية المصرية في شهري مارس ومايو الماضيين وحققتهما منتزعة في الغالب من كتاب « ولادة المستقبل » لرتشي كالدرو « عالم المستقبل العجيب » للاستاذ لو « شكل الاشياء القادمة » للكاتب الانكليزي ولز. وقد نشر الجانب المتوسط الخاص بمستقبل الحروب في مجلة الراديو المصري

١ - الانباء بالمستقبل

اذا تصفحنا برامج التعليم بوجه عام تبيننا لدراسة التاريخ فيها مقاماً عالياً . ولكننا قلنا نجد ذكراً لدراسة المستقبل . بل لو قال أحد المتحمسين ان المستقبل ، يجب أن يدرس في المعاهد لقوبل قوله بالازدراء والاشفاق على عقله ولقيل في الرد عليه : ان كل صبي يقرأ أقاصيص الروائيين أمثال قصص جول فرن وحكايات ولز العلمية وما هو من قبيلها ولكننا لا نستطيع أن نقيم وزناً لدراسة هذه الموضوعات ولا أن نعني بها عناية جديده . أما دراسة التاريخ فتختلف عن دراسة المستقبل لأنها تتناول حوادث معينة نعلم حق العلم أنها وقعت في الماضي

الآن أن طائفة كبيرة من المفكرين أصبحت ترى رغم هذا الاعتراض أن المستقبل يمكن أن يدرس في المعاهد . وان دراسته لا تقل في دقتها عن الدقة في دراسة الماضي . وانها على كل حال أجدي وانفع . فنحن اذا عجزنا عن تغيير الماضي فالاهتمام بالمستقبل قد يكون ذا شأن يسير في تحويل مجراه

ولرب معترض يقول : كيف تستطيع أن تعرف ما قد يقع في السنة القادمة ، دع عنك ما قد يقع بعد خمسين سنة أو بعد مائة سنة ؟

والرد على ذلك انه أسير على العلماء ان يعرفوا ما ينتظر حدوثه بعد خمسين سنة من أن يعرفوا ما قد يحدث في السنة القادمة . وما يصح على دراسة المستقبل من هذا القبيل يصح كذلك على دراسة الماضي . فكتابة تاريخ السنة الماضية أشق من كتابة تاريخ لعهد الملك ادورد مثلاً . فقد يكون الحادث الاهم في السنة الماضية حرباً نشبت بين دولتين كبيرتين . ولكن اذا كتب تاريخ السنة الماضية

بعد خمسين سنة ، فقد لا يقرأ حفيدنا عن هذه الحرب إلا بضعة سطور . وقد يكون المقام الاول في تاريخ السنة الماضية حينئذ ، لا اكتشاف وسيلة وافية لحزن الطاقة الكهربائية . فقررنا لحوادث السنة الماضية يحير نظرنا ويجعل وزن الامور بميزانها الحقيقي من أعسر الاعمال بل من الاعمال المتعذرة وقد كانت دراسة التاريخ الى عهد قريب تتناول الحروب وتتويج الملوك في الغالب . ولرب تاريخ فتح أو غزوة أو تتويج يتعلمه جميع طلاب المدارس على انه من حوادث التاريخ الخطيرة لا يقابل من حيث اثره في العمران بمكتشفات فراداي الكهربائية بل لا يقابل بأحدها ، فنحن نعلم ان أحد ملوك فرنسا قطع رأسه في الثورة الفرنسية ، ولكن حادثاً أخطر شأنًا من هذا الحادث ، وهو اعدام لافوازييه الكيميائي ، قلما نراه مذكوراً في تواريخ الثورة الفرنسية او اذا ذكر فانه يذكر عرضاً أو في الهامش

فالكتابة عن المستقبل يسهل فيها اجتناب مثل هذه الاخطاء . فلست نجد عاقلاً يجرؤ ان يقول لك من يكون رئيساً للولايات المتحدة الاميركية بعد خمسين سنة ، ولا هو يستطيع ذلك . ولكن من المستطاع أن نتصور كيف تكون معيشة الناس بعد قرن من الزمان او بعد عشرين قرون . ففي وسعنا ان نعرف على وجه من الدقة ، الطعام الذي يأكلون والملابس التي يرتدون والسيارات التي يمتطون ، وهذا كله وما هو من قبيله أخطر شأنًا من تتويج الملوك وسقوطهم وانتخاب الرؤساء او اخفاقهم في الانتخاب . ان لافوازييه اخطر شأنًا من الملك لويس السادس عشر . واقليدس وارخميدس أبعد أثرًا في العمران من جميع الملوك والقواد في عصرهما

ان الكتابة عن المستقبل ليست حزرًا يوفق او يخطئه التوفيق . فاذا قلت لك انك سوف ترجع الجائزة الاولى في نصيب المؤاساة في السنة القادمة او اذا قلت لك انك سوف تتزوجين رجلاً مديد القامة أسمر اللون كان عملي من قبيل الحزر . وفي بعض القوانين في بعض البلدان ما يعاقب على هذا العمل . ولكن اذا اكدت لكم انه بعد انقضاء قرنين من الزمان لا نجد قطع الفحم إلا في دور الآثار وان الناس في سنة ٣٠٠٠ ب م قلما يعرفون ما هو الدخان المتصاعد من المصانع لا أبني قولي على الحزر . بل اكون طارضاً رأياً مبنيًا على دعامتين من الحقائق المعروفة المؤيدة الآن وما يرجح ترجيحاً علمياً اننا سوف نبلغه في المستقبل . وهذا هو صميم الاسلوب العلمي . خذ مثلاً على ذلك تزايد سرعة الطائرات في سباق شنيدر . فاذا نحن دوننا سرعة الطائرات التي فازت بالكأس في العشرين السنة الاخيرة ، والسنوات التي فازت فيها استطعنا أن نعرف على وجه من الدقة ما قد تبلغه سرعة الطائرة الفائزة في السباق المقبل اذا تم هو او ما كان من قبيله ، وقد جربت هذه الطريقة في السباق الاخير وعينت سرعة الطائرة الفائزة قبل السباق على هذا الاساس فلما عرضت سرعة الطائرة الفائزة فعلا ظهر أن التقدير اخطأ ٢ في المائة فقط

ويمكن استعمال هذه الطريقة في جميع نواحي الحياة فنبنئ على النتائج التي تسفر عنها صورة

للمستقبل . ومن الواضح أن التقدير في مسائل يشوبها شيء من الغموض مثل ملابس الناس ولغاتهم لا يمكن أن يكون دقيقاً في تفصيلاته فيكتفى فيه بالخطوط العامة

٢ - الحروب

يقول بعض الكتاب ، ان حروب المستقبل ، سوف تكون اشد ترويعاً ، واكثر اهوالياً من حروب الماضي . ولكن طائفة العلماء ، بوجه عام ، لا توافق على هذا الرأي . لا ريب في ان الحروب المقبلة سوف تكون فتاكة ، شديدة الفتك — وقد كانت الحروب جميعها كذلك — ولكن العلماء يقولون ، ليس الموت طعناً بالرمح ، اسهل من الموت اختناقاً بالغاز . على ان هذا ليس بالامر المهم . بل المهم ان واضعي الخطط الحربية في المستقبل ، سوف يدركون ان الظفر في حروب في المستقبل لن يكون بتقتيل بعض الجنود في الخنادق . لذلك ينتظر ان تتجه انظارهم اولاً وقبل كل شيء الى العقد العصبية في جسم الامة ، الى المصانع التي تجهز الجيش بل وسائر طبقات الامة ، بالغذاء ، من جهة وبوسائل الكفاح من جهة اخرى . وعلى ذلك لا بد ان يزول الفرق في الحروب المقبلة ، بين فريق المحاربين من الامة الواحدة ، وفريق غير المحاربين

فاذا قلنا وما ذنب غير المحاربين حتى يعرضوا لوسائل التقتيل ، قيل لنا لان غير المحاربين عليهم العمد في تجهيز المحاربين بالقنابل والطائرات والغذاء ، فهم والمحاربون سواء . فاذا منعنا غير المحاربين عن صنع الاسلحة والغذاء ، تعذر على المحاربين ان يحاربوا

ولذلك ينتظر ، في مفتتح حروب المستقبل ، ان تتجه وسائل الهجوم — وهي الطائرات في الغالب — الى العقد العصبية في جسم الامة ، ترميها بالقنابل المتفجرة ، فتدمر المصانع ، والقنابل المحشوة بالغازات والجراثيم ، فتسمت الاهلين . والدليل على ذلك الاتجاه ، ان بعض الدول التي تخشى الحروب ، اخذت يمين ابناءه على استعمال الكمائن التي تقي من الغاز . هذا من حيث خطة الحروب المقبلة بوجه عام

أما من حيث وسائلها فمن المتعذر تعيينها الآن ، لأن وسائل الحروب تتأثر الى حد بعيد بالاختراعات التي تكون سائدة عند نشوبها . ففي سنة ١٩٠٠ مثلاً ، كتب أحد الكتاب فقال إنه من المنتظر أن يكثر استعمال العجلة (البسكيت) في الحروب القادمة . ولكن قبلما نشبت الحرب الكبرى كانت قد استنبطت السيارات والطائرات واتقن صنعها الى حد ما ، فكانت في مقدمة الوسائل التي اعتمد عليها في الحرب الكبرى وقبلما استعملت العجلات الا ما كان يسير منها بآلة شبيهة بآلة السيارة (الموتوسيكل)

ولما كانت هذه الوسائل تحتاج الى البنزين في تسييرها ، كان البنزين اكبر مقام في الحرب . لذلك لما قلّ البنزين في فرنسا في خلال الحرب بعث كلنصو الى الرئيس ولسن تلغرافاً يناشده فيه العناية بالامر ، فقال — ولم يكن مبالغاً من الوجهة العسكرية — « ان كل قطرة بنزين بمثابة قطرة من الدم » ولكننا قد لا نحيد عن حدود المنطق العملي اذا قلنا ان الطيارات سوف تكون من أهم وسائل الحروب المقبلة . والصورة المروعة التي يرسمها الكتاب لاستعمال الطيارات ، هي كما يلي في الغالب : لا تكاد تنشب الحرب ، حتى تتجه أساطيل الطيارات حاملة قنابل متنوعة ، فمنها ما يكون محشواً بالمواد المتفجرة فتدمر ما تقع عليه ، ومنها ما يكون محشواً بالغازات والجراثيم فيفتك بالناس . ويرجح بعض العلماء ان المخترعين يكونون قد تمكنوا في المستقبل من اختراع وسائل لتخفيف ازيز الطيارات ، ووسائل اخرى تمكنها من الارتفاع اسراباً الى علو عشرين الف قدم ، ابتعاداً عن المدافع الخاصة باطلاق النار على الطيارات ، ومن ذلك العلو الشاهق تلقي قنابلها المختلفة على المراكز الصناعية المهمة

ولا ريب في ان طيارات الدفاع تكون قد اتقنت كذلك . فتستطيع ان تحلق تحلق طيارات الهجوم ، وان تسرع إسرائها ، وان تجهز بنوع جديد من القنابل على مثال الطوربيد الذي تطلقه الغواصات على السفن ، لترمي بها الطيارات الضخمة المهاجمة

والمرجح ان يكون لاشعة الراديو ، اي الاشعة اللاسلكية ، اثر في هذه الناحية من نواحي الحرب . فقد جرب بعضهم التجارب لتسيير البوارج والطيارات من بعيد بواسطة الاشعة اللاسلكية . ذلك ان البارجة تكون خالية من الران والبحارة ، والطيارة تكون خالية من السائق ومعاونيه ، ولكن كليهما تحتوي على جهاز خاص ، يتأثر بنوع معين من الامواج اللاسلكية . فتطير الطيارة من ارض المطار بتوجيه هذا النوع المعين من الاشعة اليها ، ثم اذا ارتفعت الى علو معين استطاع الرجل الجالس في غرفة على الارض ان يسيّرهما يميناً او شمالاً ، الى ان تبلغ مكاناً معيناً على الخريطة امامه ، فيضغط حينئذ على زرّ امامه ، فتلقي الطيارة قنابلها من تلقاء نفسها

وما يصح على الطيارة يصح كذلك على البارجة

هذه الاعمال لا تزال في دور التجارب الآن . ولكنها في الغالب تصبح من الوسائل العملية بعد خمسين سنة على الاقل ، ان لم نقل قبل ذلك

ويقول أحد العلماء ان من وسائل حروب المستقبل حصوناً تبنى في الهواء . وهنا قد يعترض معترض فيقول وكيف يكون الحصن في الهواء ، والاصل في الحصن ان يكون راسخاً في الارض ، متين البناء لا تزعجه القنابل ولا يدمره وقعها عليه

والواقع ان الأصل في الحصن هو الذي يُقوله المعترض . فاعتراضه في محله . ولكننا أشرنا الى ان أهم سلاح في المستقبل سوف يكون سلاح الطيارات تلقي قنابلها من الجو ، واذاً تحتاج كل

مدينة كبيرة ، أو كل مركز صناعي ، الى وسيلة تمكنها من صد إغارات الطائرات . لذلك يقترح بعض العلماء أن تبني حصون تحمّل في الجو على اكياس صغيرة من الهليوم . والهليوم غاز خفيف لا يلتهب اذا مسّته النار . أما الاكياس فيجب أن تكون كثيرة وصغيرة ، لأنها اذا كانت كبيرة وقليلة ثم خرقت أحدها رصاصة ، مال الحصن الهوائي وفقد توازنه . أما اذا كانت صغيرة فاختراق كيس هنا وكيس هناك ، لا يؤثر هذا التأثير في فقد توازن الحصن . وينتظر أن يجهز الحصن الهوائي الذي من هذا القبيل ، بمدافع لها قنابل تمزق ما تصيبه وتحدث فيه لهيباً ، فاذا اقترب الأسطول الجوي المهاجم من إحدى المدن ، كان هذا الحصن على علو كاف يمكن رجاله من اطلاق القنابل على الطائرات المهاجمة ، حالة ان المدافع في الحصون الارضية لا تستطيع أن تبلغها

ومن القنابل التي ينتظر أن تستعمل في مدافع هذه الحصون الجوية قنابل تحتوي على الغاز . ولكنه ليس بالغاز السام ، لأن طياري الاعداء يكونون لايسين على أفواهم وأنوفهم كلمات تقيهم منه ، ولكنه يكون غازاً يلتهب بشرارة صغيرة . فتطلق القنابل على الطائرات ثم تشعل بشرارة خاصة فتلتهب ، والتهابها يعرقل عمل الطيارين المهاجمين أولاً ، ثم ان تمدد الهواء بالتهاب الغاز يقلقل الطائرات نفسها

ومن أسلحة الحرب القادمة جهاز جهنمي يجمع بين مبدأ الدبابة (التنك) ومبدأ الغواصة . فتبني دبابات ولها حجير لا يمتزقها الماء ولها كذلك محركات كمحركات السفن . فاذا اعترض الدبابة نهر عريض اجتازته عوماً كأنها سفينة من السفن . ثم إذا بلغت الضفة الاخرى ، استأنفت سيرها على عجالاتها والسير الذي يحيط بالعجلات

بل قد جمع بعض المستنبيين بين الغواصة والطيارة . واليك ما كتبه أحد الكتّاب الحربيين قال : رؤي من عهد قريب منظار غواصة فوق سطح البحر كأنه كرة صغيرة على وجه الماء . ثم ما لبثت الكرة ان كبرت رويداً رويداً حتى أصبحت برجاً من الابراج التي ترى فوق دكات الغواصات . وبعد بضع ثوان ظهرت الغواصة على سطح الماء ، ثم فتح البرج وخرج منه بعض الضباط واخرجوا طيارة مطوية الجناحين . فنشروا جناحيها ووضعت على رأس منحدر فجرت عليه قليلاً ، واذا هي في الهواء فيها سائق يديرها ووراءه ضابط للمراقبة . فحومت نحو نصف ساعة حول الغواصة ثم عادت ورست قربها . ثم رفعت وطوي جناحها وأعيدت الى مخبئها . وبعد ذلك غاصت الغواصة تحت الماء فغابت بغتة عن النظر كما ظهرت بغتة »

وهم الآن يجربون تجارب خاصة في صنع طيارات ضخمة لمكاخفة الغواصات وهي غائصة في الماء ، بواسطة قنابل فعالة تعرف بقنابل العمق ، حتى اذا رأى رجال الطيارة غواصة تحت الماء ، اطلقوا هذه القنابل عليها فتستطيع ان تمزق دروعها ولو كانت غائصة وقد تصور المستر وزير ، الكاتب الانكليزي المشهور ، وسيلة فعالة عجيبة ، يرى انها سوف

تكون من وسائل الحروب المقبلة. ومع ان ما تصوره مبني على الخيال في الغالب ، فليس ثمة ما يمنع تحقيقه من الناحية النظرية . فقد تصور المستر ولز مركباً كيمياوياً تنثره الطائرات كرشاش الماء فوق بقعة من الارض ، فيصيب أجسام الاحياء من نبات وحيوان وانسان ، فتصاب بالعمى اي تصبح عاجزة عن التناسل ، فاذا انقرضت بضع سنوات ، اصبحت المنطقة التي رش فوقها هذا الرشاش قاعاً صافصفاً . ومن الصفحات المروعة في كتابه (شكل الاشياء القادمة) وصفه لحملة الجرائم ، التي بثت فيها جرائم الاوبئة المختلفة : كالانفلونزا ، وانواع الحميات ، والكوليرا ، والطاعون

على ان بعض الكتاب يرى ان الحكومات في حروب المستقبل ، لن تكتفي بأساليب الفتك المادية كالقنابل ، والغازات والجرائم ، بل سوف تعتمد الى الوسائل النفسية السيكولوجية التي تقوم عليها فنون الدعاية . فتبني احدى الحكومات مثلاً ، محطة راديو عظيمة القوة ، تذيع بها دعاية قائمة على اصول نفسية ، غرضها ان تضعف القوى المعنوية في ابناء الامة التي تحاربها . وقد تعتمد الى اساليب التلفزة — اي الرؤية عن بعد بالامواج اللاسلكية — فتمثل في « استوديو » خاص بالسينما ، مشهد الخدال اصيب به جيش العدو ، وتذيعه بآلة التلفزة ، على انه مشهد واقع ، فتفتت في غضد الشعب الذي خذل جيشه

ومما لا ريب فيه ، ان تاريخ الحروب قد أثبت ، ان كل اسلوب جديد للهجوم ، يقابله ويماشيه اسلوب جديد للدفاع . فزيادة القوة في قنابل المدافع ، تقابلها زيادة السمك في الدروع . واستعمال الغاز يقابله استعمال الكمادات التي تقي من الغاز . والطائرات المهاجمة ، تقابلها طائرات الدفاع السريعة ، والدعاية اللاسلكية ، تقابلها دعاية مثلها او طريقة علمية لتشويش الدعاية وعدم فهمها اشار الفلاسفة وبعض الساسة الى الحرب التي تقضي على الحرب . ولكننا لن نفوز بحرب تقضي على الحرب ، ما زلنا كما اخترع اسلوب للهجوم والفتك ، اخترع اسلوب يقابله للوقاية والدفاع . ليس يقضي على الحرب الا التعليم والثقيف ، والا البيان للناس بأن مصلحتهم افراداً وجماعات تقتضي السلام والوئام

٣ - الحرب

لا يختلف اثنان في أن اللباس والغذاء من ضرورات الحياة . ولعل بعض النساء يرى أن اللباس مقدّم على الغذاء ، في خطورة الشأن وعلو المقام . فكتاب الغرب يحدّثونا ، انه لا يندر في حواضر البلدان الاوربية والاميركية ، ان تستغني الفتاة العاملة عن الغذاء الوافي ، لتشتري بما توفره من ثمن الطعام ، جوارب حريرية تكسو ساقيها ، أو ثوباً على آخر طراز . وليس يندر بيننا في الشرق ان يضطر رب البيت الى الكدح ، أو ربة الاسرة الى التقتير ، لكي تهياً للسيدة فرصة

مجاراة اخواتها اللواتي هنَّ أيسر حالاً منها ، في ملابسهنَّ . بل لعلَّ موضوع الأزياء في الفصل القادم أو السنة القادمة ، واللون الغالب ، والنسيج المفضَّل ، من الموضوعات التي تستغرق اكبر جانب من عناية السيدات ووقتهنَّ . والعالم يهتمُّ بالأزياء كذلك . ولكنه يهتمُّ بها من ناحية ما ينتظر ان تكون عليه ، بعد مائة سنة أو خمسمائة سنة . ويهتم كذلك بالمواد التي تصنع منها الملابس ، من حيث نسجها ولونها ودفئها واجتماع الشروط الصحية فيها ، رغبة في توفير كل ما يجب ان يتوافر فيها ، على أيسر حال

كان الغرض الاصلي من الملابس ، تجهيز الجسم بالدفء ووقايته من تقلُّب الجو . ومن المحتمل ان تعود الملابس في المستقبل ، الى مكانتها الاولى في حياة الانسان ، فيصبح غرضها الدفء والوقاية فقط ، لا الزينة ، اذ لا يخفى انه انقضت قرون تليها قرون ، كان في خلالها الغرض الاول من الملابس الزينة لاستيقاف نظر الجنس المقابل . ولكن رأي الناس في المستقبل سوف يطرأ عليه تحوُّل وانقلاب . فالريش الثمين في قبعة سيدة ، أو على صدر فستانها ، وقطع التخريم الملونة الزاهية ، في اماكن ظاهرة من الملابس ، وتلوين الاظافر أو تفضيضها أو تذهيبها ، سوف ينظر اليها في المستقبل ، على انها طمع جنسي ، لا اكثر ولا اقل . فتوضع المرأة التي تستعمله ، في طبقة واحدة ، مع الطيور والفراش ، التي تعتمد على أمثال هذه الاساليب ، لمثل هذا الغرض البيولوجي

والراجح أن مبتكري الأزياء ، يكونون قد زالوا من الوجود حينئذ ، بعد أن أصبح الزيُّ واحداً في كل مكان للنساء وللرجال ، لأن الغرض من تفصيل الملابس ، في ذلك العهد البعيد ، سوف يكون الفائدة لا الزينة وجمال المظهر . هذا على الاقل ما يقوله العلامة الانكليزي الاستاذ لو في كتابه عالم «المستقبل العجيب» . ولما كان محدثكم ، انساناً ، تحرَّك رؤى الجمال فانه يرجو الا تصح نبوءة الاستاذ لو في حياته ، ولو كان ذلك على حساب الاقتصاد والفائدة

والفائدة في تفصيل الملابس تقتضي اموراً يحتمها العلم ، منها حسن التهوية للجسم المقمَّط لحفظ الجلد سليماً ، ومنها سهولة اختراق الاشعة لنسيج الملابس ، من فساتين وبدلٍ ، حتى نستفيد ونحن مرتدون الثياب ، الفائدة التي ينشدها طلاب الرياضة على الشواطىء البحرية ، في ضوء الشمس والهواء الطلق . أما الضعف المستكن في الطبيعة البشرية ، الذي يسهل على مشعوذي الخياطين والخياطات ، أن يملوا على الجماهير ، أزياء الفصل المقبل ، ويفرضوا عليهم ما يجب أن يلبسوا وكيف يجب أن يلبسوه ، فذلكون قد تغلبنا عليه ، بالتعليم والتثقيف ، لانه قد لا يصعب ان تقنع الجنس اللطيف في المستقبل ، بأن استعمال الملابس لما يستعملنها لها ، أي للزينة واستيقاف نظر الرجال ، يضعهنَّ في صفٍّ واحدٍ مع بعض الحيوانات والنباتات ، وان كرامتهنَّ لا تحتمل الموازنة من

هذا القبيل ، مع الحيوانات والنباتات ، لأن بعض الأزهار ، أو جميع الأزهار ، تظل تفوقهن
اضعافاً مضاعفة في ابتكار الوسائل العجيبة لجذب النحل والطير

يرجح العلماء ان اتساع معرفة الانسان بأسباب تقلب الجو ، سوف تمكنه من السيطرة ، عليه
بعض السيطرة ، وعندئذ يصبح من الضروري جعل الملابس ، من نماذج قليلة ، متماثلة ، رغبة في
التوفير والاقتصاد . اذ لا يصح أن يكون في متناولنا ، جعل الحرارة في غرفة ما موافقة لسيدة
مرتدية أوهى الحرير ، حالة أن زوجها في الغرفة نفسها يرتدي بذلة من الصوف الكثيف . فلابس
الناس في العصر الحاضر لم تصنع لتكون ذات صلة ، بحالة الجو على الاطلاق . فلابس الرجال تزهق
النفوس في أيام الحر ، وتضيق أطواقها على رقابهم ، وتشد أحزماتها على معدمتهم . ثم أنها ليست صحية على
الاطلاق في أيام البرد ، فبضع قطرات من المطر ، تحول القميص المكوي والياقة المكوية الى خرق
مبيلة ، والطربوش القرمزي الجميل ، الى سطح قرمزي مجذور . حتى في أيام الشمس الطالعة ، تحجب ملابس
الرجال عن أجسامهم الاشعة المفيدة ، المنطوية في ضوء الشمس ، إلا عن أيديهم ووجوههم ،
وهذا يمهّد سبيل الثروة لبعض الاطباء الذين يعالجون الناس بأشعة مصنوعة او مولدة في المعمل ،
وهي تعم الفضاء مباحة للصالحين والطالحين على السواء . اما النساء فأفضل حالاً من الرجال من هذه
الناحية لكثرة ما يكشفن في أيام الدفء أو الحر عن سيقانهن وأذرعتهم ونحورهن

من المحتمل ان يوفق علماء الكيمياء في المستقبل الى صنع نسيج شفاف للاشعة التي فوق
البنفسجي في ضوء الشمس . فزجاج شبايبكنا ، شفاف للضوء ، ولكنه يحجب هذه الاشعة المفيدة .
اي اذا كشف احدنا عن صدره ، وجلس في ضوء الشمس وراء زجاج نافذة مقفلة ، لا يجني من
ضوء الشمس الفائدة التي يجنيها لو تعرض له في العراء على شاطئ البحر . ولكن العلماء تمكنوا في
العهد الاخير ، بعد البحث والامتحان ، من صنع زجاج يأذن للاشعة التي فوق البنفسجي ، في
اختراقه . وهو زجاج غالي الثمن ولا يستعمل الآن الا في المصحات . ولذلك فليس من
المستحيلات صنع نسيج للملابس من قبيل هذا الزجاج العجيب

عندئذ يصبح غرض الذين يعهد اليهم في تصميم الملابس الصالحة الموافقة للحياة في المستقبل
ان يصنعوها على ابسط مثال ، حتى يسهل خلعها وتعيمها ، على اهون سبيل . لان ناس المستقبل ،
رجالاً ونساءً ، لن يسمعوا بانفاق ساعتين او ثلاث ساعات كل يوم ، في لبس الملابس المؤلفة من
قطع كثيرة صغيرة ، وخلعها . وهي في تعدد طياتها من اصلح ما يكون لتجمع الغبار في ثناياها
وما يحمله الغبار من المكروبات . اذ لا يندر حتى في عصرنا هذا من يدعي ان وقته من ذهب
وان كل ساعة من وقته تعدل جنيتها او بعض جنية او اكثر من جنية . أفيدري من يدعي
هذا الادعاء ، انه ينفق كل سنة ما متوسطه خمسمائة جنيه الى سبعمائة جنيه على الاقل في لبس الملابس

وخلعها ، اي انه ينفق ما متوسطه نحو ساعتين في اليوم على شؤون اللبس ومقتضياتها ويتخيل الاستاذ لو ثوب المستقبل مؤلفاً من قطعة واحدة ، لا احزمة فيه ولا ازرار ولا كشاكش ولا ياقات ، يحكمهم اقفاله عند المعاصم والكواحل والنحور ، لمنع القذر من التطرق الى داخله . ويكون الثوب فضفاضاً ، لانه ليس من حسن الادب في شيء ان يكشف الانسان لجيرانه عن شكل جسمه ، على نحو ما تفعل بعض بنطلونات الرجال الآن وبعض ملابس النساء وعلاوة على ذلك يكون الناس قد تعلموا حينئذ ان الهواء نفسه خير مدفئ للجسم ، وان الملابس تلبس لا لتدفئ الجسم ، بل لتحفظه دافئاً

ثم ان لبس البدلة الواحدة في المستقبل ، يومين متواليين ، من دون تعقيمها ، سوف يحسب عملاً افظع من الجلوس الى مائدة الطعام من دون غسل الايدي ، بعد ان يكون صاحبها قد لوثها بضروب الاقدار في خلال قيامه بعمله اليومي . وقد لا يبعد ان يعتمد والدو المستقبل الى المكروبيات ، فيرون اولادهم ، جوارب هذا العصر واحذيتة وقصانه ومعاطفه ، او قطعاً من هذه كلها على شريحة المكروبيات . فعندئذ يرى الاولاد هذه الملابس ، وسطوحها تعج بضروب المكروبات فاذا هي اقذر من القاذورات نفسها في نظر العلم او مثلها على الاقل . وعندئذ يتعجب ابناء العصور القادمة ، كيف كنا نحن ، في هذا العصر ، في القرن العشرين ، نلبس ملابس هذا شأنها ولذلك لا يبعد ان يستنبط في المستقبل ، معقم ، في شكل خزانة كبيرة ، توضع فيها الملابس مساءً عند خلعها ، فيطاع عليها الصباح ، فاذا هي نقية من المكروبات ، لان المكروبات تكون قد قتلت في المعقم ، على نحو ما يميت الطبيب المكروبات على ادوات جراحته عند ما يعقمها

وقد يكون من الخير ، ان نبين ان المشي باحذية عالية الكعوب ، يضعف عضلات البطن ، ويجعل أصابع القدمين ، قرنية مشوهة وتبعث على كثير من الالم وعلى الاشتزاز كذلك عند ما تطل من احذية الصيف الخاوية . فاحذية النساء في المستقبل لن تكون عالية الكعوب . ثم ان الفراء على اختلاف انواعها سوف تفقد قيمتها متى ادرك العلماء والصناع ، كيف يصنعون الفرو بالتركيب الصناعي على نحو ما يصنعون الحرير الصناعي الآن . فاذا مضى العلماء في مباراتهم للطبيعة في صنع الحجارة الكريمة فقد يكون العاج في المستقبل ، افضل ما يُتَرَيَّن به ، حتى يكشف عن سر تركيبه في المعمل . ولما كان من المرجح ان استعمال النظارات على العيون ، سوف يزداد انتشاراً ، حتى لقد يصبح عاماً في المستقبل ، فالرجح ان استعمال المظلات في الصيف او في الشتاء يصبح حينئذ امرأ ممنوعاً بقانون ، لان استعمالها ينطوي على خطر عظيم في الشوارع والميادين المحتشدة بالناس . ولما كان الصلح كذلك آخذاً في الانتشار — حتى لقد يصبح عاماً بين الرجال على الاقل — فلا بد من استنباط لباس للرأس يقيه من الشمس والمطر . وقد يكون هذا اللباس في البلدان الباردة

مما يدقاً داخله بالكهربائية بأسلاك دقيقة ممتدة من بطرية صغيرة في الجيب . اما عادة رفع القبّعات للنساء عند الالتقاء في الشوارع او في المركبات العامة ، فسوف تبطل ، لانه علاوة على مطالبة النساء بمساواة الرجال ، يتعرض رفع القبعة للإصابة بركام حاد ، عند تعريض مساحة كبيرة من الجلد الحساس للهواء

ومما لا ريب فيه ، ان قيمة الانسان في المستقبل ، سواء اكان سيّدة او رجلاً ، سوف تعين بما يفكر فيه ، لا بما يرتديه ، ولا يمكن حينئذ ان يخفي الانسان جهله وسخفه طويلاً ، تحت مظهر رشيق ، ويبقى فأزاً باحترام معاشره

٤ - الغذاء

اما عن الطعام ، فيقال ان الممثل البريطاني المشهور ، المعروف باسم كين ، كان يختار طعامه ، وفقاً للدور الذي ينتظر منه تمثيله على المسرح . فكان يأكل لحم الخنزير قبل ان يمثل دور طاغية ، ولحم البقر قبل ان يمثل دور قاتل ، ولحم الضأن الغض قبل ان يمثل دور عاشق ولهان . والعلماء يقولون انه في الامكان جعل هندي ، مثلاً ، متصفاً ببعض الصفات المميزة للياباني ، بتغيير طعامه . ويذهب آخرون الى ان الصفات المميزة لقوم ما ، انما منشؤها الطعام الخاص الذي يأكلونه . وعلى ذلك ، فقد يكون كبار الطهاة في المستقبل ، اعظم بناءة لصرح السلام العام . وقد أثبت علماء العصر الحديث ان لمفرزات الغدد الصم أثراً اي اثر في أطوارنا النفسية على اختلافها . واذن فلا بد لعلماء المستقبل من التعمق في دراسة العلاقة بين الطعام وهذه الغدد حتى يستطيعوا ان يسيطروا بالطعام على أحوال النفس

قلنا ان الاختصار في اللباس ، سوف يكون آية المستقبل ، كذلك الاختصار في الطعام . فالناس لن يكتفوا في المستقبل ، بانفاق ربع ساعات اليقظة حول موائد الطعام والشاي . بل انهم ليدركون حينئذ ان الاتهام بالفتيك ، والتمل بالشمبانيا ، ليسا من ضرورات البحث في الاعمال ، كما يدعون الآن ، بحثاً معقولا

ومما لا ريب فيه ان ناحية من نواحي الاكل التي ينتظر ان تفوز بقسط كبير من عناية العلماء في المستقبل ، هي ناحية المواد الكيميائية اليسيرة التي لا بد منها للجسم السليم مثل بعض العناصر المعدنية كالسيوم والمغنيزيوم والحديد واليود وغيرها . والمرجح ان تحذف من قوائم طعامنا ، المتبيلات والمشهيات كالخردل والفلفل ، لانها تهيج الاغشية الحساسة في الجهاز الهضمي . وقد قال احد العلماء ، ان تناول قليل من كلوريد المغنيزيوم ، يساعد على منع السرطان . ولكن اذا اراد الناس ان يأكلوا كل ما من شأنه ان يمنع السرطان أو ان يكفوا عن كل ما يسببه ، اضطروا

— لكثرة الآراء واختلافها — ان يلزموا ، موائد الطعام أو ان يموتوا جوعاً
ولكن لا شبهة في ان مقادير الطعام في المستقبل سوف تكون قليلة جداً . فما نأكله الآن
يفوق كثيراً ما نحتاج اليه لاجراض التغذية . ومن هنا كانت السجون اصح من الفنادق . واذن
فسوف يكتفي الناس في المستقبل بأقل قدر من الطعام يحتاج اليه الجسم . فقد كانت العادة في
الماضي ولا تزال في بعض البلدان ، ان يمضي الانسان في الاكل حتى يعجز عن النهوض . واصل
هذه العادة عدم اطمئنان الانسان الى حصوله على الغذاء الوافي في ساعات الجوع او في مواعيد
معينة . فكان الصياد اذا اصاب طريدة بعد بضعة أيام من الجوع يأكل منها ما يستطيع ، لانه
لا يدري متى يصيب طريدة اخرى . ولكن هذا عاد غير ضروري الآن . بل أننا اذا مارسناه طاق
نمونا العقلي . ولكن من سوء الحظ أن معدة الانسان تعودت من قرون متطاولة ، أن تتلقى اقداراً
كبيرة من الطعام . فاذا استطاع العلماء في المستقبل أن يحصروا القدر الوافي من الغذاء في بضعة
حبات يتناولها الانسان في اليوم — وهذا منتظرٌ لتحقيقه — وجب كذلك أن تخترع اشياء اخرى
تملأ المعدة ، ولو لم يكن فيها غذاء ما ، حتى تكفي المعدة هذا الاحساس الذي تعودته في الماضي .
وتبقى الحال على هذا المنوال ، حتى يتحقق ، ما يتخيله الاستاذ لو وهو من أغرب ضروب الخيال
فلاستاذ لو يتخيل انه سوف يأتي يوم يصبح الانسان فيه غير محتاج الى المعدة التي عملها
هضم الطعام حتى يصبح في شكل سهل معه انتقاله الى الامعاء فيمتص من جدرانها . فاذا تم
صنع الغذاء في حبوب صغيرة كما قدمنا ، استغني عن المعدة وعملها ، وعندئذ تصبح عملية
استئصال المعدة ذائعة ذبوع استئصال الزائدة أو ذبوع التطعيم والتلقيح ضد الأمراض المعدية .
وعندئذ نعود لا نحتاج الى تناول الأشياء التي غرضها ملء المعدة فقط لمجرد ملئها . ويتبع كل
هذا ، ان الوقت الذي ينفقه الناس حول موائد الطعام والشاي يوقر حينئذ كله ، أو على الأقل
تسع وتسعون في المائة منه ، وتنفق الساعات التي توفّر كل يوم ، من وقت اللبس والأكل ، في
العمل أو في مطالب الروح والعقل العليا

وسوف يبحث الكيميائيون عن أفضل المشروبات للتناول اليومي . فالمشروبات الشائعة الآن هي
الكحول ، كما في الوسكي والكونياك والزيب (العرق) ، أو القهوة والشاي وعنصرها الفعال متشابه ، أو
التبغ (وقد حسبناه مشروباً تجوزاً) وعنصره الفعال هو النيكوتين . ولكل مادة من هذه المواد
اخطارها . ولا ريب في أن تناول الكحول سوف يمنع منعاً تاماً باتّسا في المستقبل . وليس سبب
ذلك لان استعمال الكحول خطر على السواد من الناس ، بل لانه خطر اذا حفلت به رؤوس الاقلية
منهم . فالمسدسات ممنوع استعمالها أو حملها الا برخصة . وليس ثمة من ينكر أن للمسدسات فائدة في
بعض الاحوال . ولكن الخوف من أن تقع في أيدي اناس اختل فيهم ميزان العقل والشعور ،
أفضى الى منعها ، لئلا تصبح في أيديهم خطراً تاماً . واذن فالكحول في المستقبل لا يمنع

الأبرخصة ، لمن يقرُّ الرأي العلمي ان الكحول ضروريُّ لهم . عندئذٍ يختفي الشبان السكارى المترنحون من الاماكن العامة . لانه من غرائب هذا العصر ، ان يحسب التقيؤ في مكان عام على أثر الافراط في الأكل ، عملاً سمجاً ، ولا يحسب الترنح بأنفٍ محرّ وعينين زائعتين على أثر الافراط في الشرب ، عملاً سمجاً كذلك

ولعلّ المشروب الجديد الذي يستنبطه الكيماويون ، يكون من اثره ، تمكين الناس من البقاء مستيقظين مدة طويلة من دون ان يصابوا باعياء او برد فعل سيء بعد زوال أثر المشروب . والواقع ان مركباً من هذا القبيل امتحن في بعض مناجم المانيا في خلال الحرب الكبرى فثبت انه يمكن العامل من ان يعمل اثنتي عشرة ساعة متواصلة بسهولة ولم يشعر العمال الذين جرب فيهم باي رد فعل سيء بعد مداولة استعماله اثنتي عشرة شهراً

والمرجح ان المنبهات التي يتناولها ناس المستقبل ، لا يكون من اثرها تخدير الدماغ ، وخلق صورة غير حقيقية للحياة في اذهان من يتناولها . بل على الضد من ذلك سوف يكون من شأنها ان ترهف حواسه ، فيصبح الصناعي الذي يتناولها اقدر على متابعة الآلات السريعة ببصره او سمعه . او قد يبلع المصور مشروباً يرهف فيه الاحساس بالالوان ، ولكن الاعتراض على ذلك ان كل من رغب في مشاهدة صورته يجب ان يتناول هذا المنبه كذلك حتى يرى الصورة على ما يجب ان تـرى ويرى المفكرون ان ارتقاء الصناعة الآلية ، سوف يفضي من تلقاء نفسه ، الى نشر الاعتدال في تناول المنبهات . فاستعمال السيارة كان افعـل في هذه الناحية من عشرات من جمعيات الاعتدال لان سائق السيارة يفهم انه اذا لم يكن مالمكا لزام عـقله واعصابه ، عرض نفسه وعرض غيره للخطر . نعم الحوادث كثيرة وتبعث على الحزن والاسى . والذين كانوا سبباً لها يجب ان يعاقبوا اشد العقاب . ولكن الواقع ان العلم الصناعي ممثلاً في السيارة كان افعـل في هذه الناحية من وعظ الواعظين وارشاد المرشدين . كذلك صانع المستقبل ، فانه اذا ادرك عظم القوة التي رهن سيطرته ، امتنع عن كل ما من شأنه ان يحول بينه وبين هذه السيطرة الكاملة عليها ، لان في ذلك كرامته الفنية

اما من حيث التبغ فيرجح انه سوف يُسن قانون ينص على انه من المحرم بيع السجائر قبل ان تستخرج منها المواد الضارة التي فيها باشراف علمي يضمن ذلك

هذه خواطر تجمع بين العلم والخيال والفكاهة ، فيها العملي الذي يمكن تحقيقه قريباً ، وفيها النظري الذي قد لا يتحقق الا بعد قرون ، وفيها السخيف ، او ما نحسبه سخيفاً ولن يتحقق على الاطلاق . ولكنني ارجو ان تكونوا قد اصبتم في بعض ما قلته شيئاً من الفكاهة ، وارجو كذلك ان يكون البعض الآخر مما يحملكم على التفكير في نواح من الملابس والمأكل تحتاج الى الاصلاح

الفاظ التصنيف

في الحيوانات الدنيا

للمبر مصطفى الشربلى

- ٢ -

المفصليات ARTHROPODES

قلت في آخر المقال السابق ان المفصليات من شعب الحيوان الكبيرة وان من ضمنها الحشرات التي لا يحصيها العد . ولا شك ان عدد انواع الحيوانات المفصلية يزيد وحده على انواع الحيوانات السائرة . وهي تعرف بتفاصيل اعضائها وجسمها يكون مغطى بجلدة تقسو أحياناً وتسمى « شيتين » اي الغطاء وبخصائص اخرى لا يفيد تناولها في هذا المقال لانها مفصلة في كتب الحيوان ومن المفصليات ما لها خياشيم تنفس بها في الماء وهي المنسوبة الى ردف شعبة « الخيشوميات » Branchiates ومنها ما لها قصبات تصلح للتنفس في الهواء وهي « القصبيات » Trachéates . وفي هذه ثلاثة صفوف : « العنكبوتيات » Arachnides و « كثرات الأرجل » Myriapodes و « الحشرات » Insectes . اما الاولى ففيها صف مهم واحد وهو صف « القشريات » Crustacées

« القشريات » هي كما قلت حيوانات مفصلية مائية لها غطاء رقيق شفاف في بعضها وكلسي حجرى قاس في بعض كما في السرطان والكر كند . ويقسمون القشريات ردفي صف وهما « مشرومة الغشاء » Entomostracés و « رخوة الغشاء » Malacostracés وفي ردف الصف الاخير حيوانات متناسقة في اجزائها اي يكون فيها ١٩ زوجاً من الاجزاء دائماً . واليها تنسب القشريات الكبيرة . اما ردف الصف الاول ففيه حيوانات يتفاوت عدد اجزائها . وهي قشريات دنيا وفي مشرومة الغشاء اربع رتب وهي « ورقية الاقدام » Phyllopodes و « ذيلية الصدف » Ostracodes و « مجذافية الاقدام » Copépodes و « هُدَّابية الاقدام » Cirripèdes وفي كل من هذه الرتب حيوانات كثيرة لا يمكننا ذكرها في هذا المقال الموجز

اما رخوة الغشاء فيقسمونها باديء بدء قسمين كبيرين وهما « لاطئة العين » Edriophthalmes و « زندية العين » Podophthalmes وفي القسم الاول ربتان مهمتان وهما « متساوية الاقدام » Isopodes و « مزدوجة الاقدام » Amphipodes وكذلك في القسم الثاني ثلاث رتب وهي « مشقوقة الاقدام » Schizopodes و « فية الاقدام » Stomatopodes و « عُشَّارية الاقدام » Décapodes

وعشارية الاقدام اعلى القشريات منزلة وانما تركيباً وفيها ثلاثة اقسام كل منها ردف رتبة وهي اولاً الذبالة « عن معجم شرف » Marcoures وفيها الاربيان والروبيان (قُرْبَدِس في الشام وجمبيري في مصر Crevette) والكر كند او سرطان البحر Homard والكر كند الشائك Langouste . ثانياً « قصيرة الاذنان » Brachyours وفيها السرطان المعروف ثالثاً « شاذة الاذنان » Anomoures

﴿ العنكبوتيات ﴾ هي مفصليات تنفس في الهواء لا في الماء . وتتركب من جزئين احدهما يشتمل على الرأس والصدر والثاني هو البطن . وتكون جميع الزوائد والاقدام في الجزء الاول . ويحتوي هذا الصف على الرتب الآتية : « العقربية » Scorpionides و « اشباه العقربية » Pseudoscorpionides « وقدمية اللوامس » Pédipalpes « والشبثيات » Solifuges و « الرئيات » او الحواصد Phalangides « والعناكب » Aranéides و « القملية او القُرادية » Acariens و « البطيئات » Tardigrades

﴿ كثيرة الاقدام ﴾ يحتوي هذا الصف على الحيوانات المعروفة المسماة ام اربع واربعين ويسمونها الحريش . وثمة رتبتان هما « شفوية الاقدام » Chilopodes و « شفوية الاحناك » Chilognathes

﴿ الحشرات ﴾ قال احد علماء الحيوان ان الانواع الحيوانية اذا قدرت بنحو ٢٧٢٠٠٠ نوع فان منها ٢٠٩٠٠٠ نوع تنسب الى شعبة المفصليات . ومن انواع هذه الشعبة ١٨٠٠٠٠ نوع تنسب الى صف الحشرات وحده . والحشرات اجمالاً متسقة التركيب فلها دائماً ثلاثة اجزاء واضحة : رأس وصدر وبطن . وفي الرأس العيون والفم والزبانيان « القرنان » . وفي الصدر ثلاث حلقات عليها ثلاثة ازواج من الارجل لا تزيد ولا تنقص ولذلك اطلق بعضهم على الحشرات اسم سداسية القوائم Hexapodes . وتكون الاجنحة (وعددها زوجان) قائمة على حلقتي الصدر السفليين . اما البطن فليس فيه زوائد في الاعم . وهو ينتهي بنقب للافراز وآخر للتناسل

ومن المعلوم ان تقسيم الحشرات يقوم على الاجنحة واشكالها . فهناك اولاً ردف صف « المجنحات » Ptérygogènes و ردف صف « عديمات الاجنحة » Aptérygogènes والى هذه تنسب رتبة « المذنبات » Thysanoures اما المجنحات ففيها ثماني رتب معروفة وهي :

(١) أصلية الاجنحة	Archiptères	(٥) مُغمدة الاجنحة	Coléoptères
(٢) مستقيمة الاجنحة	Orthoptères	(٦) غشائية الاجنحة	Hyménoptères
(٣) نصفية الاجنحة	Hémiptère	(٧) حرسفية الاجنحة	Lépidoptères
(٤) عصبية الاجنحة	Névroptères	(٨) مزدوجة الجناح او ذوات الجناحين	Diptères

﴿المُذَنَّبَات﴾ — هي اقدم الحشرات وابسطها . سميت كذلك لأن لمعظمها خيوطاً كالاذناب في مؤخرها . واليها تنسب فصيلة « اللاحسات » Lépidismides ومنها حشرة كالعثة مبذولة في البيوت تملحس المواد السكرية والصوف والكتب احياناً ولها حراشف لامعة ولذا يسمونها بالعامية « السمكة الفضية » Poisson d'argent واسمها العلمي Lepisma saccharina اي لاحسة السكر او عثة السكر

﴿اصلية الاجنحة﴾ — هي اقدم المجنحات من الحشرات . وأهم فصائلها : « الأرضيات » Termitides و « اليعسوبيات » Libellulides و « بنات اليوم » Ephémérides (عن لغة العرب)

﴿مستقيمة الاجنحة﴾ — تتحدر من الرتبة السابقة . ولها مثلها استتجالات غير كاملة وأفواه صالحة للسحق لكن جناحيها الامامين يقسوان . وكثيراً ما يصيران غير صالحين للطيران . وأهم فصائل هذه الرتبة « ثاقبات الاذن » Forficulides و « بنات ورْدان » Blattides و « الجرّاديات » Acridides و « الجُذْجُديات » Gryllides و « اشباه الجراد » Locustides وهي الجراد الطويلة القرون و « السُرْعُوفيات او فصيلة السرايعف » Mantides (لغة العرب) و « العَصَوِيَّات » Phasmides

﴿نصفية الاجنحة﴾ — اهم خواصها كون افواها معدة لمص السوائل وكون استتجالاتها غير تامة . وفيها ردف رتبة « مختلفة الاجنحة » Hétéroptères و ردف رتبة « متشابهة الاجنحة » Homoptères . والى الردف الاول تنسب الفصائل الآتية « فصيلة بقّ البساتين » Pentatomides و « فصيلة ببسّر الكثرى » Tyngides و « فصيلة البقّ » Acanthides وهو بق الفراش ، و « فصيلة ذارعات الماء » Hydrométrides و « فصيلة عقارب الماء » Népidés اما الردف الثاني فاليه تنسب « فصيلة الزيزان » Cicadides و « فصيلة براغيث النبات » Psyllides و « فصيلة الارقّ او حشرات المن » Aphides و « فصيلة قمل النبات او حشرات المغافير » Coccides (الارق والمغافير عن معجم الحيوان)

﴿عصبية الاجنحة﴾ — انسلاختها تامة وبهذا تفرق عن اصلية الاجنحة مع انها متحدرة منها . واهم فصائلها « فصيلة ليث عفرين او ام عؤيف » Myrméléonides (معجم الحيوان) و « فصيلة حشرة اللؤلؤ » Hémérobides و « مغمدة الاجنحة ﴾ — يمكن عدها متحدرة من مستقيمت الاجنحة . ولها استتجالات

تامة وهي اعظم رتب الحشرات واكثرها عدداً . وأفواها جعلت للسحق . وجناحها الاماميان استحالاً غمدين قاسيين يختبئ تحتهما الجناحان الخلفيان . ويعمدون في تفريق مغمدة الاجنحة بعضها عن بعض الى ارساغ اقداءها . فالتى يكون رسغها خمسة اجزاء تسمى « خماسية الاجزاء » Pentamères وهكذا تتفوق « رباعية الاجزاء » Tétramères و « ثلاثية الاجزاء » Trimères و « مختلفة الاجزاء » Hétéromères وكل من هذه الاقسام الاربعة ردف رتبة

وفي خماسية الاجزاء الفصائل الآتية : « فصيلة الخنافس البسيّرة » Cicindélides و « فصيلة حشرة السرطان » Carabides و « فصيلة الدُرّقة » Silphides و « فصيلة العُثّ » Dermestides و « فصيلة أَيْلِيَّة التّأشير » Lucanide و « فصيلة الدودة البيضاء » Méléonthides و « فصيلة الجُعلان » Scarabéides و « فصيلة الزَقَازِب » Buprestides و « فصيلة الدودة الصفراء » Elatérides و « فصيلة اليرَاعَة او الحُبّاحب » Lampyrides

وفي رباعية الاجزاء ما يأتي : « فصيلة القَتَع » Scolytides و « طويلات القروم » Cérámbycides uolongicorne وسميت « القَرَنَبِيَّات » في معجم الحيوان والارجح استعمال هذه اللفظة لفصيلة Coprides لان صفات القرني في الكتب العربية اقرب الى صفات انواع هذه الفصيلة وهي في الحقيقة تحت فصيلة الجُعلان . ومن رباعيات الاجزاء ايضاً « فصيلة السوس » Cureulionides و « فصيلة ذوات السَّيْبِيَّة » Bostrichides (الاب الستاس)

وفي ثلاثية الاجزاء « فصيلة الدعاسيق او بنات العيد » Coccinellides (معجم الحيوان) . وفي مختلفة الاجزاء « فصيلة خنافس الدقيق » Ténébrionides

✽ غشائية الاجنحة ✽ — أعلى الحشرات قدراً واكثرها فطنة وذكاء . كثير منها تعيش مجتمعة ويكون افرادها على طبقات ولكل طبقة عمل خاص في سبيل المجموع . ويتجلى ذلك في حياة النحل والنمل وغيرها . وتقسم هذه الرتبة ردفي رتبة وهما : « ذوات المشقب او لاطئات البطون » Térébrants ou cessionivents و « ذوات الحسمة او معلقيات البطون » Porte-aiguillon ou pétioivents وفي الردف الاول « فصيلة زنبور الخنطة » Céphides و « فصيلة الذباب المنشارى » Tenthredinides وفي الردف الثاني العفصيات Gallicoles ou cynipides . وورد في معجم الحيوان عن مجلة لغة العرب انها الاوار مفردا آبرة وقنفش واحدها قنفشة . قلت أما انا فأرجح اطلاق الأوار على فصيلة Chalcidides لان اليها ينسب الذباب الذي يأبر التين البستاني وهو مشهور

ومن هذا الردف ايضاً « فصيلة الذباب المهتر » Ichneumonides و « فصيلة النحل » Apides و « فصيلة الزناير » Vespides و « فصيلة النمل » Formicides وقريب منها فصيلة « جبارة النمل » Camponotides و « فصيلة نمل البساتين » Myrmicides

﴿ حرشفية الاجنحة ﴾ — هي رتبة الفراش . سميت حرشفية الاجنحة لوجود حراشف دقاق ملونة على اجنحتها الغشائية . وأفواهاها تصلح للمص واستحالاتها كاملة . وهي تقسم ردي رتبة فالردف الاول « دبوسية القرون » Rhopalocères والثاني « مختلفة القرون » Hétérocères وفي الاول فصائل منها « الفراشية » Papilionide و « فصيلة فراشة الملفوف » Piérides و « فصيلة الفراشة الطاوسية » Nymphalides

ومن فصائل الردف الثاني « الدودية » Bombycides ومنها دود الحرير وغيرها . و « فصيلة قَتَعَ الحراج » Cossides و « فصيلة دودة الراهبة » Liparides و « فصيلة فراشة الجُنْجُل » Hépialides و « فصيلة طاووس الليل أو الفصيلة الزُحلية » Saturnides و « فصيلة الدارقات » Géométrides ou phalénides و « فصيلة أبو الهول أو فصيلة فراش الشَفَق » Sphingides و « فصيلة فراش الليل أو اللَّيْلِيَّات » Noctuellides و « فصيلة فراشة الحصاد » Agrotides و « فصيلة فراشة غَمَّا أو الدودة المَقْوَسَة » Plusides

وهناك مجموعة من الفراش يسمونها « دقاق حرشفيات الاجنحة » Microlepidoptères تنسب اليها « فصيلة سوس الثياب » Tinéides و « فصيلة دودة التفاح » Pyralides و « فصيلة الفاتلات » Tortricides

﴿ ذوات الجناحين ﴾ ليس لها سوى جناحين كما هو ظاهر في اسمها . والجناحان الخلفيان هما اللذان فقدا . وفيها خرطوم للمص . واستحالاتها تامة . وفيها ثلاثة اقسام كل منها ردي رتبة . فالردف الاول « قصيرة القرون » Brachycères والثاني « خيطية القرون » Némocères والثالث « عديمة الاجنحة » Aphaniptères ومن قصيرات القرون « فصيلة النُعر » Tabanides و « فصيلة النسيبار أو ذباب النغف » Oestrices (معجم الحيوان) و « فصيلة الذباب » Muscides و « فصيلة العنتر » Asilides (معجم الحيوان)

اما خيطية القرون ففيها « فصيلة البعوض » Culicides و « فصيلة القرش » Simulides و « فصيلة السُّوَيْكَتَة » Psychodides (تصغير ساكتة . هكذا تسمى في لبنان ووادي التيم . وتسمى السِكِّيت في بيروت . وهي مبذولة في انحاء الشام تلسع على صغرها لسعاً مؤلماً دونما صوت) و « فصيلة طوال البعوض » Tipulides و « فصيلة ذباب الحنطة » Cécidomides

واما عديمة الاجنحة فهي البراغيث Puliciens ومنهم من يجعلها رتبة برأسها هذه اهم الفاظ التصنيف في الحيوانات الدنيا . اما الحيوانات العليا فالفاظ تقسيماتها معروفة الا قليلاً . ولا اظن ان العلامة صاحب معجم الحيوان او البجاعة صاحب معجم الالفاظ الطبية والطبيعية قد اغفلا كثيراً منها

البعث الاول

[انشأ الشاعر علي محمود طه ملحمة كبيرة عنوانها «البعث الاول»
تقع في نحو ثلثمائة بيت من الشعر وموضوعها الفن بين الرجل والمرأة
نشرت منها هذه القصيدة التي ساقها الشاعر على لسان ملك يتحدث الى
حواء عن الفنان الاول]

هناك حيث تشبُّ الحياة وحيث الوجودُ جنين العدمِ
وحيث الطبيعةُ جَبَّارةٌ تشقُّ الوهادَ وتبني القممِ
وحيث السعادةُ بنتُ الخيالِ ولدتُها من معاني الألمِ
وحيث الطريدانِ شجَّبا الكؤوس ومجَّبا صُباتِها من قدمِ

رنا والطبيعةُ في حُلِيِّها وحواءُ عاريةٌ كالصنمِ
فن أين سار وأنى سرى تصدَّتهُ مقبلةٌ من أممِ
هناك أولُ قلبٍ هفا وأولُ صوتٍ شدا بالنغمِ
وأولُ أنملةٍ صوّرتْ وخطَّتْ على اللوح بعد القلمِ !

فما لكِ حواءُ أنكرتهِ وأعقبتهِ حشراتِ الندمِ
لقد كان راعيكِ المجتبى فأصبح راميكَ المتهمِ
ولولاكِ ما ذرفتْ عينهُ ولا شامَ بارقةً فابتسمِ
وعاش كما كان آباؤه يُغنّي النجومَ ويرعى الغنمِ !

لواء الأدب القديم

حكم الفيلسوف. « پتاح حتب » ونصائحه

[لاجد يوسف : بالمتحف المصري]

قد يجد الدارس لتاريخ مصر القديم سجلاً حافلاً بالعظمة ، طوت صفحاته السنون ، وكاد الاهیال والنسیان یضربان عنه صفحاً ، والواقع أن جمیع اسباب الثقافة والعلم كان قد ضرب فیها أجدادنا بسهم وافر ، وان المصريين الاقدمین لم یخلفوا لنا أحجاراً نشاهدها . وقبوراً نسرّح الطرف فی أبنیتها ، معجبین ، أو مستغربين انهم صرفوا همهم وبذلوا كل تلك العناية فی اقامتها . فهم ، الى جانب ما تركوا لنا فیها من فن نابض ناطق ، بهر الدنيا بهاؤه ، وأعجزت صنعته ، قدموا لنا وثائق من ثقافتهم وعلمهم تشهد بالفخر لهم ، وتقیم الدلیل الناصع علی مدنیتهم العالیة وهذا الادب ، الذی هو بضاعة الذهن العالیة ، وخیر ما تفخر به حیاة هذا الجیل ، كان لهم فیة المجال الواسع اذ سبقوا هذا العالم بأسره ، الحدیث والقدیم ، الى غرس بذوره وقطف ثماره الناضجة لم یطرقوا سبیل الأدب من ناحية واحدة ، بل مارسوه كتابةً وشعراً وقصصاً ، وتباروا فی أسلوبه كما نتباری الیوم ، وكان منهم الفلاسفة ، والکتاب النوانج ، وكان منهم الشعراء والناترون وكان منهم الروائیون أو القصصیون ، وقد تفننوا فی أسالیب فن الادب وابتکروا ، لجعلونا نقرأ لهم ما یفیض بعواطفهم ، وجعلونا نمتع أعیننا وأذهاننا بالبديع من أفكارهم وآرائهم والمجال متسع لاثبات كل ذلك . نرى ان نبداً الیوم بهذه الحکم العالیة لأحد فلاسفهم وكبار کتابهم ، ویدعی « پتاح حتب » . كان وزیراً للملك « إسی » ، من الاسرة الخامسة ، الذی كان حاکماً فی نحو سنة ٢٦٧٥ قبل المیلاد . أي ان العبارات التي سنعرضها يرجع تاریخها الى حوالي ٤٦٠٠ عام قبل وقتنا هذا . ولا شك انها أقدم ما عرف من آثار الأدب فی الوجود . ولهذا الوزیر مقبرة کبيرة بدیعة النقوش ولا تزال تشهد فی جملة ما يشاهد من آثار سقارة . وكانت هذه الحکم التي دوّنها ذلك الفیلسوف مما یدرس فی المدارس المصریة القدیمة ، كأتمودج للأدب الناصح ، یتقف به النشء ، وظلت الاجیال تتناقلها للانتفاع بمعانیها وأسلوبها حتی عهد الاسرة الثامنة عشرة وقد عثر علی نصائح « پتاح حتب » هذه فی أوراق بردية کثيرة ، أتمها عبارة تلك المعروفة ببردية پریس — نسبة الى صاحبها — وهي محفوظة بباریس

وهاك نص هذه النصائح ، ننقلها اليك مترجمة حرفياً من دون أي تعديل . ولا ندفعك الى أن تضعها والادب الحديث في كفتي ميزان ، لتقابل بينهما . بل يجب ان لا تنسى ملاحظة قدم عهد ذلك الدهن الذي دونها . ومع ذلك فاني على يقين من أنك ، أيها القارئ العزيز ، ستعجب بها كل الاعجاب ، وستقدرها قدرها اذ ترى انها لا تقل عما في يديك من الحكم اليوم . بل إنك ستلاحظ ان كثيراً من المعاني التي تحويها قد نقلتها الايام عن ذلك العهد الغابر ، وان المصريين القدماء قد سبقوا الى معناها ، أو وضعوا بأيديهم وافكارهم أساس ثقافة العالم والآن فاسمع ماذا كتب ذلك الفيلسوف . وسننقل اليك ما نتخيره من العبارات السكيلا فطيل عليك

يتحدث الفيلسوف «پتاح حتب» بهذا الاسلوب :

يقول «پتاح حتب» لجلالة الملك «إسي» : إن الشيخوخة آت ، والهرم قد حل . وقد وهنت المفاصل ، وفاجأتنا حالة الكبر بالظهور ، وخذلت القوى ، واستبد بنا الضعف . وأصبح الفهم صامتاً لا ينطق ، والعينان غائرتين ، والاذنان صماوين . وغدا القلب كثير النسيان ، لا يذكرك حتى أمسه . والعظم مرهقاً بالشيخوخة . والأنف خاملاً لا يستنشق . (كان الأنف معتبراً عندهم كأساس الحياة البشرية) . سيان في صورة الضعف الوقوف أو الجلوس . انقلب الخير شراً . وانعدمت حاسة الذوق . ولم يؤد الكبر للانسان اكثر من أن جعله ضعيفاً في جميع احواله

« إذن فدع الخادم الواقف هناك — يقصد نفسه ، وهو يخاطب الملك ، وهذا تعبير متواضع يدل على الادب الجرم — يلتمس ان يجعل نفسه شخصية في تلك السن الكبيرة . وان يجعل ولده يجلس في مكانه ، حتى يتهياً للنصيحة ، وهو في اذن اولئك الذين يسمعون ، وفي ذهن اولئك الذين غبروا قبلنا ، اولئك الذين خدموا السلف في الزمن الماضي — والمعنى الظاهر انه يتمنى ان يكون ولده نافعاً للملك منفعه من مضوا ملوكهم . اما المعنى الخفي فهو فكرة حكيمة متأدبة دار حولها بشكل يشهد له بالقدرة والمهارة في اعداد الناس لقبول نصائحه بطريق مؤدب غير مباشر . وهذا هو غاية الحكمة في مخاطبة الملوك ، او ما اصطلح عليه بأدب الملوك — هل يفعل اولئك لك على مثل ما فعلوا لغيرك حتى يزول التنازع بين الناس ، ويصبح شاطئاً النهر (النيل) في خدمتك » قال جلالتة : نعم . انصح (أدبه) في محاورات . (وهنا جملة مفقودة من الاصل الذي ننقل عنه) حتى يكون قدوة لاولاد العظماء . وليت الطاعة تلازمه ، ويستوعب كل رأي سديد تطرحه عليه . فليس هناك من ولد يمكنه الفهم من نفسه »

وبدأ الفيلسوف نصائحه فقال : « يمكنك ان تتعلم من كل انسان . لا تغتر بعلمك . ولا تعتقد بأنك عالم . بل خذ النصيح من الجاهل كما تأخذ من المتعلم . فان حدود العلم بعيدة المنال . وليس من احد حاز غاية العلم . والعلم الصحيح (التام) اعز من الحجر الكريم الاخضر . وهل

انت تجده مع الخدامات فوق احجار الطواحين — اي افقر الفقيرات — ؟
 ﴿الاداب ازاء الخطيب﴾ : « ان وجدت خطيباً لبقاً وأحسن منك براعة ، فأن ذراعك له
 واحن ظهرك (علامة الاحترام عند المصريين القدماء) . وان كان يتحدث عن جهل فلا تهجم عن
 ان ترده الى الصواب ، حتى يقول الرجال له « انت جاهل »

« اما اذا كان يوازيك علماً ، وأخطأ في الحديث ، فظهر نفسك بالصمت ، حتى تكون افضل
 منه . ولن يحمده من السامعين ، بل تعد انت من زمرة العظماء . وان كان وضيعاً ، ولا يوازيك
 علماً ، فلا تحمق عليه اذ تعلم انه حقير . (وهنا جملة مفقودة) . بل غض عنه الطرف ، فيعاقب
 نفسه بنفسه . ان من الخطل ان يؤلم المرء حقيراً . (وهنا جملة مفقودة) . قد تقتله بعقاب العظماء »
 — ربما يقصد من ذلك ان يلزم الصمت ويتجاهله كما يفعل العظماء —

﴿قد تفوز بالخير في حياتك باعتمادك على الحق والصدق﴾ اذا كنت قائد قوم ، وكان لك
 الامر فيهم ، فاسع وراء العمل الطيب حتى لا تبقى هناك خطيئة في اخلاقك . الصدق جميل
 وجزاؤه دائم . لم تتبدل قيمة الصدق يوماً منذ خلقه خالقه (منذ الخليقة) — وفي عقيدة القدماء
 ان الاله رع هو الذي جلب الصدق الى الدنيا — على ان من ينكر شريعته — اي الصدق —
 يحق عليه العقاب . انه الطريق المستقيم امام ذلك الذي لا يعرف شيئاً — اي الجاهل — والعمل
 السيئ لم تصل للميناء بضاعته — يقصد انه لم ينجح مطلقاً — حقاً ان السيئات قد تكسب
 الجاه . ولكن الجاه يبقى بقوة الايمان . وقد يقول الرجل الصادق « هذا ملك والدي » — ومعنى
 هذه الترجمة الحرفية هو ان تأديب والده له عن طريق الصدق هو خير ما ورثه له «

﴿كن اميناً في توزيع الرسائل﴾ اذا كنت احد من يعتمد عليهم عظيم من العظماء ليوفده
 الى آخر ، فأد الوفاة كما يجب . بلغ الرسالة كما يشير عليك . لا تكتم خبر ما يقال لك . وحاذر ان
 تقع في النسيان . تمسك بالصدق ولا تعد حدوده . حتى وان كنت مضطراً ألا تقص شيئاً مفرحاً .
 حاذر كذلك من الكلام التافه الذي يسقط بقدر الرجل العظيم ، من طريق الاسلوب الدارج .
 وان اصبح العظيم خاملاً فهذا ما تمجه النفس — والمعنى من كل هذا أنك لا يجب أن تصوغ
 تعبيراً وضيعاً محل اللغة التي تخيرها سيدك . فانه يكون مخزياً للرجل العظيم اذا كانت لغته هراء —
 وهنا عبارة لم يضع لها الناسخ القديم عنواناً . يقول فيها « يتاح حتب » :

« اذا أنت حرثت الارض ونما حقلك وأغدق الله عليك بذلك ، فلا تشبع فك وحدك دون

ذوي قرباك »

﴿لا تحقر اولئك الذين ارتفعوا﴾ « اذا كنت شخصاً وضيعاً ، وكنت في رعاية رجل من
 أهل النعمة ، يؤدي كما يجب فروض الله ، فتناس كل شيء عن سابق شأنه . لا ترفع قلبك دونه —
 اي لا تتعاضم عليه — على حساب ما تعلم عنه في الماضي . بل احترمه من أجل ما صار اليه .

لان الثروة لا تأتي من نفسها — اي جزافاً — (وهنا جملة مفقودة) ولكن الله هو الذي يهب النعمة. (وهنا جملة مفقودة ايضاً) «

﴿امنح نفسك فرصة للنزهة﴾ «إتبع قلبك — اي سر نفسك — طالما انت تعيش . ولا تعمل اكثر مما يجب . لا تختصر الوقت الذي تمنحه لقلبك فان من البغيض للنفس ان يختصر الوقت الذي لها «

﴿واجبك نحو ولدك﴾ «ان كنت ذا مكانة ، وكان لك زوجة . وانجبت لك ولداً يرضي إلهه بعمل الحق — اي ولداً صالحاً — ويشب على خلقك . ويصغى إلى نصائحك . وكانت اعماله تصلح بيتك . وكان يرعى كما يجب مالك . فزوده منك بكل ما هو خير « انه ولدك الذي وهبته روحك . فلا تحجب عنه قلبك «

«اما ان كان يسيء . ويتطاول على آرائك . ولا يتبع نصائحك . وكانت اعماله في بيتك غير صالحة . ويعارض كل ما تقوله . (وهنا جملة مفقودة) . فاقصه اذن عنك . لانه ليس ولدك — يقصد انه قاق — انه لم يولد لاجلك (وهنا جملة مفقودة ايضاً) «

﴿تحذير من النساء﴾ «ان كنت افرغت صداقتك في بيت كان لك الحرية في دخوله ، اذكنت فيه سيداً او شقيقاً او صديقاً ، او اي صفة اخرى يسرك ان تكونها ، فاذران تقرب النساء — ويقصد مغازلة من ليس له فيهن حق — فان المكان الذي هن به ليس صالحاً «

«قد تضيع بسببهن الألوف . وينجذب الرجال ببريقهن الخلاب ، وقد جهلوا ان ذلك البريق ما يلبث ان يصبح كالخجارة المحروقة — اي انها نشوة قصيرة الامد ، ما تلبث ان تزول — شيء تافه . ضئيل . كالحلم . تأتي بعده الحسرة «

﴿تحذير من الحقد﴾ «ان رغبت ان يكون خلقك حميداً ، وان تجرد نفسك من جميع المساوىء ، فاحذر من الحقد . فهو مرض وبيء لا يشفى . ان الاخلاص يستحيل بوجوده . انه يجعل الصديق المحبوب بغيضاً . ويغير ثقة الرئيس في رجله . ويقبح حقيقة الوالد والوالدة ، واشقاء الوالدة بالمثل — اي الاخوال — ويطلق الرجل من زوجه . انه حزمة من جميع انواع المساوىء . وحقيقة مملوءة من كل شيء بغيض . قد يطول بقاء من كان خلقه كريماً ، ومن يسير بحسبما يأمره الخلق الكريم . انه يرجح من ذلك الغنى . اما الحقود فيفقد كل شيء «

﴿ميزة الزواج﴾ «ان كنت رجلاً كاملاً فأسس لك بيتاً ، واحبب زوجتك فيه . اشبعها واكسها . واعلم ان العطر شفاء مفاصلها — اي ارضها بالعطر — سر قلبها طالما تعيش معك . انها الحقل الصالح لصاحبها — وهذا يوافق ما جاء في الآية الشريفة : «نساؤكم حرث لكم فأتوا حرثكم أنى شئتم «

خدمات العرب للكيمياء الحديثة

نشوء الحركة العلمية في البلاد العربية

لحسن المعلمان

قال رودولف في كتابه « ظهور الكيمياء » : « عند ما أخذت العلوم القديمة في الانحطاط وانشكت معالم الحضارة اليونانية على الاختفاء ، كانت البلاد العربية مزدهرة بحضارتها الجديدة ، التي بنى اركانها الدين الجديد — الاسلام — فشيدت الجامعات والمراصد والمكتبات العامة والمتاحف ودواوين الاستنساخ وجمع الكثير مما كتبه اليونان والفرس ونقل الى العربية . وازداد شأو هذه الحضارة بعد ما اكتسح المسلمون بلاد المغرب والاندلس . اذ لم ينقض زمن طويل حتى تمكن اولئك البدو من احياء بلاد الاسبان وجعلها كعبة العلم ، ولم يمض على الفتح الاسلامي قرن أو قرنان حتى تأسست بها أعظم الجامعات يوم ذاك »

ويعتقد الاستاذ رودولف ان يوستينيانوس لما أمر باغلاق مدارس أثينا والاسكندرية ، وعند ما أخذ يعذب أهل العلم ، فرّ عدد غير يسير من هؤلاء الى بلاد فارس وشمال ما بين النهرين حيث أسسوا مدارسهم ثانية ، وطادوا لبت معارفهم . فلما وقعت فارس وما بين النهرين في أيدي العرب ، واتخذوا بغداد حاضرة لهم شعروا بضرورة ترجمة الكتب الفارسية اليونانية مستقدمين أمهر علماء النسطرة لثقل ارسطو وديوسقوريدس وغيرهما من فلاسفة اليونان وعلمائهم

وكتب عن هذه الحركة العلمية الاستاذ ستلمان ما خلاصته : عند ما بدأت الحركة العلمية في ما بين النهرين وأسس الخلفاء دواوين الترجمة في قصورهم ، ترجم كثير من كتب اليونان الى اللغة العربية اما نقلاً عن الفارسية أو مباشرة من اليونانية . ومن اشهر ما ترجم رسائل ديموقريطوس وكتب زوسيموس ، فاتخذت هذه الكتب أساساً للدرس والبحث العلمي في دور العلم ببغداد وفي غيرها من حواضر البلاد الاسلامية ، مما جعل النظريات اليونانية في أصل المادة وما وراء المادة ، وأصل العناصر وكيفية تكوينها ، وعلاقة بعضها ببعض ، والبحث عن حجر الفلاسفة والاكسير ، ان تنتقل الى دور العلم وتسيطر على اذهان الباحثين والمتعلمين . وكما ان كلياتنا اليوم لا تبحث الا في النظريات الحديثة امثال النظرية الكهربائية ونظرية الكونتم والنظرية النسبية ، كذلك كانت جامعات بغداد وكليات قرطبة وغرناطة تبحث في النظريات اليونانية وتعتبرها أساساً لعلومها

وحديث الكليات والمكتبات التي أسست في بغداد وفي بلاد الاندلس طويل اكتفي بان اورد هنا بعضاً مما قاله مؤرخو العلم بهذا الصدد : قال رودولف « اسس الخليفة ابو جعفر المنصور مدرسة

بغداد فكانت نواة لجامعة بغداد ، التي أصبحت كعبة العلم بعد ذلك . وفي القرن التاسع اضيف اليها كثير من المؤسسات كالمستشفى والمدرسة الطبية وغيرها . وفي عصر المأمون ادخل عليها من التحسين الشيء الكثير فبنى مرصدها المشهور . وقيل ان عدد طلابها بلغ ستة آلاف طالب . ولكن ما ان نشب الانحلال في جسم الخلافة العباسية حتى ضعف شأن جامعة بغداد واستست على أثرها بضع مدارس في حواضر البلاد الاسلامية المتفرقة . وفي هذا العصر ازدهرت دور العلم ببلاد الاندلس ، وصارت محط رحال أهل العلم في الغرب والشرق

وكتب درابر في الجزء الثاني من كتابه « تاريخ تكوين الفكر الاوربي » ما خلاصته : « ما كاد المسلمون يستقرون في اسبانيا حتى شادوا لهم مدينة جديدة . فكان الأمراء انفسهم من رجال العلم ومن قادة الفكر وكان لا يشغل فكرهم غير أمر واحد هو رفع المستوى العلمي في بلادهم . فبلغت قرطبة بفضل اهتمامهم المسكنة العليا بين مدن العالم : وعلى منوالها صار كثير من مدن الاندلس ، حتى كان لكل امير من امراء الاندلس مكتبة خاصة يباهي بها اقرانه بما يضمه اليها من كتب نفيسة ومخطوطات غالية . فمثلاً احتوت مكتبة الحكم من الكتب عدداً كبيراً جداً ، قيل ان فهرستها بلغ اربعين مجلداً . وقيل ايضاً ان الحكام شيدوا الكل مسجد مدرسة عامة يؤمها اولاد المسلمين ليتعلموا اللغة والقرآن والفقه

أما العوامل التي ساعدت على نشوء الحركة العلمية في البلاد الاسلامية فهي مساعدة الخلفاء لأهل العلم أولاً ، وتسامحهم الديني ثانياً . فلقد كان كثيرون من الاساتذة بجامعة بغداد وغرناطة وقرطبة من النساطرة واليهود . وكان المسلم يوم ذاك ، يأخذ العلم على أيدي هؤلاء وهو مطمئن واثق ان لا صلة بين العلم والاختلافات الطائفية وان العلم أسمى وأشرف من البحث فيها . وبما يذكر عن الخلفاء ان الواحد منهم كان اذا دخل عليه استاذ من اساتذة العلم قام اليه وأجلسه بجانبه ، ولا يجب ان ننسى حلقات العلم التي كانت تعقد في بلاط المأمون وكيف كان الخليفة نفسه يقضي اكثر وقته يساجل العلماء ويمجادهم ، ويبحث في العلوم الدينية والفلسفية وفي علاقتها بالمادة والطبيعة

الكيمياء العربية

ومن اظهر الحركات الفكرية في عصر ازدهار المدنية العربية نشوء الكيمياء أو ما ندعوها اليوم Alchemy . اما نشوءها فيعزى الى عقيدة سادت في تلك العصور وهي امكان تحويل المعادن الرخيصة الى ذهب . ففي نظر الباحثين الاقدمين ان من يتوصل الى « حجر الفلاسفة » يستطيع ان يعرف سر الحياة . تلك الخرافات والألغاز كانت النواة الأولى للكيمياء الحديثة . واولئك الكيماويون هم أول من قصد البحث عن الحقيقة النسبية من هذا السبيل . والى مثل ذلك اشار الكيماوي الكبير لايبج عند ما قال « ان العلم في نظر رجل ما كالألهة التي يخصص حياته لها ، وفي نظر الآخر كالبقرة الحلوب التي يعيش مما تدره عليه »

اما متى بدأ تاريخ الكييمياء العربية ، وكيف ظهرت واين ظهرت اولاً فأمر لا نعرف عنها شيئاً وكل ما في وسعنا ان نحزم به انها ظهرت قبل القرن الثاني عشر وربما ظهرت في القرن التاسع او العاشر للميلاد . فالكتب التي كتبها الرازي تحتل ان تكون مكتوبة في القرن التاسع وكتاب « الشفعة » لابن سينا ، وهو من الكتب التي يوثق بتاريخها والتي كان لها شأن كبير في الشرق والغرب ، يرجع تاريخه الى القرن العاشر . ولقد اثبت البحث التاريخي ان العرب في القرن العاشر والقرن الحادي عشر لم يكتفوا باجراء التجارب وكتابة الرسائل العلمية فحسب بل بحثوا في النظريات السكيمائية التي لم نبحت في بعضها الا في القرن الماضي ، حتى ان بعض باحثيهم اتبع مبدأ الشك في البحث عن الحقيقة المجردة . ويكفي هذا وحده ان يجعل مستوى فكرهم العلمي اعلى كثيراً من مستوى الفكر العلمي عند الشعوب الاخرى

لم تقتصر صناعة الكييمياء على البحث عن حجر الفلاسفة او صناعة الذهب بل شملت الكثير من المركبات الكييمائية المستعملة في الطب والصيدلة . فقد استحضرت العقاقير المختلفة بتقطير النباتات والاعشاب او بتفاعلها كيميائياً بمواد اخرى . وكان الكيماوي هو الطبيب وهو الصيدلي فابن سينا الذي لقب بجالينوس العرب والرازي والزهرابي كانوا من امهر اطباء العرب الا انهم كانوا ايضاً من اعلام الكييمياء ، وابو المنصور الموفق وان عرف بتحضير العقاقير وبيعها الا ان كتبه تنطق بسعة علمه بالكييمياء العملية

ويؤمن الاستاذ سارتن مؤلف كتاب « مقدمة في تاريخ العلوم » ان كيماوي القرن الحادي عشر والقرن الثاني عشر لم يزدوا على البحوث من تقدمهم شيئاً مهماً وانما اشتغل بعضهم في دحض نظريات من تقدمهم . فالطغرائي مثلاً كتب بضع رسائل بحثت في الكييمياء ، سمي احداها وهي اهم رسائله « حقائق الاستشهاد » وكانت غايته من تأليفها الرد على شك ابن سينا . وهناك طائفة اخرى تسرب اليها الشك فيما جربه وكتبه ثقات اهل الكييمياء ويمثل هذه الطبقة عبد اللطيف الجوباري الذي ضمن آراءه في رسالته « اهل الكييمياء الذين عرفوا ثلاث مائة طريقة لغش الناس »

نظريات الكييمياء العربية

يستخرج كثير من المعادن او قل معظمها اما بشكل اكاسيدها او كبريتيداتها او مزيجاً من اكاسيدها وكبريتيداتها . فاذا ما احترقت هذه الكبريتيدات وحدها او مع مادة خازلة كاللحم او الخشب مثلاً تبدلت اولاً الى اكاسيد ومن ثم الى معادن صرفة . على ان هناك من المعادن ما يمكن الحصول عليه تقيماً بعملية التكلس والتصعيد فقط . فكبريتيد الزئبق مثلاً اذا ما احرق وجمعت غازاته امكن الحصول على الزئبق تقيماً

ليست هذه بالتفاعلات الصعبة الحدوث التي تحتاج الى جهود كبيرة بل على العكس فهي من ابسطها واكثرها وقوعاً . وقد اثبتت الكتب القديمة ان هذه التفاعلات الاولى التي عرفها العرب

واستعملوها لتحضير الحديد والرصاص والنحاس والزئبق وغير هذه من المعادن . ولا ندري كيف استنتجوا من تحضيرهم لهذه المعادن ان هناك عنصراً شائعاً بين الاجسام على انواعها . ويعزى اختلافها الى مقدار المواد العرضية — الشوائب — الممزجة به . وهذا ما جعلهم يسعون الى تنقية المواد مما امتزج بها من شوائب ، معتمدين في ذلك على النار وحدها لانها في عرفهم خير مطهر ومنق . ففي ظنهم ان بتكرار عمليات التكلس والتصعيد والتقطير تحترق المواد العرضية ويبقى الجسم نقياً . وما ذلك الجسم الا حجر الفلاسفة !!

ولقد شاعت ايضاً نظرية اخرى في كثير من دور العلم وخاصة في مدارس بغداد ، خلاصتها ان عناصر المواد جميعاً ثلاثة ، الزئبق والكبريت والملح . اما الاول فيمثل المعادن القابلة للطرق . واما الثاني فيمثل المواد القابلة للاشتعال . واما الاخير فيمثل المواد الترابية المألحة الطعم غير القابلة للطرق والاشتعال . جاء في رسائل اخوان الصفا ما يأتي : « ان الاجسام من جنس واحد ، من جوهر واحد وهيولى واحد . وانما اختلافها بحسب اختلاف صورها ومن اجلها صار بعضها اصفى من بعض واشرف منه وكلها اجسام طبيعية يستحيل بعضها الى بعض ، وذلك ان النار اذا اطفئت صارت هواءاً والهواء اذا غلظ صار ماءً والماء اذا غلظ وجد صار ارضاً . وليس للماء ان تطف ولا للارض ان تغلظ فتصير شيئاً آخر ، بل اذا تركبت اجزائها يكون منها المولودات ، اعني المعادن والنبات والحيوان . لكن يكون بعضها اشرف تركيباً من بعض وذلك ان الياقوت اصفى من البلور واشرف منه والبلور اصفى من الزجاج واشرف منه وكذلك الذهب اشرف من الفضة واصفى منها والفضة اصفى من النحاس واشرف منه وكلها احجار معدنية اصلها الزئبق والكبريت والزئبق والكبريت اصلهما التراب والماء والهواء والنار . فهي لاهها واحد ، وصورها مختلفة ، وصفائها وشرفها بحسب تركيبها واختلاف صورها . . . »

وجاء ايضاً في رسالة المعادن « واذا كان الزئبق صافياً والكبريت نقياً واختلطت اجزاؤها وكانت مقاديرهما على النسبة الفضلى واتحدت وامتصت الكبريتية رطوبة الزئبق ونشفت نداوته ، وكانت حرارة المعدن على اعتدال في طبخها ونضجها . ولم يعرض لها عارض من البرد واليبس قبل انضاجها انعقدت من ذلك على طول الزمن الذهب الابرز . وان عرض لها البرد قبل النضج انعقدت فصارت نحاساً احمر يابساً . وان عرض لها البرد قبل ان تتحد اجزاء الكبريت والزئبق قبل النضج انعقد فيها رصاص قلعي — معدن ينسب اليه الرصاص الجيد — وان عرض لها البرد قبل النضج وكانت الاجزاء الترابية اكثر صار حديداً اسود . وان كان الزئبق اكثر والكبريت اقل والحرارة خفيفة انعقد بها الاسدب وان افرطت الحرارة فاحرقته صار كحلاً . . . »

ومن النظريات التي اعتقد بعضهم صحتها ان لأوجه القمر ومواقع السيارات السبعة علاقة بالمعادن وبطرق تنقيتها فمثلاً ان المعادن السبعة تمثل السيارات السبعة . فالذهب يمثل الشمس والفضة تمثل القمر

والقصدير المشتري والرصاص زحل والحديد المريخ والنحاس الزهرة والزئبق عطارد . وقد نشأ كثير من الخرافات من هذا الرأي . فمن خرافاتهم انه اذا اريد اجراء عملية على النحاس مثلاً وجب ان تكون الزهرة في الموضع المناسب من السماء والا اخفقت العملية

هذه بعض من النظريات التي دان بها العرب . ومن الواضح الجلي ان الفكر اليوناني ظاهر فيها اتم ظهور . وهذه النظرية وان كانت خالية من الحقائق الكيميائية الحديثة كانت لها شأن كبير في تاريخ الكيمياء افليست هي حلقات من سلسلة طويلة بدأت في الكيمياء اليونانية وانتهت الى الكيمياء الحديثة ؟ ومهما قيل عنها فلا يمكن نكران تأثيرها في تطور الفكر الكيميائي خاصة وان الكثير من التجارب التي اجريت في سبيل تحقيقها ما زالت مستعملة مع شيء يسير من التبديل والتعديل

كيماءيو العرب

والآن من هم الذين اشتغلوا بالكيمياء من العرب ؟ ان عدد كيماءيو العرب كبير جداً فقد احصى الاستاذ فون ليمان Von Lippman ستين كيماءيو عاشوا بين القرن التاسع والقرن الرابع عشر ، وكلهم اشتغل بالكيمياء وكتب عنها . لكنني لم استطع ان اعرف من ذلك العدد الكبير سوى الالية اسماء هم : (١) الحسن الرماح (٢) عمر بن العظيم (٣) جابر بن حيان (٤) الرازي (٥) الطغرائي (٦) ابن ارفع رأسه (٧) عبد اللطيف الجوباري (٨) خالد بن يزيد (٩) ابو المنصور الموفق (١٠) ابو القاسم العراقي (١١) الكاظمي . وفي هذه العجالة المامة باعظهم اعني بهم ابن حيان والرازي وابن سيناء والعراقي اشتهر جابر بن حيان كمتألف كما اشتهر ككيماءيو ، فما ألفه عدد كبير من الرسائل الكيميائية التي ما زالت مبعثرة في مكتبات اوربا والهند ومصر . ومما هو جدير بالذكر ان هذه الرسائل لم يطبع منها ولم يترجم الا القليل في عام ١٨٩٣ ترجم الاستاذ Houdas تسع رسائل ، طبعها بعد ذلك الكيماءيو المشهور برتوليه Bertholet في كتابه La Chimie au Moyen Age . ولقد وجد الاستاذ المذكور من بين المخطوطات اللاتينية مخطوطاً بالعنوان التالي :

Liber de Septuagula Translatus a Magistra Renolds Cremoneusi

فظنه من المخطوطات المترجمة عن جابر ولكن لم يستطع تقرير شيء ما لان النص العربي كان مفقوداً يوم ذاك . ومن محاسن الاتفاق ان اكتشف الاستاذ Max Meyerhof عام ١٩٢٦ مخطوطتين لجابر احدهما في مكتبة نور الدين بك مصطفى والآخر في مكتبة احمد تيمور باشا وكل منهما اصل لتلك المخطوطة اللاتينية

واشهر ما كتب ابن حيان كتاب الرحمة وكتاب الجوهر الاصيل وكتاب السموم وكتاب الدولة وكتاب الموازين . ومع ان جميع هذه الكتب لا تتضمن ابحاثاً كيميائية صرفة بل خليطاً من الابحاث الطبيعية والكيميائية والفلسفية ومزيجاً من الخرافات والرموز والالغاز الا ان قيمتها العلمية لا تقدر . وخليق بابن حيان ان يدرس دراسة علمية حقة لانه بنى ما كتبه على ما جربه بنفسه

وان كانت استنتاجاته غير علمية ، وعلاوة على ذلك لأنه الواضح لنظرية تكون المعادن من عنصري الكبريت والزنك تلك النظرية التي بقيت مسيطرة على كتب الاقدمين حتى فجر النهضة العلمية الحديثة . ففي نظر جابر ان المعادن تختلف باختلاف نقاوتها واذا ما كملت نقاوتها استحالت الى ذهب اريز . وهذا ما جعل هدفه الأعلى تنقية المعادن لتحضير الذهب . على ان هناك أشياء كثيرة اشتغل بها ونجح في تحضيرها اهمها صناعة الحديد الصلب ، واصباغ الملابس ، واصباغ الجلود ، وصنوف الدهان المختلفة خاصة منها تلك التي لا ينفذ الماء خلالها . وقد استطاع ان يطلي الحديد بطبقة معدنية اخرى لكي تقيه من التأكسد . والمعروف انه أول من استعمل ثاني اكسيد المنغنيز في صناعة الزجاج وكبريتيد الحديد الخام في صناعة التذهيب ، وتمكن من تحضير الحامض الخليك المركز بتقطيره الخل ، وكربونات الصودا والبوتاس من رماد بعض النباتات والصودا السكاوية بغليه كربونات الصودا مع الجير الحي . وهو اول من نقي ملح الطعام من المواد الممزوجة به . وطريقته في ذلك انه كان يحمي الملح لدرجات حرارة عالية فتزال جميع المواد العضوية فيه . ومن ثم يذويه بالماء ويرشح المحلول ويبخره فيبيلوره . ومما جاء ذكره في معظم رسائله انه اشتغل بنبترات البوتاس وكلوريد النشادر والشب والبوركس وكبريتات النحاس وكبريتات الحديد . وله طريقة مبتكرة في تحضير ماء النار — الحامض النتريك — فانه كان يحمي كبريتات النحاس مع نترات البوتاس والشب ويجمع الغازات المتصاعدة في الماء . وقد حضر هذا الحامض لاذابة الفضة والذهب بعد ان يمزج برادتهما من جاً تاماً بكلوريد النشادر

أما أبو بكر الرازي فيعد في مقدمة الأطباء الكيماويين . قيل عنه انه أول من استعمل الكيمياء في الطب ، ولكن إبحائه في الكيمياء ما هي الا تجارب مؤسسة على الخيال ومستمدة من السحر والشعوذة ، ففي عقيدته ان النحاس والفضة شيء واحد وما للنحاس الا فضة كامنة وبمجرد ازالة اللون الاحمر منه يستحيل فضة . وقد جاء في بعض المخطوطات انه استعمل الكحول لاذابة بعض المركبات العضوية التي لا تذوب في الماء

وثالث المشهورين بالكيمياء هو ابن سينا ولكنه ايضا كالأرازي طبيباً اكثر منه كيميائياً . وآراؤه الكيماوية كثيرة الشبه بآراء ارسطو فهو يعتقد ان الهواء قوت النار . وان المعادن جميعها تتركب من مادتين احدهما لزجة والاخرى ترابية وبعملية التكلس Calcination يمكن فصل المادة الاولى عن الثانية . ويقسم ابن سينا المعادن الى اقسام اربعة (١) المعادن غير القابلة للانصهار (٢) المعادن القابلة للانصهار والطرق (٣) المعادن الكبريتية (٤) الاملاح

وآخر من اشتغل بالكيمياء العربية هو ابو القاسم محمد بن احمد العراقي السماوي الذي عاش في القرن الثالث عشر والذي صنف بضع رسائل اشهرها كتاب «العلم المكتسب في صناعة الذهب» و «عيون الحقائق في السحر» و «الكنز الدفين» . والاستاذ سارتن يعتبر ابا القاسم من اعظم

كياوي العرب شأنًا لأنه سار على مبدأ الشك في جميع ما كتبه اسلافه . فقد كان لا يؤمن بما بين يديه من النظريات والفروض إلا بعد تجربته . فهو من هذه الناحية يعد من الكيماويين المجددين وقال عنه الجلاقي في كتابه « نهاية الطب » ان ابا القاسم صرف سبع عشرة سنة في دراسة الكيمياء وجالس الكثير من علماء العراق ومصر والمغرب وسوريا والحجاز واليمن ودرس كتب من تقدمه وبُحث في الطرق التي استعملت في تجاربهم . وقد ادى به بحثه الطويل الى الاعتقاد بأن من تقدمه من العلماء اوجد نظريات مضطربة تخالف بعضها بعضًا . فلذا من واجبه ان يكتب رسالة تشرح النتائج التي وصل اليها في ابحاثه . والى فكرته هذه اشار في مقدمة كتابه « العلم المكتسب » . والفكرة السائدة في كتابه هذا ان المعادن من اصل واحد واختلافها ناجم عن صفات عرضية يمكن ازالتها ، وبزوالها يصبح المعدن ذهبًا ابريزًا

﴿ خدمات العرب ﴾ يعتقد بعض مؤرخي الكيمياء امثال برتوليه وفون لپن وكوب ان العرب لم يزيدوا شيئًا على ما اخذوه من علوم اليونان ، ولم يصب الكيمياء أي تقدم في زمنهم وكان يحمل عملهم انهم ادوا الرسالة التي اخذوها من اليونان الوثنيين الى اوربا المسيحية . لكن هناك طائفة اخرى امثال شلمان وجيبون وسارتن وغيرهم ممن يخالفهم . ولم تتردد في تفنيد ما زعمه الأولون واعلان الكثير مما قام به العرب من الخدمات الجلى سواء بابحاثهم او بتجاربهم مما عجل بزوغ النهضة العلمية الحديثة . والحقيقة ان مقام الكيمياء العربية كبير جدًا ، فقد كان العرب عاملاً مهمًا من عوامل ترقية الصناعة الكيميائية ، وكانوا في مقدمة من استعمل العلم النظري في امور الحياة العامة ولتأليف خدمات العرب تقسمها الى قسمين . الخدمات المباشرة والخدمات غير المباشرة . اما الاولى فتتكون من العمليات الكيميائية الأساسية التي استنبطها العرب والمركبات التي استنطعوا تحضيرها والصناعات التي اقتبسوها من شعوب اخرى واذاعوها في الشرق والغرب كتحضير الكحول بتقطير المواد المخمرة ، والبوتاسا الكاوية بغلي كربونات البوتاس مع الجير الحي ، وروح النشادر — غاز الامونيا — والقصفور من البول . والعرب اخذوا البارود من الصينيين لكنهم حسنوا نوعه واستعملوه في الحرب وفي الالغام . واكتشفوا دهانًا بقي الخشب من الاحتراق . وهم اول من كتب عن العمليات الكيميائية ودونوا وصفها في كتبهم ورسائلهم . ولا يجب أن يغفل فضل استعمالهم للاوعية الخزفية والزجاجية في التقطير وفي التجارب الكيميائية الاخرى ، واليهم ينسب اكتشاف طريقة التقطير الجزئي Fractional Distillation اما اشتغالهم في فن الصيدلة ووضعهم للاقرباذين واستخدامهم المركبات الزئبقية كعلاج للامراض الجلدية فما لا يريد ان نتطرق اليه في هذه العجالة

واما الخدمات غير المباشرة فهي جمعهم العلوم من مصادر شتى ، وتأليفهم بين اجزائها ، ثم نقلها الى الغرب الذي اتخذها أساسًا لتشييد النهضة الحديثة . ولولا هذا العمل لتأخرت النهضة العلمية الحديثة بضعة اجيال . افهل بعد هذه خدمة للعلم اعظم ؟

الپاپاز : ثمر عجيب

Papayas or Papaws

[عن السيئنفك اميركان : نقلها عوض جندي]

الپاپاز أو قلاوون الاشجار ، ثمر لذيذ لشجرة تشبه النخلة شكلاً ، تنمو في أراضي المنطقة الحارة ، فيها شفاء للناس . وشجرة الپاپاز بديعة الشكل ، مختلفة الثمار . وتحمل ثمرها على ساقها الباسقة فتبرز الثمار مباشرة من الساق ، على مقربة من أوراقها العليا التي تجلجل رأس الشجرة . ويصنع لحاؤها حبلاً . وتستخرج من جذورها عصارة فاذرة مقوية للأعصاب . ويستعذب الوطنيون في البلاد الحارة بزورها فيمضغونها كثيراً إرواءاً للظما . ويحل ثمرها الينيع الشهي جيداً محل القلاوون العادي المضلع « وهو المعروف في القاهرة وضواحيها باسم السنطاوي » ويؤكل ثمرها نجاً ، ويطبخ كما تؤكل الخضراوات ويطبخ ، وإذا عقيمت شجرة الپاپاز في أواخر السنة الثالثة من عمرها . قطعت وجُمِرت^(١) ويُسَرَّ جُمَّارها اللين ، كما يسر النارجيل للأكل ، وطعم جمارها يختلف قليلاً عن طعم بشاره^(٢) النارجيل ، ولكن هيئته ومميزاته العامة تجعل ناظره يكاد يظنه نارجيلاً مبشوراً . ولذلك ترى الأميركيين يشربونه ويخلطونه بالقشدة المخفوقة فيصير من ألد أصناف الحلوى التي تؤكل عقب الطعام . ويصنعون من بشاره الجمار سلطة لذيذة مغذية مؤلفة من الخس والخيار المشقق . ويصنع من ثمر الپاپاز مربى وهلام لذيذان . ويدخل الپاپاز في صنع الشطائر Sandwich والقرايش والشربات والحللات ، فيجعلها شبيهة جيداً . وتصنع من ثمر الپاپاز كعوب مبلورة ، وهي من أفضل أنواع الحلوى الملبسة بالسكر ، التي تحضر من ثمار المنطقة الحارة

وشجرة الپاپاز سوقاء^(٣) جوفاء دقيقة الرأس . ويبلغ طول ثمرها عشرة قرايط . وقشر الثمر صفيق كقشر البطيخ ، ولونه برتقالي . ويسلق الپاپاز الفج ويؤكل كالخضراوات . ويستعمل أهالي المنطقة الحارة عصارة ثمر الپاپاز الفج ، بحالتها الطبيعية ، وهي لبينة الشكل ، علاجاً للأكزيما والنايل والقرح والديدان المعوية والدفتيريا ولغيرها من الادواء المختلفة . ويتخذ الثمر اليانع من الپاپاز بمثابة ماث^(٤) للوجه والشعر ، بأن تؤخذ شريحة منه وتلك بها البشرة فتزيل منها الشمس وغيره من العيوب الجلدية . وكذلك يستخرج من الپاپاز ضرور للوجه وغسل لعلاج الجلد ويجعل ثمره البغو^(٥) وورقه الأخضر كصابون لتنظيف الثياب

(١) جمر النخلة — قطع جمارها — (٢) البشارة على وزن فعالة ، بضم الفاء . الجوز المبشور وغيره (٣) السوقاء — طويلة الساق (٤) الماث — دهان الوجه أو الشعر (٥) البغو — بفتح الباء الثمرة قبل نضاجها . وهذا اللفظ العربي الفصيح مستعمل عند الفلاحين في الوجه البحري ويطبقونه على قرون الفول الأخضر الغضة

وتستخرج منه مادة الباباين^(١) وهي عقار مشهور في الطب وتستعمل عصارة الباباز مليناً للحجم اليبيس. فاذا دهنت قطعة لحم تارز^(٢) بشريحة خضراء من ثمر الباباز ، غزيرة العصارة ، او اذا غمرت اللحم في تلك العصارة بضع دقائق ، لان وسهل مضغه وتيسر هضمه . واذا وضعت قطعة من ثمر الباباز في الماء المزيج سلق اللحم فيه ، عجلت انضاجها . واذا لففت اللحم اليبيس بورق الباباز الاخضر لان . وتغذى الخنازير بثمار الباباز ، فتلين لحومها اكثر مما هي عليه ، فيقبل الناس على شراؤها وأكلها . وسبب تلك الميزة الغربية في الباباز ، الملينة للحجم الصلب ، ايما كان نوعه ، تشبع عصارة الباباز بمادة الباباين . وهي مادة تهضم الاغذية البروتينية مثل اللحوم وبياض البيض واللبن الجبن وما شاكلها . ومثلها في ذلك مثل خميري المعدة البشرية المشهورتين وهما الببسين والتريپسين . ولذلك تستعمل الباباين في عالم العقاقير بديلاً من الببسين

وطريقة استخراج مادة الباباين النفيسة هي كما يأتي : — يجفف اللبن الذي يسيل من لحاء ثمر الباباز الاخضر . وأفضله ما يستدر من الثمر الاخضر الموشك على النضج ، الجيد الحجم ، فيخدش لحاؤه خدشاً سطحياً بسكين عاجي او خشبي او عظمي . لان الثمار الصغيرة جداً تدرك لبناً ضئيلاً التأثير في الهضم ، على حين ان الثمر الينيع يدر لبناً قليلاً جداً او لا يدر البتة . ويجمع العصير الذي يسيل من ذلك الشق الذي يشق في الثمرة ، في اناء زجاجي او خزفي نظيف جداً . ولا تلبث الثمرة المخدوشة ان تكف عن الادرار لان اللبن يتجمد في شقها . فاذا انقضت بضعة أيام ، اندمل شقها . وتكاد خاصية الثمرة لا تتأثر بتلك العملية . ويمكن خدش الثمرة نفسها مرة كل اربعة أيام او خمسة أيام حتى تبدو عليها اعراض النضج . وينبغي ألا تستعمل المدى القولاذية للخدش في أية حال من الاحوال لئلا تنتج مادة الباباين قاتمة اللون ، طفيفة النفع . وتبدأ عملية الخدش في الغداة على ان تتم قبيل الساعة العاشرة صباحاً لكي يترك وقت كاف للثمرة لتجف في اليوم نفسه

وسرطان ما يتجمد العصير المجموع ، فيصير كتلة بيضاء نقية فتجفف عاجلاً لئلا تتعفن فتفسد المادة كلها . ويقوم التجفيف بتعريض ذاك اللبن المتجمد سريعاً لاشعة الشمس على ألواح زجاجية اما في جزيرة سيلان ، حيث تكون الاحوال الجوية شديدة التقلب ، ولا سيما في الجنوب الغربي منها ، فلا استطاع تجفيف العصير في الخلاء ، فتستعمل أجهزة خاصة للتجفيف في تلك الافاق وفي غيرها من المزارع الكبرى في انحاء العالم . ومتوسط ما يستغل من مسحوق الباباين من كل فدان يزرع بابازاً هو ١٧٥ رطلاً كل سنة . وقال احد مشهوري خبراء الصحة في الباباين ما يأتي —

توفرت على البحث فيما يحويه الباباين من القيمتين ، فاستدللت ، مما قت به من التجارب ، في

(١) الباباين . حمزة تستخرج من ثمر الباباز الفج ، ذات خواص هاضمة مثل الببسين وتؤثر في الحاليل القلوية . وهي مسحوق أبيض يحضر من عصير الباباز مقو للقلب ، خافض للحرارة ، مذهب لاغشية الدفترية اذا استعمل مساحناً (٢) التارز — الصلب —

جزائر هونولولو والهند الشرقية الهولندية ان الپاپاز خاص بفيتامين C وهو الفيتامين الذي يحويه البرتقال فيجعله مفيداً للصحة . والپاپاز ايضاً حافل بفيتامين A الذي يندر وجوده في الثمار . ويكون دائماً مصحوباً بفيتامين D ألتى وجد . وفيتامين D يمنع كساح الاطفال . وحسب الپاپاز هذه الفائدة الطبية وحدها التي تجعله مفيداً فائدة لا تقدر لشعوب العالم . وكذلك قوته المساعدة على هضم الاطعمة . وهي نعمة عظيمة للذين يشكون سوء الهضم على اختلاف انواعه وقد شرع العلماء يدرسون الپاپاز من وجهة منافعها الصحية ، وذلك مع معرفة خصائصه الطبية من زمن بعيد عند سكان المنطقة الحارة ، حيث ينمو ذلك الثمر نمواً فطرياً . فاستدلوا على ان الپاپاز يمكن ان ينفع سكان الولايات المتحدة الاميركية منافع جليلة .

والپاپاز من فصيلة ذات عشرين نوعاً تنبت في المنطقة الحارة باميركا وفيما يليها من الاقطار وتسمى شجرتها علمياً باسم كاريكا پاپايا Carica Papaya وتوجد في جنوب فلوريدا . وقد انتشرت زراعة الپاپاز في ارجاء العالم حتى كاد يصبح معروفاً في جميع الاقطار الحارة . واصنافه كلها سريعة النمو ، غير مفرعة . وتبسط الى ثلاثين قدماً ، ذات منظر بارع الجمال ، وورق كبير ، وثمر جزيل ، شبيه بالبطيخ ، مما يجعل تلك الشجرة فريدة الشكل وتحمل الشجرة ثلاث سنين او اربع سنين . ويختلف حجم الثمرة من قدر الكوارت الى حجم كوز الماء الكبير . وتزن من ثلاثة ارطال الى خمسة عشر رطلاً . وكثير من انواعه مستدير الشكل ، وبعضه مستطيل وهذا الاخير هو الاصالح احياناً للتصدير الى البلاد الخارجية . ثم ما قالته السينتفك اميركان وجاء في مجلة العلم العام الاميركية ما يأتي : —

تنمو في مفاوز المنطقة الحارة باميركا الجنوبية شجرة مدهشة ، ذات منافع اقتصادية وطبية . وهي شجرة الپاپاز . وهذه تختلف اختلافاً طفيفاً عن اخنها التي تزرع في الاقاليم الوسطى والجنوبية بالولايات المتحدة التي تمت الى فصيلة اخرى . وهي شجرة أنيقة الشكل وقد يبلغ طولها ثلاثين قدماً وتفرزعصارة غريبة اذا دهنت بها لهما قصيداً (١) جداً كلحم البقر مثلاً ، رخص (٢) فصار كلحم الغزال . ويستعمل اهالي البلاد ، التي تجزل فيها اشجار الپاپاز ، عصارته لتلك الغاية . ويجعل اهل پاراجواي ورق الپاپاز بديلاً من الصابون . ومن غريب امر عصارة شجرة الپاپاز انها تحتوي على ليفين (فيبرين) وهو بروتين كيميائي لا يوجد الا في المملكة الحيوانية . وعصارة الپاپاز لبنية ، حريفة الطعم ، ذات منافع طبية . وتستعمل بزور الپاپاز كدواء فعال طارد للديدان ، قاتل لها . وثمر الپاپاز لذيد الطعم ، دسمه ، كبير الجرم ، مستطيل الشكل ، وقشره ثقيل ، فعسى وزارة الزراعة ان تعنى زراعة شجر الپاپاز في مديرية اصوان . كما جرّبت زراعته في السودان فنجحت . وقد رأينا ثمره في المعرض الزراعي الصناعي السابق



طائفة من اشهر شعراء الانكليز

من اليمين الى اليسار : الصف الاول - بيرون ، يوب ، ملتن - الصف الثاني : كيتس ،
 كولردج ، برنز - الصف الثالث : سوينبرن ، شلي ، تينيسون

الشعر الحديث

بين الثورة والتقليد

للكاتب محمد زكي البوساوي

- ١ -

« أي شيء في الماء الجاري له ذلك السحر الوثيق بالذهن الانساني ؟ » — هذا هو السؤال الذي استهل به المستر بنيون محاضرته الثالثة عن (التقليد والثورة في الشعر الحديث) . وجوابه عن هذا السؤال « ان خير الماء السلس ليس وحده الذي يلطف المشاعر القريرة ، بل شيء من فوره ينبه التصور ويرضيه ، وينقلنا خارج ذواتنا كأنما نحن على مجرى حركة تشاطر في الخاطر دون جهد منا . ان سر ذلك السحر هو اعترافنا بأن هذا الشعور بالحركة الهنيئة الطليقة هو عنصريّ واصل في ذواتنا . ان الحياة هي الحركة ، وهي تشمل تحوُّلاً مستمراً ، وسواء شئنا ام لم نشأ فأجسامنا في تحول مستمر من المهد الى اللحد ، متغيرة ومتجددة من لحظة الى اخرى . فهل كذلك حال اذهاننا ؟ لست أدري . ولكنني واثق من اننا في خطر دائم من ترك المادة الميتة تتجمع في اذهاننا ، ومن قبول الاطراد للآراء المتناولة ، ومن صيرورتنا الى عبودية ألفاظ وعادات . ان البركة الاسنة وقد طفحت عليها الجفالة وغصت بالاعشاب هي صورة ما يمكن ان نحيل اليه اذهاننا بالاستسلام الهين . ولكننا غالباً نشفق في تفحصنا في هذه الناحية ونؤثر ان نعيش مجهولين لانفسنا ، كأن سقطاتنا الخلقية فقط جدرة احياناً باهتمام الضمير المنقّب . ان الفنان الصادق يعرف بالنقاء والتشبث والنجاح في جهده ليلبغ ما هو اعظم من الحدة والدقة والقوة في التعبير عما في نفسه وعن خبرته للحياة . انه يريد ان يعمل طليقاً من كل ما هو ميت او نصف حي طائفاً او موهنأً تعبيره بمادة رثة او قالب عتيق ليس وفقاً له ، أو سلّم به دون عقيدة من حرمة زمن سابق ، أو كان ثمرة تراخيه وعجلته . ان القوة الدافعة خلف جميع الحركات في الفنون التي يُسمَعُ عنها كثيراً اليوم واحدة : فهي في أصلها رغبة في الوفاء الاُصدق للذات الداخلية والحقيقة العالم الخارجية ، وفي التعبير عن علاقة الرُوح الانساني بالكون بصدق واستيفاءً أبلغ . لا توجد سوى حركة واحدة تجاة حياة أحد ، ولكن احتمالات الخبرة فسيحة غاية الفسحة حالة ان الطاقة الانسانية محدودة ، بحيث تتجلى هذه الحركة في الواقع كضغط غير مبدول بمثابرة الى غاية واحدة بل تارة في هذه الجهة وحيناً في تلك ، فيبدو في الوقت طريق معين أحب من غيره .

وكثيراً ما تلوح كمحاولة لاهياء حركة سابقة كأنما النوع الانساني في عجلته أو في تشعب اغراضه افتقد شيئاً في الطريق واحتاج الى تعقيب خطواته ليلتقط دليله المنسي ١

- ٢ -

ثم تكلم المحاضر عن « الحركات الفنية » فقال إن هذه « الحركات » نشأت عادة بمثابة رد فعل للتقليد أو فهمت كذلك عند من بدأوا بها . وإذا نجحت « الحركات » سميت « تقاليد » ، ولكن من النجاح ما يمكن أن يعني فقدان الحياة !

قال بنيون في اسلوبه الدسم المركز : « لنبدأ بتمييز في التعريف : لسنا نستعمل كلمة « تقليد » بمعنى واحد تماماً ، فعندما نتكلم عن التقليد العظيم في الشعر الانجليزي نفكر في سمط مديد من الشعراء الأصيلين ، ولا نفكر في اولئك الادباء الذين عاشوا على تقليد التفوق السابق بل نفعلهم وننساهم . إن « الأصالة » التي تظهر في كل عصر أو جيل هي التي تخلق « التقليد » وهو « تقليد الحياة » . وقد جلب كل من اولئك الشعراء جدته النيرة معه ، ولو ان كلاً منهم كان مرتبطاً بأسلافه برباط الوراثة أو التفاعل أو غالباً بكليهما معاً . وكل تقليد حي في الفنون عرضة دائماً للخطر ، إذ لا بد أن يتحرك وإلا صار راكداً وتعفن . إن مجد شعرنا انما هو في كونه يمثل تياراً نشيطاً دائم التغير ولكنه مطرد »

وانتقل المحاضر الى بيان المعنى الآخر لكلمة « تقليد » فقال : « ولكن ثمة معنى آخر لكلمة « تقليد » إذ نعني مجموعة قواعد وعادات مرعية نتناقلها على انها شيء مقدس راسخ . وثمة أذهان تتعلق بهذه المبلورات لما كانت دوافع سائلة في زمن ما ، كأنما تتعلق بصخور او قلاع في دنيا من التقلب والكفر ! هم ينسون أن الحصون المنيعه تؤخذ دائماً في النهاية ، فليس الظفر سوى الجيش المتحرك . وهناك أذهان ذات مزاج آخر يدعوها التفكير في كل ما صنعتها تلك الخرافة الذهبية ، تلك المادة الميتة في العقل ، لعرقة الروح الانساني وتشويهه ، وفي المحاقات والقساوات التي أنتجتها ، يدعوها ذلك التفكير الى فصم علاقاتها بالماضي فصماً تاماً والى دخول عالم طليق من الوهم معتمد على نفسه ، وحرر . ولكننا نعلم جيداً أن النفس الانسانية لا تستطيع ان تفصل نفسها عن ماضيها . ومع ان التغير من لب الحياة ، فلا بد أيضاً من دوام حي لا بد من استمراره ، إذ بغير الاستمرار لا يوجد نمو . وهذا « الاستمرار » كأن في « تقليد » الشعر الانجليزي . واما عن التقليد بالمعنى الآخر ، أي مجموعة القواعد والقوالب الجامدة ، فما اقل ما انحدر منها مع التيار ! وحتى قبل الحرب وما صحبها من رجفة مادية للعالم ، كان ملحوظاً في كل مكان روح القلق والحيرة ثائراً في الفنون متجلباً على اتم وضوح في التعبير الجابل (plastic expression) وفي التعبير التصويري ولكنه مشهود كذلك في الأدب ، وهو ضرب من الحمى ، وحنين الى البدائي ، الى الهمجي ، الى الهمة وتوكيد الذات باي ثمن . وأصبحت « الرجولة » و« الحيوية » الكلمتين الاصطلاحيتين للاطراء في النقد

فاستعملتا في إيهام تام كما هو حظ أمثالهما من الكلمات . فهل كان في ذهن اوربا إلهامٌ أو توقُّعٌ للانفجار المقبل في عالم الحركة ، من القوى البدائية والغرائز التي كَسِمَتْت زمناً طويلاً ؟ كيفما كان ذلك فإن علينا ملاحظة هذه الحقيقة . وإن سبب هذا الرُّوح المحموم المضطرب في الفنون لوجود أعمق من أي مذهبٍ جماليّ (aesthetic) ، وأرى أنه مُشْتَبِكٌ مع اكتظاظ الحضارة الذي نحن جميعاً عرضةٌ للشعور به . اننا لا نزال مأخوذون بذلك الخلط القديم عن جمال الحياة البدائية ، مع اننا نعلم ان المتوحش الذي نحسده محتبِّلٌ في شبكة من المخاوف الباطلة والموانع عند كل خطوة يخطوها ، مما يستعبده أكثر من المدنية الكاملة »

وانتقل المستر بنيون الى التحدث عن « الوان السخط الغامض والرغبات المضطربة التي ظهرت في الفنون وكان أدعى الى ظهورها ، أنه حول بداية هذا القرن بدىء باكتشاف ما تَلَفَنون الابداعية (creative arts) في القارات الاخرى خارج اوربا وبخاصة آسيا ، من الجمال والخطورة وتقدير ذلك . ومن ثمة بدىء بتحدي تراث الاغريق والرومان والقواعد المؤسسة على الفن الكلاسيكي . وكانت نتائج هذه المكتشفات اظهر ما تكون — بطبيعة الحال — في الفن التصويري والفن الجابل ، ولكن التفاعلات المؤثرة اليوم في الشعر هي الى درجة ما صدى لتفاعلات في عالم النقش حيث كانت الحاجة اعظم الى التبديل . وذلك لان التصوير الاوربي كان قد انعكس في مسألة التمثيل الشكلي انغماساً تاماً وجعل غايته التحقيق الشامل للحقيقة المنظورة ، بينما الشعر لم يرتبط مطلقاً بمبادئ الطبيعيين . وفي الوقت ذاته يجب ان نلاحظ ان الترجمات الوفيرة للشعر الصيني فتحت لشعرائنا عالماً جديداً وتطورات جديدة لفنهم ، وارى ان ترجمات المستر والي (Waley) كان لها اثر بعيد . اذن اجتمعت الظروف لتنشئ في الشعر كما انشأت في جميع الفنون حالة من الغليان والاضطراب . ولا مناص في مثل زمننا السريع التحول العديم النظير من ان تصير صيغ الفن غير ثابتة وتجريبية » . وشرح المحاضر الحركات المتوالية بين صعود وهبوط كأنها امواج العباب فتشرَّب ثم تنبسط : فمن رمزيين (symbolists) الى رسامين (imagists) الى دوائر (vorticists) ^(١) الى تعريحيين (expressionists) وهلمَّ جراً

— ٣ —

ثم أخذ المستر بنيون يتحدث عن اساليب التعبير فقال « انه لا مناص من ان يؤدي التغير في المزاج أو في الآراء الاساسية الى محاولة ايجاد صيغ جديدة للتعبير . ولاولئك الذين تعودوا التقاليد القديمة للشعر الانجليزي ، وعلى الاخص تقاليد القرن التاسع عشر ، يتجلى الاسلوب الذي

(١) رمي الحركة الدوارية في الفن الى اظهار الحركة الایقاعية في الاثر الفني ولو جاء بمعزل عن تفاصيل المشابهة بالاصل . ومن أهم اعلامها هنري جوديه . برسكا في فرنسا ووندهام لويس في انجلترا ولا يزال الاخير من كبار نقدة الفن في انجلترا

يعبر به الشعر الحديث عن نفسه ، مُرَبِّكاً . وثمة امران يدعوان الى الحيرة أو الاستياء : وهما الغموض والصياغة أو العجز في الصياغة — هذا الغموض الذي يظهر الآن بدعة سارية (fashionable) يرجع غالباً الى استعمال أخيلة مرسومة من مصاحبات الشاعر الخاصة ، وهي بالضرورة غامضة لا خرين . وقد رآه ت . س . إليوت (T. S. Eliot) ^(١) الطريق لاستعمال هذا النوع من الصور : ويتبعه في ذلك المستر أودن (Auden) وآخرون . وهناك أمثلة كثيرة لقصائد كانت تُظنُّ غامضة عند صدورها — مثل ملحمة تنيسون « الذكرى » (In Memoriam) ^(٢) ثم لم يرَ جيل آخر أية صعوبة في تفهمها . ولست أدري هل سيقع هذا في حالة شعراء اليوم المحدثين . وعلى أي حال لا يبدو أن هناك شيئاً ضرورياً في هذا الغموض ، فأننا لا نجد مثلاً عند المستر استيفن اسبندر (Stephen Spender) . ان موضوع الصياغة يُثير مسائل بعيدة المدى ، فأننا عندما نتحدث عن الصياغة في الادب نكون عرضة للتفكير فيها بعبارة هندسية فيتمثل في اذهاننا التشييد قبل النمو ، وتقوم في اذهاننا صورة بناء قبل ان تقوم صورة نبات . ليست صياغة القصيدة عبارة عن مجموع أجزائها فحسب ، ولندكر بيت سبنسر :

انَّ الصياغة رُوحٌ مُكوِّنٌ للجسم

The form is Soul and doth the body make

ولنا أن نقول إن لكل قصيدة صياغة داخلية وصياغة خارجية . ويُخيَّلُ لي أن الناس يميلون الى اطالة النظر كثيراً في الصياغة الخارجية ، وعلى الاخص إذا كانوا قد اضلوا بالمثل الاعلى الكاذب عن الدقة . وربما لا يزال يوجد أناس يتصورون أن المثل العالي لصياغة الشعر أن تكون في تناوب النبرات ، وليس الانحراف عن ذلك إلا من الضرر الشعري المسموح بها . ومع ذلك فمن البديهي أن على الاختلافات في الصياغة الداخلية يتيسر وجود الحياة الايقاعية لوزن الشعر . وهذا يمثل عبادة الصياغة الخارجية في منتهى سخافتها

— ٤ —

أخذ المحاضر بعد ذلك يوجه عناية المستمعين الى مكانة ما نعتُّه بالصياغة الداخلية أو الصورة الباطنة لوزن الشعر وتأليفه فقال : « أرى أن شعراء الحركة العصرية يرمون بصدق الى بلوغ الصياغة الداخلية قبل الخارجية . ومن ثمة كانت الحركة قابلة لان تعتبر الوزن والقافية مجرد أغلال أو عوائق وخزعات رثية . ومع أن ذلك التقرير لا يصدق الآن كما كان يصدق منذ سنوات قليلة

(١) من شعراء انجلترا المحدثين وهو من أصل أميركي وجامع بين ثقافة السوربون واكسفورد ومن مآثور شعره الجليل « أغنية ج ألفرد بروفرك الغرامية » The Love Song of J. Alfred Prufrock (أنظر كتاب Recent Poetry 1922—1933)

(٢) نقلها الى العربية الاديب الشهير أنيس الحوري المقدسي استاذ الادب العربي في جامعة بيروت الأميركية، وبذل فيها جهداً عظيماً استغرق سنوات. وقد نظم تنيسون هذه الملحمة في سبع سنين وفاء لذكرى صديقه الحميم آرثر هنري هلام Arthur Henry Hallam وجعل موضوعها الموت والخلود مستوحياً حياة صديقه الفقيـد

مضت ، فامن شكّ في أن قيمتها صارت متحدةً . وأخذ المستر بنيون بعد ذلك يشرح أنه كيف كان الرأي الذي نريد أن نتخذهُ فإن هناك خيراً حقيقياً لا بدءاً من نشوئه عن هذا التحدّي للتقليد ، يجب أن يجعلنا ندرك أن الاختراعات التي من طراز الوزن والقافية هي وسيلة وليست غاية . ان القافية أداة للتقويم والتوكيد . فلها قيمتها في (المهزلة الإلهية) لدانتي لأنها تشعر بتسلسل النظم ، ولها قوة كدقات المطرقة في البيتين الآخرين من « السونيتة » الشكسبيرية (١) أو في بعض الاغاني الدارجة (ballads) القديمة . وعاد المحاضر الى موضوع الوزن فشرح كيف أن نظرية الشعر الحرّ (free verse) قائمة على أن التعبير يكون أدقّ اذا ما أطاع الشعر كل تغير دقيق للفكر وللشعور عند ما ينشأ في ذهن الشاعر ، وقال متسائلاً : من فرض الوزن أصلاً ؟ يقيناً هم الشعراء أنفسهم وكما أن القواعد اخترعت للألعاب الرياضية فكذلك الحال في الشعر . إن الفنانين يعملون محسنين داخل حدود مقررة ، وهم عرضة لأن يُشكّلوا بالحرية الكاملة . وليس الالتجاء في ذلك للعلم النظري ولكن للخبرة .

من رأي المستر بنيون أن الوزن يقابل شيئاً في الطبيعة الانسانية هو نسيج الحياة ذاتها . فيمكن أن توجد داخل الوزن مرونة لا حدّ لها ، كأنما هي التجاوب بين الباعث والعادة أو انما هي الحرية في داخل قيود المجتمع الانساني . وأخذ يستشهد بشعر فيه روح الغناء والخطابة وحتى الحديث :

I sang the dancing stars,
I sang of the daedal earth,
And of Heaven, and the giant man,
And Love, and Death, and Birth.
And then I changed my pipings,
Singing how down the vale of Maenelus
I pursued a maiden and clasped a reed.
Gods and men, we are all deluded thus,
It breaks in our bosom and then we bleed;
All wept, as I think both ye now would,
If envy of age had not frozen your blood
At the sorrow of my sweet pipings.

واليك ترجمتها الحرفية وان ذهبت بمعظم الروح الغنائية التي تصونها التفاعيل النظمية :
« تغنيتُ بالنجوم الراقصة ، تغنيتُ بالارض الخيِّرة ، وبالسما ، وبالانسان الجبار ، وبالحبّ والموت والميلاد ، وبعد ذلك بدلتُ زمري مغنياً كيف في مهبط وادي مينيلاس تعقبتُ صبية فلم اضم إلا قصبة . وهكذا نُضِلُّ جميعاً نحن الالهة والرجال . إنه يُنقذ الى صدورنا وحينئذ ندعى . انهم جميعاً بكوا كما اظن انكما الآن تبكيان اذا لم يكن حسدُ العمر قد أصقع دمك كما لدى الأسى في زميري العذب » . قال بنيون « كذلك يرون في الفصلين الآخرين من ملحمة (تشايلد هارولد) يبدو لنا خطيباً مصقلاً . إنه يشعر بمستمعيه ، ولكن ليس ذلك كأنهم شيء خارجي عن

(١) تتألف السونيتة الشكسبيرية من ثلاث رباعيات تتبعها ثنائية ، ونظام قوافيها هو (على سبيل المثال) :
أ ب ، ج د ، هـ ، و ، ز ز . وكانت السونيتات مقصورة أصلاً على الشعر الغنائي ولكن اتسع مجالها فيما بعد

نفسه يريد تنبيهه أو مداجاته لغاية خفية ، وإنما يشعر أنه كليم (spokesman) لتفوقه صبغة عامة أكثر منها خاصة . هو رجل طرازي (representative) ، وهو يعرف ذلك . وهذا يعطيه سعة في الخطاب ونوعاً من الفسحة في الأسلوب . وليس هذا بأخضر الشعر ، ولكن أدبنا يكون أفقر كثيراً من دونه . ان شكسبير ممتلئ بالفصاحة البيانية ، ولكنه حتى عند ما يستعمل تعابير طرمادية (bombastical) فمن العسير أن نجد قائلًا شيئاً فارغاً . ربما كان معربداً في براعته الذهنية أو في سيطرته على اللغة ، ولكننا نجد دائماً عقلاً داهيةً نشيطاً خلف كلماته . وفي نماذج الخطاب النبيل نجد بيانه مغموراً بالخيال مما يجعله في أية لحظة متسامياً الى الشعر كما في هذه المقطوعة من خطاب (جون أوف جونت) ^(١) :

This royal throne of kings, this sceptred isle,
This earth of majesty, this seat of Mass,
This other Eden, demi--Paradise...
This happy breed of men, this little world,
This precious stone set in the silver sea.

هذا العرش الملكي للملوك ، هذه الجزيرة الصولجانية ، هذه الأرض للجلال ، هذا الكرسي للقدّاس ، هذه عدن الأخرى ، نصف الفردوس... هذا النسل القدير من الرجال ، هذه الدنيا الصغيرة ، هذا الحجر الكريم الثمين منضداً في البحر الفضي

واستطرد المستر بنيون في حديثه عن الخيال الشعري فقال إنه كان يتألق متمشياً مع الفطرة السمحة في أحاديث تشومر ، وفي حوار شكسبير الخفيف ، وفي ملحمة (دون جوان) لبيرون ، وفي فرديات (monologues) بروننج ، وفي قصائد معينة لروبرت برджер وييتس . ومن رأي بنيون أن صياغة الشعر تكون في أجل صورها الطبيعية حينما يكون كنوع من الخطاب السماوي وهو شيء يبعث الصوت الانساني ، الصوت المتكلم ، أتقن أدواته ، فإن له حركة ناشطة بهجة ممتلئة حرة ، حتى يبدو كأنه نوع من التحرير لشيء في نفوسنا الداخلية . وتفسيراً لذلك أنشد بنيون الوصف البديع الذي وصف به ثيسياس ^(٢) (Theseus) كلاب الصيد ، ثم قال : « عند ما يهجر الشعر هذه السجية وهذا النطق ، عند ما يستعمل ضرباً من النظم لا يمكن تقديره في الصوت المتكلم ولا يعظم به ، إما بسبب حركته أو بسبب عبارته ، حينئذ يفقد شيئاً من صفته الأصلية . هذه الصفة يفقدها عند ما تدفع الكلمات قهراً في وزن بغير إحساس بقيمتها الطبيعية في الكلام . والنظم الانابستي (الرجعي) ^(٣) anapaestic verse عرضة بصفة خاصة لهذا العيب ، وحتى كيتس في صباه كان يقول مثل هذا :

(١) John of Gaun : هو دوق لانكستر (١٣٤٠ — ١٣٩٩) والابن الرابع للملك إدوارد الثالث والملكة فيليبيا . وكانت له جهود حريية في اسبانيا وفرنسا ، وفي أواخر حكم الملك إدوارد الثالث (والده) تماظمت قوته في إنجلترا ، وقد نال فيما بعد لقب دوق اكويتين وحكمها . وهو من الشخصيات التي لم تغفلها عبقرية شكسبير (٢) ثيسياس أو ثيسس بن أغيس . بطل أثيني ، وقد ذكر في (اللاذة) أنظر ص ٢٢٥ من الترجمة العربية لسايمان البستاني (٣) يرجع الى أحد كتب العروض الانجليزي للوقوف على تفاصيل الوزن

What though while the wonders of nature exploring
I cannot your light, mazy footsteps attend
Nor listen to accents that almost adoring
Bless Cynthia's face the enthusiast's friend.

ويمكن الاستشهاد بأمثلة أخرى أشدّ عيباً لشعراء آخرين^(١). ويلاحظ أن في هذه الاناشيد الشعرية تكون ضربة النغمة واقعة في البيت الاول وتترك الكلمات لتمشى معها على قدر طاقتها ولو أن نطقها في الانشاد قد يختلف كثيراً

ولكن الشعر قد يفقد صلته بالحديث فقداناً طبيعياً لاسباب عميقة حينما ينظم الشاعر وهو يفكر عن غير وعي في الكلمة المكتوبة قبل الكلمة المنطوقة، كما تدلّ على ذلك براعة تيسون في شعره المرسل blank verse الاخير وفي سونيتات روزيتي التي تغلب عليها الصناعة. وهذا مشهود بصفة خاصة في درامات سونبرن^(٢) ذات الشعر المرسل بما لها من الروق والتأثير الكلامي العام، ولكنها قلما تؤثر تأثيراً عاطفياً لأنها تهمل الوقفات الطبيعية للتنفس في أثناء الكلام، وبناء على ذلك تكتسب ما يكاد يكون جرساً أجنبياً يشقّ اتباعه عند التكلم به. وردّ الفعل لهذه الكتابة النظمية التي تعلّق بها شعراء العصر الفكتوري كان بذل الجهد لتقريب النظم نحو الحديث الطبيعي، وهذا يذكرنا بتوفر وردزورث على تحرير الاسلوب تحريراً طبيعياً فعني بالدعوة الى استعمال اللغة الطبيعية في المواقف العاطفية بدل التعابير التقليدية المحفوظة في لغة الشعر منذ القرن الثامن عشر. ولكنه لم يلزم نظريته هذه ملازمة دقيقة بل كان احياناً يسخّ غايته هذه، ولم يفعل شيئاً ليعيد الى النظم الايقاعات الكلامية speech-rhythms التي كانت للشعر الانجليزي الاول ولكن غطى عليها النظم الكلاسيكي. بيد أن احد معاصريه - وهو شيلي - توسّع في ألحان الشعر الليريكي وأغناها بما لم يستطع غيره ان يفعله^(٣) ويظهر ان قليلين نبهوا الى ذلك، لأن شيلي لم يكن يبتدع عن وعي، ونادراً ما كان يذكر الامور الصناعية في كتاباته أو في أحاديثه المدوّنة. استمع الى هذا الشعر:

Ah, Sister, desolation is a delicate thing.
It walks not on the earth, it floats not on the air
But treads with killing footstep and fans with silent wing
The tender hopes which in their hearts the best and gentlest bear;
Who soothed to false repose by the fanning plumes above
And the music—stirring motion of its soft and busy feet
Dream visions of aerial joy and call the monster Love
And wake and find the shadow Pain, as he whom now we greet. (٤)

فيا للتموجات الساحرة، ويا للتنويع في النغم ومداه، ويا للتراوح في الحركة المبهجة!

- (١) لم تترجم أبيات كيتس هذه لان الغرض من سردها في الاصل تبين عيب الصياغة التي لا تتمشى مع سلاسة التعبير
(٢) أشبه شعراء الانجليز بأحمد شوقي بك عندنا في حلاوته الموسيقية. وقد كان له شأن كبير في عهد الملكة فكتوريا وسحر الادباء بحلاوته هذه كما سحرهم تنسبون بشاعريته القوية (٣) لعل من أظهر الامثلة في شعره على هذه المقدرة الفائقة قصيدته « السحابة » The cloud فان سلاسة البحرى وبديعيات أبي تمام وأخيلة ابن الرومي مجتمعة تقف مشدوهة أمام نرونها المدهشة على شدة إعجابنا بشعرائنا
(٤) يرجع الاستشهاد في هذه الايات الى صياغتها الانجليزية ولذلك لم نترجمها ولا ما يماثلها

وأخيراً ختم بنيون محاضراته بقوله : « إِنَّ المسائل التي بحثناها كافيةٌ لتشويقنا ولكن يمكننا مطمئنين أن ندع للزمن تمحيصها والحكم في شأنها . أما المسألة الحقيقية فهي بين هذين : ما هو الشعر الجيد ؟ وما هو الشعر الرديء ؟ وليست بين التقليديين والعصريين ، ولا بين حزب اليمين وحزب اليسار . ألا يمكننا أن نبصر الأشياء في نور أعم ؟ ألا يمكننا أن نرى في الشعر روحاً مستمراً للنوع الانساني محاولاً بغريزة المقاومة المتحمسة أن يحرر في هذا الاسلوب تارة وفي ذلك الاسلوب تارة أخرى تجاوباً كادميين للعالم الذي نعيش فيه ، والمشهد الشامل والمعنى الكامل لهذه الدنيا ذات العظائم والاهوال والعجائب والافراح ؟ إن حبور المشاعر وعذابها ، إن الصيحة من اعماق القاب ، إن سياحات العقل ، إن تلهفات الروح الحرة — إن كلاً من اولئك بدورها ربما استوعبت حفاوة الشاعر . ولكن في اعظم الشعر ، وفيه وحده ، يبدو القريض كأنه امتص — كما تمتص الاسفنجية الماء — جميع العناصر المتنوعة والغامضة للطبيعة الانسانية واذاعها في صورة الفن . واني لا أذكر الإصرار الحماسي الذي كان يبيده الشاعر ولیم بليك على الوحدة المثالية للذكاء الانساني ، مما كان يُعدُّ في عهده دليلاً على عدم الاتزان العقلي بل على جنونه ! كان يعتقد بليك أنه إذا اغتصبت إحدى المواهب الانسانية — وتكن العقل او المشاعر أو العواطف — السلطة وسيطرت على بقية المواهب ، فإن الانسان يصبح في حالة سقوط . وكذلك الشعر ، إذا صار مُفقعاً بالمنطق او بالعاطفة أو بالحساسية الى درجة المغالاة سقط الى مستوى دون مستوى ذاتيته الحقيقية . ولكننا نحن الذين ولدنا في عصر يلوح فيه ان العلم بخطواته الفسيحة قد سبق جميع قوى الذكاء الانساني الاخرى ، وحينما يوجد ضرب من العطل الذهني في حياتنا ، وحينما لا نزال نعيش مجزء من انفسنا في آراء الماضي ليس لها الآن من صحة ، بينما نمضي مجزء آخر من انفسنا ك مخلوقات عوالم لم تحقق بعد ، فما أشق علينا ان نبلغ ذلك النقاء المنشود ! ولكن ها هي دنيانا المعاصرة التي استبدلت الى حد كبير نظرة الاطمئنان اليها من عصر سابق ، بالشك والحيرة وفقدان الامل الكاذب ، فما علينا إلا أن نحسن الحياة فيها ما استطعنا . ولا بد أن هذا الجو الغائم يخضب الشعراء الذين نشأوا فيه ، فاننا جميعاً أطفالُ عصورنا ، ولا بد أن يكون الشاعر ابن زمنه إذ ليس في وسعه الافلات من ذلك مهما حاول أن يموه الحقيقة ويخفي نفسه . ولكن المحاولة عن شعور وعمد لتنصيب الانسان نفسه كمرآة تعكس الشك والاختفاق هو في نظري تسليمٌ حقير . فاذا كان هذا هو روح العصر ، فإذاً يكون روح الشعر ضد روح العصر ، لان الشعر يتغذى من ينابيع أعمق من هذه المُشَبِّطات ، ويتذكر الأشياء التي هي أجلُّ من أنفسنا »



موسى بن ميمون

ويعرف في اللغات الاعجمية باسم Maimonides

موسى بن ميمون^(١)

حكيم في حكمته رسالة لابناء العصر الحديث

في عصر مزقته الحروب ، وساد فيه رجال الدم والحديد ، نشأ حكيم من اعظم حكماء التاريخ هو موسى بن ميمون المولود في قرطبة قبل ثمانية قرون كان يهودياً ورعاً ذكر ابناء قومه بمشترعهم الاول ، وكان حكيماً طالما خاض في اغوار الفلسفة الارسطوطالية ، وكان انسانياً يجد نصيباً من الخير في كل ثقافة ، وكان طبيباً خاصاً لبلاط صلاح الدين ولكنه مع ذلك لم يصرف المرضى المساكين عن بابه . فمن الطبيعى ان يقرن قومه اسمه الى اسم موسى الكليم مشترعهم العظيم وزعيمهم الذي خرج بهم من مصر الى ارض الميعاد اطل موسى بن ميمون على الحياة ، اذ كانت اليهودية مضطهدة من المسيحيين والمسلمين على السواء ، بل كانت في خطر من ان تفقد ذاتيتها وتتجحر في مذهب جامد ضيق النطاق . فبعث في ابناء قومه نشاطاً جديداً ، وكسب لهم في مصر وبلاد العرب ، مكانة عالية ، بفضل خلقه القويم وذهنه الجبار ، فبسط لهم مبادئ شريعتهم الموروثة وفسر لهم ديانتهم القديمة تفسيراً جديداً نبيلاً ولكن حسنة المنطقي السليم ، وبحنه الجريء عن الحقيقة ، حملاً على الخروج من نطاق مذهب واحد الى رحاب الانسانية والحكمة . فقد صارع الريب والاسرار التي تساور ذهن الانسان وقلبه في جميع العصور . ومع ان ابناء العصر الحديث ، من غير الطائفة الاسرائيلية لا يعرفون عنه الاقواعد الاحسان الثمان ، الا ان تفكيره كان ذا اثر عميق في القرون الوسطى التي نشأ منها عصرنا الحديث فمن الطبيعى ان يحتفل اليهود وغير اليهود بالذكرى المئوية الثامنة لمولده في هذا العام ، ابتداء من ٣٠ مارس ولكن من المصادفات التي يؤسف لها ان نرى العالم اليوم مضطرباً كما كان في عصر بن ميمون وان نشاهد بوادر الحروب والصعوبات الدولية تبدو كما بدت في ايامه . ومما تجدر ملاحظته ان روح ابن ميمون ، بل نظرياته ذاتها ، ما زالت ثابتة قوية كما كانت عليه لثمانئة سنة خلت

لقد مرت بابن ميمون في حياته تجارب مَرَّة لا تختلف كثيراً عن تلك التي يجتازها الشباب الذي نشأ غداة بداية العصر المضطرب الذي نعيش فيه . رأى نور الحياة عشية عيد الفصح من عام ١١٣٥ ، في مدينة قرطبة القديمة ، التي كان يحكمها وقتئذ الخلفاء وكانت الثقافة الاسلامية قد نمت

(١) [نشر اصل هذه المقالة في مجلة النيويورك تيمس بقلم كاتب اميركي معروف اسمه دوفوس Duffus وقد تفضل بنقلها لنا الدكتور الفريد يلوز الحرر والمترجم بوزارة المالية وسكرتير جمعية المباحث التاريخية الاسرائيلية المصرية]
جزء ١
(٩)
مجلد ٨٧

وازدهرت ، فباغت شأوها من العظمة ، حتى بزَّ العربُ معاصريهم من علماء المسيحية ، خصوصاً في الطب والعلوم والفنون وتفوقوا عليهم تفوقاً كبيراً . نشأ ابن ميمون في هذا الوسط الخصب في ظل تسامح العرب نحو اليهود ، ذاك التسامح الذي مهد لليهود فرصة الانتفاع من علوم العرب ، فعمت الفائدة كليهما . كان والد موسى من العلماء المشار اليهم بالبنان ، محترماً بين رجال عشيرته ، لما تحلى به من العلوم الدينية وادب الكتابة . وتلقى الولد علومه على يدي ابيه فظهر نبوغاً في الدرس والتحصيل . (لقد ذكر بعض المؤرخين انه كان كسولاً في صباه لكن هذا الادعاء يكذبه الواقع) وما كاد موسى يبلغ الثالثة عشرة من عمره ، حتى انقضى الحلم اللذيذ . اذ نشبت في قرطبة اضطهادات قامت بها شيعة الموحدين النازحة من افريقيا الشمالية (المغرب الاقصى) والتي قضت قضاءً مبرماً على عهد قرطبة الازاهر ، وحصدت في طريقها الفنون وروح التسامح والاخاء

لم ير ميمون مندوحة عن الرحيل ، محافظة على حياته وحياة اولاده . وها هي الاسرة تحيا منذ اثنتي عشرة سنة تارة في الاندلس ، وطوراً في المغرب الاقصى ، دون ان تستقرَّ في موطن واحد . وقد اضطر موسى خلال تلك المدة ان يهمل دراسته ، لكثرة اسفاره . لكنه كان اذا استقر في مدينة ، عمد الى تحصيل العلم آونة بعد اخرى ، وقد نشر اول مصنفاته خلال تلك المدة المضطربة وهو تقويم عبري مازال مستعملاً حتى الآن كمرجع من المراجع ثم اعقبه ببحث في علم المنطق هاجرت الاسرة الى فاس في سنة ١١٦٠ فقضت فيها خمس سنوات . وكانت تلك الايام اشداً على ميمون بن يوسف (والد موسى) قسوة وحيرة . اذ ان فاس ظلت ردحاً من الزمن مركزاً للموحدين ولنفاذهم . اعتنق اكثر اليهود الدين الاسلامي خشية على حياتهم . وقد قيل ان ميمون واسرته حذوا حذوهم . لكن كليهما دفعا تلك التهمة في كتاب ارسله موسى الى احد الحاخامين الذين الصقوا به زوراً هذه الوشاية . وقد امتاز هذا الكتاب بقوة البيان والبلاغة ، فأدى نشره الى احياء روح الشجاعة في يهود المغرب الاقصى

كادت الاضطهادات ان تودي بحياة موسى بن ميمون . فأخذت الاسرة تبحث عن موطن جديد . ذهبت اولاً الى فلسطين . فما كاد يستقر بها المقام حتى شدت رحالها الى القسطنطينية ، اذ لم تستطع الحياة في بلاد خربتها الحرب القائمة بين العرب والصليبيين

قضى موسى بن ميمون المدة الباقية من حياته في مصر . وكما لاقى من الصعاب في اوليات سني نزوحه اليها . فقد توالى عليه مصابان كاد ينوء تحت حملهما . مات اخوه الاكبر داود غريقاً في المحيط الهندي ، اثناء سفره في مهمة خاصة بتجارة الاحجار الكريمة التي كان يزاولها ، ولم يمض زمن طويل حتى لحق الاب بابنه . وقد ظل موسى مريضاً سنة كاملة من جراء احزانه

عاد شيئاً فشيئاً الى الاهتمام بشؤون الحياة . فانكب على دراسة الطب . وما كاد يتمها حتى شرع في مزاوله مهنته ، معتمداً على علوم العرب وعلمه ذكائه ومواهبه في تطبيقها وتعليمها . لم ينقطع

موسى عن التطبيب ، بل ظل يقوم به ، أولاً بين اليهود ، ثم احرز شهرة بين غيرهم من ابناء مصر ، حتى ذاع صيته فبلغ السلطان صلاح الدين بن ايوب . وقد دلت الاسانيد التاريخية على ان موسى بن ميمون كان طبيباً يشار اليه بالبنان . لكن هناك باعثاً آخر حمله على مزاوله الطب . وهو انه كان زعيماً دينياً ثم اصبح رئيساً للطائفة الاسرائيلية بمصر . ولما كان يستهجن اتخاذ الواجبات الدينية وسيلة للكسب ، رأى اتخاذ التطبيب مورداً لرزقه

كان موسى بن ميمون في حياته الخاصة ، متواضعاً ، مجتهداً ، متفانياً في خدمة الانسانية . ويستدل على ذلك من الكتاب الذي ارسله الى احد تلاميذه في سنة ١١٩٩ اي خمس سنين قبل وفاته حيث وصف عمله اليومي كما يلي : « ان واجباتي نحو السلطان ثقيلة جداً . ذلك لانني مضطر الى زيارته يومياً ، في الصباح المبكر ، فاذا مرض هو ، او احد اولاده ، او احدى سيدات الحرم ، لازمت القاهرة ، وبقيت الشطر الاكبر من النهار في السراي . وكثيراً ما يمرض واحد او اثنان من رجال الديوان ، فاظل بجانبهما حتى يبرآ »

« والقاعدة العامة هي ان اذهب الى القاهرة في ساعة مبكرة من النهار ، وحتى في حالة عدم حدوث شيء غير عادي ، لا اعود الى القسطنطينية ، الا ساعة العصر ، وانا اكاد اموت جوعاً . هناك اجد في حجرة الانتظار ، فوجاً من الناس ، يهوداً وغيرهم ، اشرفاً وعامة ، قضاة وحجاباً ، اصدقاء واعداً ، كلهم ينتظرون ساعة اياي »

« اقفز من مطيتي ، واغسل يدي ، ثم اذهب الى مرضاي ، وارجوهم ان ينتظروني حتى احتسي شيئاً من المرطبات ، وهو الطعام الوحيد الذي اتناوله خلال الاربع وعشرين ساعة . ثم اعود الى مرضاي واكتب لهم تذاكر الدواء ، والتعليمات الخاصة بالطعام . والمرضى يذهبون ويفدون الى ساعة الغروب ، بل اؤكد لك انهم يستمرون وافدين الى ما بعد الغروب بساعتين او اكثر . اتحدث معهم واصف لهم الدواء وانا مضطجع من شدة التعب ، واذا ماجاء الليل ، امسيت منهوك القوى ، لا اكاد استطيع الكلام »

وكان لا يلتقي بافراد الطائفة الاسرائيلية الا في يوم السبت ، حيث كان يقضيه في التعليم الديني ، والدرس ، والعبادة ، والصلاة . فكيف استطاع ان يحرر رسائله العديدة ، حتى أخريات ايام حياته ، دون الالتجاء الى كاتب سر ؟ . ثم كيف وجد وقتاً لانهجاز مؤلفاته الفلسفية العديدة ؟ حقاً انها لمعجزة ! قضى حياته عاملاً مجتهداً مجتهداً . وانتقل الى الرفيق الاعلى في ١٣ ديسمبر سنة ١٢٠٤ اي قبيل بلوغه السبعين

ليس من الميسور استعراض جميع نواحي حياة موسى بن ميمون ، فهي عديدة متشعبة . لقد استطاع وحده ، دون مساعدة اي انسان ، ان ينهض بثقافة اليهود وايمانهم . وكانت الخدمات التي اداها الى السلطان صلاح الدين ، بمثابة خدمات لشعبه ، اذ ضمن لليهود السلامة والامن ، في

البلاد الشاسعة التي امتد عليها سلطان صلاح الدين. والواقع ان اليهود تمتعوا بعد فتح صلاح الدين لمدينة القدس في سنة ١١٨٧ ، بحرية أوسع من تلك التي نالوها تحت حكم الصليبيين . اما الخدمات التي قام بها موسى نحو الانسانية فانها أجل شأنًا . كان يعتقد ان هناك ثقافة عالمية تستطيع استخراج المبادئ الطيبة من جميع الاديان والحضارات . وقد بذل جهده في محاربة التعصب أيًا كان مظهره . وفي المجادلات التي جرت اليها رغم ارادته ، اتخذ موقفًا مملوءًا بالتعقل وانكار الشخصيات ، بل طالما تجنب ذكر خصومه باسمائهم

فلما وقع الشقاق بين يوسف بن عفنين — احد تلاميذ موسى المخلصين — وصمويل بن علي ، رئيس المدرسة اليهودية ببغداد ، كتب موسى الى تلميذه ، يحذره من الوقوع في الجدل الشديد ، حيث قال له : « علم ولا تسب ، تذكر انك أسأت الى هذا الرجل ، وانك آذيت في اسباب معيشته . فكيف يمكن أن يتحمل المرء هذه الاساءة دون ان يشكو ؟ تذكر انه شيخ مسن ، وانه يشغل مقامًا محترمًا ، وانك لا تزال شابًا فيجدر بك ان تحترمه لمقامه وسنه »

ومما قاله موسى بن ميمون في « درجات الاحسان الثمان » ما يأتي : « ان ارفع درجات الاحسان ، وأحسنها جزاء هي السبق في الاحسان ، بمنع الفقر قبل وقوعه »

ليس من السهل الايجاز في تحليل فلسفة موسى بن ميمون . فهي لا تقل تشعبًا عن فلسفة افلاطون ، وارسطو ، وكانت ، وهيكل . ولا تزال ثلاثة من درر تصانيفه باقية الى يومنا هذا . نذكر منها اولًا تفسيره لكتاب « المشناه » الذي بدأه ولم يتجاوز الثالثة والعشرين وانتهى من وضعه بعد عشر سنوات . و « المشناه » هي مجموعة الشرائع والسنن والتقاليد الدينية الاسرائيلية التي تناقلتها الاجيال ، عن طريق الحديث ، من وقت موسى الكليم ، ثم اضيفت اليها اقوال الحكماء ، المتناقلة عن طريق تلاميذهم وتلاميذ تلاميذهم . وقد استعرض موسى بن ميمون في تفسيره ، جميع انحاء الثقافة اليهودية . ومما قاله الدكتور مونز (Munz) واضع تاريخ حياة موسى ابن ميمون ، ان كتاب تفسير « المشناه » ليس عمل رجل يهودي فحسب بل هو عمل احد العلماء العالمين . لانه استطاع ان يستند في ابحاثه الى نصوص علمية عدا نصوص التوراة . وقد لخص النقاط الاولية لمبادئه في ١٣ مادة دعاها « اقوال التوراة » ولا يزال اليهود الى يومنا هذا يكررونها في الصلاة ويترنمون بها ترنمًا رائعًا

وبعد اتمام كتاب « مشني تورا » ، شرع موسى بن ميمون في تبويب الشريعة الاسرائيلية وسننها وتقاليدها فانهى منها في سنة ١١٨٠ بعد جهد دام عشر سنوات . وقد ظهر مؤلفه هذا في ١٤ جزءًا تشمل الف فصل . ويعد هذا الكتاب بمثابة المرآة التي تنعكس على صفحتها الصافية تفسيراته المنطقية وآراؤه الحليمة

لكن موسى بن ميمون لم يدرك الغرض الذي كان يرمي اليه من هذا المصنف الاخير ، وهو

جعل الشريعة الاسرائيلية واضحة جليلة ، في تناول كل انسان . ذلك لان الشروح والتفسيرات التي شملها كتاب « مشني تورا » لم يستطع فهمها الا المتبحرون في العلوم الدينية . ومع ذلك فقد اصبح بحثه ، في ما تلا من الايام ، اساساً للتطور الديني

واخيراً كتب موسى بن ميمون « دلالة الحائرين » وهو بحث لم يقصر فيه المؤلف جهده على الفلسفة الاسرائيلية فحسب ، بل تجاوزها الى دراسة اسس الفلسفة العالمية . وقد بذل موسى قصارى جهده في سبيل التوفيق بين العلم والدين ، بين العقل والنقل . ونستطيع القول بأن موسى ابن ميمون قد نجح في تصوير الخالق عز وجل ، في صورة روحية ، ليس فيها شيء من المادة او الشكل ، في صورة القوة الكاملة التي لا يحدها حد ، والقادرة على كل شيء

ان تصوير الخالق عز وجل بهذه الصورة ، يوافق كل الموافقة العقيدة اليهودية ، من دون ان يتعارض مع التفكير العلمي . فقد قال موسى بن ميمون في وصف الله : اذا حاولنا مشاهدة عظمته اصيب نظرننا بنور ساطع يفقدنا قوة البصر ، واذا عمدنا الى تقدير قوته ، اصبح علمنا جهلاً ، واذا اجتهدنا في وصف حبه للانسانية ، تلعم لساننا كلسان الاطفال »

اذا كانت تلك هي صفات الله ، فكيف يظل الشر موجوداً على وجه الارض ؟ وقد اجاب ابن ميمون على هذا السؤال قائلاً ان الشر ليس بالشيء القائم بذاته ، بل هو حالة عدم وجود الخير . وقد ذهب موسى الى مدى ابعد ، اذ اعتبر ان امراض النوع الانساني واحزانه ، ناتجة من الطبيعة ذاتها ، وان حالة النزع والموت هما الثمن الذي يدفعه المرء نظير تمتعه بالحياة ولولاها لاصبحت الحياة امراً مستحيلاً

عمد موسى بن ميمون الى طرق التدليل اليونانية تارة ، والى المنطق الشائع في العصور الوسطى تارة ، حتى وصل الى اليقين والاستقرار . وقد بداله الانسان مخلوقاً واهياً وعنصرأ هاماً في آن واحد . اذ مع صغر شأن المرء في الكون ، تراه هو وحده ، دون سواه ، فاهماً لاسرار الكون ملماً بوحده . وهي النظرية الفلسفية القائمة حتى الآن

ان اثر موسى بن ميمون في الفلاسفة المسيحيين ثابت لا ينكر . فقد اخذ عنه كثيرون منهم امثال اسكندر اوف هيلس ، والبرت ماجنوس ، ودون سكوتوس ، وآ كويناس . بل لقد كان اثر موسى بن ميمون عظيماً جداً في الفلسفة الحديثة ، بواسطة المفكر اليهودي سبينوزا . وهكذا اشترك في تكوين اجيال فلسفية جديدة ، لا تمت الى دينه بأية صلة

فلا غرو اذا احتفلت جميع الشعوب والاجناس بالذكرى المئوية الثامنة لمولده . ومن دواعي السرور حقاً ان تشترك الحكومة الاسبانية رسمياً في المهرجان الوطني الذي سيقام لاهياء ذكره بمدينة قرطبة ، مسقط رأسه . ففي الوقت الذي طوى النسيان اعمال محكم التفتيش ما زال اسم موسى بن ميمون حيّاً في الاذهان

عيد بنك مصر

وخدماته الاقتصادية والاجتماعية

[احتفل بنك مصر في الاسبوع الثاني من شهر مايو الماضي بانقضاء خمسة عشر عاماً على تأسيسه ، فكان الاحتفال عيداً قومياً عاماً اشتركت فيه جميع طبقات الامة ، حكاماً ومحكومين ، رجالاً ونساء ، كباراً وصغاراً ، وطنيين واجانب على السواء . وفي الجانب الاول من هذا المقال وصف للرسالة الروحية التي تمثلها حياة قطب من اقطاب العمل مثل طلعت باشا وصحبه الكرام . وبلى ذلك مقتطفات من خطبة طلعت باشا النفيسة المسهبة تبين تدرج ارتقاء البنك من الناحية المالية ، وتصف الخدمات الاجتماعية الجليلة التي اداها للامة المصرية الكريمة في غمار نهضتها الحديثة]

— ١ —

اتخلق الظروف الرجال او تخلق الرجال الظروف او ينتهز الذين يؤتون مقام الزعامة والقيادة والسير في طلائع الجماعات ما يسنح لهم من فرص وما تهيبه الحوادث من شعور فيقدمون على اعمالهم ومشروعاتهم ويحققون ما يجول في خواطرهم وهم يرون الى المستقبل بعين الرجاء المبني على صحة القصد وصدق العزيمة

وقد تتعذر الاجابة عن هذه الاسئلة الثلاثة بالضبط الذي يتوق اليه المعجبون بالملفاحين والابطال وقد لا يكون الجواب — اذا تيسر — واحداً في جميع الحالات غير ان المحقق هو ان من آيات عناية الله بخلقه ان ينفحهم في ثنايا الزمان برجال — ونساء — يجدون لذة الدنيا وهناءة العمر في ارتياد مجاهل الحياة لخدمة المجموع — هؤلاء هم بناء الحضارة ومرشدو الشعوب وارباب الزعامة في ما ينفع الانسان من مدنية وثقافة وهناءة ويسر مادي وما كان الله ليحرم كنفاته في ارضه مما حبا به سواها فقد تجملت نهضة مصر الحديثة بظهور رجال ابوا القعود في غير مرفق واحد من مرافقها وتمردوا على المذاهب التي علقوا بالاذهان ورسخت في النفوس فتوسلوا بما يتوسل به كل بصير صبور وتم لهم الفوز وقيض لبلادهم الربح والظفر ولقد كان شهر مايو من الشهور المذكورة في اعوام هذه النهضة لما بدا من شعور امة بأسرها وقد اتيج لها اظهاره فكان اغتباطها هذا واشتراك جميع طبقات الامة اسطع دليل على ان الذين اسسوا بنك مصر والذين اعدوا مشروعه وبنوا الامل بل اليقين بنجاحه وحققوا الامل وأبدوا اليقين اصابوا من هذه الامة الكريمة اقصى ما تصبو اليه نفس المواطن ونالوا عطفها وقدرها وشكرها وهو اعظم جزاء يحفل به عظيم النفس وكبير القواد

ان طلعت حرب وبنك مصر ليسا شخصاً ومؤسسة بل هما عنوان ورمز - الاول على الرجولية الكاملة ووقف الحياة والقوى على الخدمة العامة. والثاني الى ما تتمناه هذه الامة وما هي بالغته باذن الله وبصدق خدمة ابنائها الممتازين واقطابها المختارين وتعاونهم على ما فيه خيرها وصلاحها ولطالما ودنا لو ان طلعت حرب باشا يكتب مذكراته ولا سيما ما يختص منها بمشروع البنك وكيف خطر له وكيف كيفه واعده وما لقي من تشجيع وتنشيط وما قابل من معارضة وتبسيط همة وان يذيع ما استطاع اذاعته من ذلك الآن ليكون منه بيان للناس وقدوة ومثال للشبيبة المتعلمة ولا سيما التي لا تعرف كيف تهتدي الى طريق العمل لنفع الشبان والخدمة وطنهم فان في هذا السفر المكتوم حتى اليوم عبراً ودروساً قد تداع وقد تظل مكتومة الا عن الذين عاصروها واطلعوا عليها لاسباب شتى

ولكن الآية الكبرى ستظل ماثلة للعيون والاذهان في استمرار هذا العامل العظيم واخوانه الذين يضارعونه في شوقهم للخدمة العامة واجتهادهم ونشاطهم واخلاصهم ونزاهتهم - واستمراره واستمرارهم في العمل المنتج وابتكار المشروعات التي تغتبط بها الامة والبلاد وتعزير ما أسس وتحسينه

ان عمر بنك مصر الآن ستة عشر عاماً من عمره الطويل المبارك ولكن متانة مقامه في النفوس وعمره الادبي اذا صحَّ هذا التعبير لا يقلان عن اهرام الجيزة العظيمة مع مراعاة الفرق في ما يحني من النفع من مؤسسة المدافن الملكية ومؤسسة الحياة الشعبية ولم يترك الشعراء والخطباء والصحافيون والكتاب ما يقال سوى مشاركتهم في ترديد الحمد على هذه النعمة التي اسبغتها العناية على مصر والدعاء باستمرار نجاح هذه الجماعة الكريمة المختارة

ولكن المقتطف اقتراحاً يعرضه على المفكرين والمعجبين - فقد اقترحوا نصب تماثيل وتسمية شوارع وكلا الاقتراحين جميل وجدير بأن يوضع موضع التنفيذ فلماذا لا يعزَّزان بعمل ثالث قد يكون اهم في دلالاته على المعنى المنشود والقصد المقصود وذلك بأن يصاغ كتاب تهنئة وشكر ودعاء لطلعت حرب باشا واخوانه ويكتب بأجمل خط على رق غزال ثم يطبع منه الوف من النسخ على ورق متين وفي كل ورقة مكان لمائة امضاء وتعرض هذه الاوراق بصيغة كتاب التهنئة ليضيها الذين يقدررون بنك مصر ورجاله واعماله قدرها وقدرهم ثم تجمع هذه الاوراق في مجلدات وتهدي الى بنك مصر ويوضع الكتاب الاصيل في اطار شرقي نفيس ويقدم الكل هدية وتذكراً الى طلعت حرب باشا واخوانه تنوياً بفضلهم ودليلاً على اعتراف امة بأسرها بجميل خدمتهم

— ٢ —

انشاء البنك وبرنامجه

في اليوم السابع من شهر مايو سنة ١٩٢٠ — بشر الناس بميلاد بنك مصر واضيف الى تاريخ النهضة المصرية صفحة جديدة لتسجيل هذا الحادث التاريخي السعيد . وان خمسة عشر عاماً ، تمر تباعاً على بنك صميم في مصريته ، لم يآلف المصريون مثله من قبل ، ليس بالقليل . بل ان مرور هذا الزمن على عمل ما دليل حي على قوة هذا العمل ومتانته ، وبرهان ساطع على ثباته وحيويته بل وضرورته وبنك مصر الذي الشئ للمصريين جميعاً ولخدمة المصريين جميعاً قد برهن طوال حياته على انه عمل نافع ثابت الدائم متين الاساس وبرهن ايضاً على انه قوة مصرية كانت كامنة في القلوب والخواطر فظهرتها الامة بالعزيمة والثبات وانكار الذات

وبرهن كذلك على انه ضرورة لم يكن من وجودها بد لاشباع حاجة كانت تحس بها الامة ولم يكن عنها محيد لتصوير الناحية الاقتصادية ، بعد ان ظلت صدرأ من الزمان طائلة عن التصوير والبيان كان تأسيس بنك مصر سنة ١٩٢٠ مفاجأة ادهشت الجميع . واقبل بعضهم على بعض — من فرط ما دهشوا — يتساءلون عن مستقبل هذا المشروع ، وعن كفاية الذين يتولون اموره ، ويهيمنون على شؤونه ، وهل من المستطاع استعمال لغة البلاد في اعماله ، او هل يجد حاجته من ابناء الامة الذين يستطيعون ان يحملوا اعباءه بسهولة ، وما مدى تأثيره في الناحية الاقتصادية المصرية ، وما مبلغ حظه من التوفيق في انشاء فروع في الداخل والخارج واتصاله بامثاله هنا وهناك

وتلهف الناس في كثير من الاهتمام على ما عسى ان يكون الرد على امثال هذه الاسئلة فما كان جواب البنك الا ان قال : — « هاؤم اقرأوا كتابيه . ثم احكموا بالعدل والقسطاس المستقيم ... » ونحن اذ نتحدث بنعمة الله علينا ، لا نرى ابلغ في التدليل على توفيق الله الا ان نعرض ما كان المؤسسون قد ارتضوه واقروه برنامجاً للبنك منذ سنة ١٩٢٠

جاء في برنامج البنك « انه يعمل كل ما يعمل به بنك تجاري مثله لا فرق فيمن يعامله بين ان يكون مصرياً او غير مصري فالمصرية لم تشترط الا في رأس المال ، اما فيما عدا ذلك فابوابه مفتوحة لكل عميل »

« وان في البلاد اموالاً كثيرة مخزونة ومعطلة وظيفتها في الاصل التداول بين الناس ولها في كل حركة بركة ، وفي كل دورة ربح لرابح . ففي خزنها وقوف هذه الحركة وضياع لهذا الربح والفائدة التي تعود على البلاد من زيادة ارباح بنيتها فضلاً عن تعرض هذا المال للضياع بالسرقة او الحريق او ما اشبه . وفي البلاد ودائع وامانات كثيرة مضمرة معظمها في بلاد غير البلاد . ولو ثمرت هذه وتلك في الشؤون المصرية وسوعدت بهما التجارة والصناعة والزراعة المصرية لزادت الثروة المصرية



صاحب السعادة طلعت باشا حرب
مستعمارة من مطبعة بنك مصر

اضعافاً مضاعفة ولكن ذلك عاملاً قوياً على اصلاح حالتنا الاقتصادية وایجاد الكفاءة المالية التي هي الاساس المتين للرقى المطلوب »

وان البنك « سيشجع المشروعات الاقتصادية المختلفة التي تعود عليه وعلى البلاد بالربح العظيم ويساعد على ايجاد الشركات المالية والتجارية والصناعية والزراعية وشركات النقل بالبر والبحر وشركات التأمين بانواعها ويتعهد بها حتى تنمو وتقوى ويستند ساعدها . وبالجملة يعمل على ان يكون لمصر صوت مسموع في شؤونها المالية ويدافع عن مصالحها كما تدافع البنوك عن مصالح بلادها »

« وسيؤدي بنك مصر لجميع عملائه كل الخدمات المالية . وسيعمل بالاتحاد مع حضرات التجار على تنظيم الحالة التجارية وانشاء الغرف التجارية والنقابات والشركات التعاونية وغيرها للدفاع عن مصالح اعضائها ودرس انجع الطرق لترقية شؤنهم »

« وسيعمل على بث روح العمل والتعاون والتضامن والنظام في الشبيبة واثراء ملكة الاقتصاد والتجارة فيهم والحث على وضع اساس التربية الاقتصادية العملية في البلاد وجعل تعليم الحساب والنظام الحسابي اساساً في مناهج التعليم فيها »

هذه خلاصة برنامج البنك : فهل قام بنك مصر بجميع ما وعد به في مدى الخمسة عشر عاماً الماضية ؟ اننا نترك لعملاء البنك الجواب عن ذلك . ونظن انه لا يخرج عن ان بنك مصر قد ابلغ الرسالة وقام بواجبه خير قيام بقدر ما استطاع . وهذه تقارير البنك السنوية التي احاطت بكل الارقام والاحصاءات الدالة على مدى تقدم البنك ومبلغ ما قام به من خدمات للزراعة والصناعة والتجارة والتعاون . ومن هذه التقارير يتضح لكم ان بنك مصر أصبح يحتل المكان الاول بين البنوك التي ترد باسمها الاقطان في الاسكندرية . كما أصبح الاول — بعد البنك الاهلي المصري — بالنسبة لمقدار الودائع والامانات

رأس المال والودائع

بدأ بنك مصر صغيراً ، كما يبدأ كل شيء . فقام في عام ١٩٢٠ برأس مال متواضع قدره ثمانون ألف جنيه . ثم سجلنا مغتربين ، في ٢٦ يناير سنة ١٩٢٥ وصول رأس المال الى نصف مليون جنيه . كما سجلنا مغتربين ايضاً ، في ٢٦ ديسمبر سنة ١٩٢٧ بلوغه المليون الكامل

وقد بلغ عدد المساهمين في البنك ٩٣٥٦ مساهماً في ٣١ ديسمبر ١٩٣٤ بعد ان كان ١٢٦ مساهماً في السنة الاولى . وبلغت قيمة الارباح التي وزعت على المساهمين مدى الخمسة عشر عاماً ٨١٤٩١٦ جنيه أخص السهم الواحد منها منذ سنة ١٩٢٠ بمبلغ ٤ جنيهات و ٤٣٠ مليماً اي بنسبة ١١٠٪ من قيمة السهم الاسمية وهي اربعة جنيهات

هذا عدا احتياطات البنك المقتطعة من ارباحه وقد بلغت في ٣١ ديسمبر ١٩٣٤ كما يأتي : —

جنيه مصري

احتياطي قانوني	٣٧٥ ٧٣٢
احتياطي فوق العادة	١٨٠ ٠٠٠
المال المخصص لتأسيس وانماء الشركات الصناعية والتجارية	٢٣٥ ٠٠٠

٧٩٠ ٧٣٢ خلاف مبلغ ٥٠٦٣٢ قيمة المجموع المرحل من الارباح للسنوات المقبلة
واذا اردنا تقدير رأس مال البنك على حقيقته ، وجب ألا نفعل شهرة البنك في مصر وغيرها
ومقدار تأثيره في المحيط المصري المالي . وقيمة كلمته المسموعة في كل مكان . وعظم الثقة التي منحها
له الامة ، حكومة وشعباً . وكذلك رضا الجميع عن اعماله وجهوده المختلفة — فان كل هذا له قيمته
وله تأثيره ، وله وزنه ، عند ضبط رأس مال البنك على وجهه الصحيح

واذاً فلا يصح ان نعتبر رأس المال مليوناً واحداً من الجنيهات وهو في الحقيقة اضعاف مضاعفة
انه يربي في غير مبالغة على عشرات الملايين ... !

أما الودائع فقد كان امرها ملحوظاً بعناية عند انشاء البنك ، وكان الاكثار منها هو اعتمادنا
في تحقيق ما نصبو اليه من اصلاح اقتصادي شامل . ونحن نحمد الله على ان الودائع قد أنهالت على
البنك من جانب الافراد ، ثم من جانب الحكومة لحسابها ولحساب مجالس المديرية والمجالس البلدية
والمحلية والحسبية ولحساب السلف الصناعية والجمعيات التعاونية والزراعية

وبعد ان كانت هذه الودائع في نهاية سنة ١٩٢٠ مبلغ ٢٠٠ر٩٦٠ جنيهاً اطردت الزيادة سنة
بعد اخرى حتى بلغت عام ١٩٢٧ اكثر من خمسة ملايين ونصف مليون من الجنيهات في نفس
الوقت الذي بلغ فيه رأس المال مليوناً واحداً من الجنيهات . واستمرت الودائع تزداد وتزداد وهي تحمل
معها ثقة اصحابها من الافراد والهيئات ، بادارة البنك والنظمته وانتاجه ، حتى لقد بلغت في نهاية
عام ١٩٣٤ اكثر من ١٠ ملايين جنيه عدا ودائع صندوق التوفير التي بلغت في نهاية السنة
المذكورة مبلغ ٨١٠ر٠٠٠ جنيه . وهذه الارقام مظهر لهذه الثقة الغالية

قلنا ان بنك مصر بدأ صغيراً كما يبدأ كل شيء ، ولكنه ما زال يتدرج في النمو والاتساع
رويداً رويداً وانتشرت فروعه في الاقاليم حتى زاد عددها على العشرين فرعاً ومكتباً وحتى امتلك
داره الحالية ودوراً وشوناً اخرى في الاسكندرية والاقاليم

كان البنك ، اول نشأته ، قد استأجر داره الاولى بشارع الشيخ ابي السباع ، ومازلنا نوسعها
تبعاً لزحام الاعمال وازدياد الموظفين باستئجار بعض المحال المجاورة حتى رأينا ألا بد من تهيئة مكان
آخر يكون اوسع وأرحب ، فاشترينا قطعة ارض بشارع عماد الدين مساحتها ١٥٣٧ متراً مربعاً وبنيينا
فوقها داراً لاعمال البنك وبعض الشركات ، مؤلفة من ست طبقات انتقلنا اليها في ٥ يونيه سنة
١٩٢٧ بعد ان احتوت الدار الاولى طفولة البنك سبعة اعوام سويّاً

ثم لاحظنا ان اتساع الاعمال يسبق بل يفوق ما يتوقعه الظن ويطوف بالخيال فرأينا ان نأخذ عدتنا ونحتاط لحاجة الحاضر القريب والمستقبل البعيد فتعاقدنا مع وزارة الاوقاف علي استبدال الارض الواقعة خلف عمارة البنك والبالغة مساحتها ٢٦٤٨ متراً مربعاً ، وشرعنا فعلاً ، ولم نزل ماضين ، في تنفيذ الضروري من التصميم الموضوع لتوسيع الدار توسيعاً ، يجعل مساحة الدار كلها حول فدان تقريباً ويدل على بركة العمل الصالح بلا جدال

مهمة بنك مصر

تختلف اعمال المصارف باختلاف وجهات النظر عند مؤسسيها والقائمين بها فهناك بنوك اصدار البنكنوت . وبنوك الخصم والايداع . وبنوك الاعمال . والبنوك الزراعية . والبنوك الصناعية . والبنوك العقارية . فلكل عمل من الاعمال المالية الكبرى بنك خاص يقوم به او بتشجيعه او بالاشراف عليه

والتخصص في الاعمال لدى البنوك يأتي عادة بعد ان تقارق الامة حالة البداءة الاولى . لانه في البداءة ، لا توجد اعمال ، من كل وجهة ، تسكني للتخصص . فكان بنك واحد يقوم بجميع الاعمال . حتى اذا ارتقت نواحي الحياة في الامة ونضج شعورها بكل ما يهمها ، وتحقق لها فعلاً كل مشروعاتها المالية والزراعية والصناعية والتجارية ، واتسعت دوائرها ، وتشعبت اطرافها — جاء دور تقسيم الاعمال على البنوك — التي تكون حينئذ قد كثرت وانتشرت — كل والعمل الذي ينفق مع الغرض الذي اسس له

وهناك بعض دول في اوربا تفكر الآن فقط ، بنوكها الوطنية في تقسيم الاعمال عليها وانتم تعرفون ما هي دول اوربا من حيث رسوخ القدم في الصناعة والتجارة ومصر كانت ولا تزال في حالة بدائية ، غشاها ما غشى من ليل الظروف والحزن ، وظلمات الجود والركود ، فظلت واقفة في اول الشوط ، معصوبة العين ، لا تدري اي طريق تسلك مع السالكين ، حتى سبقها السابقون ، وتركوها وحيدة في ذيل المتأخرين

ولقد هال « بنك مصر » بلا شك يوم بدأ حملته ، ألا يجد — في الارض أو في السماء ، وفي البر أو البحر — أثراً لعمل مصري صميم ، الأ النادر ، يدرأ عن الامة سخريه الساخرين . .

وكيف كان ميسوراً أن يجد ذلك وبلاغ كل عمل رجال ورؤوس أموال ... ؟
أما الرجال — رجال الاعمال — فان التعليم العام ظل بعيداً للأسف عن تخريج أمثالهم الا من وهبهم الله الاستعداد الفطري لذلك . واولئك قليل !

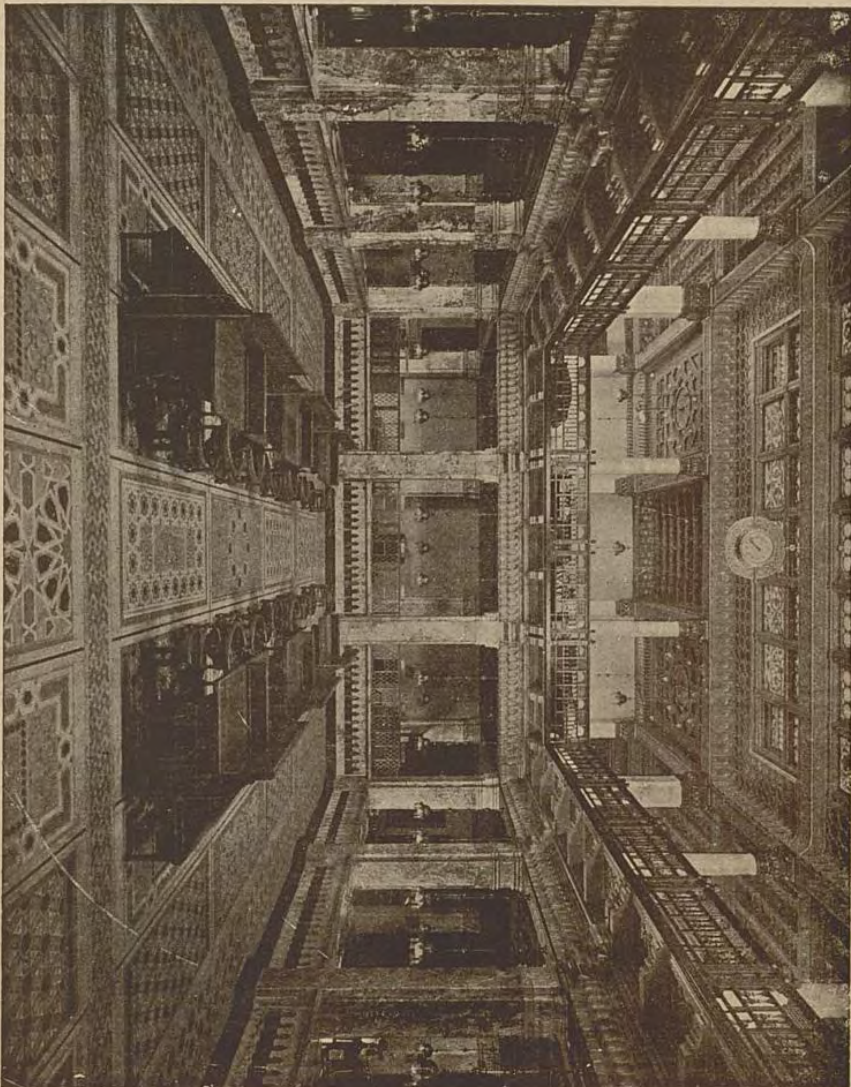
وأما المال ، فان أغنياءنا ايضاً ظلوا منكشيين عن المجازفة بأموالهم فيما بهم البلاد كذلك ظل أبناءنا محرومين من المراتبة على أعمال البيوت المالية والشركات المختلفة الاجنبية ، بالرغم من كرم الضيافة التي سارت عليها بلادنا بكل سذاجة منذ عهد طويل

فكان لزاماً على بنك مصر أن يظهر في الميدان ، وأن يبذل هذا الظلام الذي اكتنف الأمة وأحاط بمرافقها من كل ناحية ، وأن يعمل أولاً على أن يستحوذ على « الثقة » وهي ملاك كل أمر تمتنع ولا تمتص ، وأن يجذب إليه فريقاً من شباب البلد يربي فيهم الكفاية الشخصية وملكة القدرة على القيام بأعماله الجديدة باللغة العربية التي كانوا يحسبونها عقبة في سبيل البنك — حتى إذا لم أن يقف وحده على قدميه أخذ في تحقيق مهمته الكبرى أو بالأحرى في تنفيذ برنامج القومى — وقد سبق تلخيصه — وهو يتكئ أولاً وأخيراً على أن يقوم بكل شيء وان يفعل للامة كل شيء وأن يسد ما استطاع النقص الظاهر في مرافق البلاد الاقتصادية المختلفة وأن ينير الطريق ويفسح السبيل لآخوانه في الوطنية وان يحمل الأمة على جناح السرعة لكي ينهض بها وان يخطو وإياها خطوات واسعة ليعوض عليها ما فاتها من الزمن سدى .. وهو اليوم يفخر بأنه انتهى من عامه الخامس عشر وبه من الشبان المصريين المتدربين ٦١٦ شاباً بعد أن بدأ في مستهل أعماله بعشرين فقط نعم لم رضى أن يكون بنك مصر مجرد بنك كالبنوك الاجنبية الكثيرة في البلد وهي بنوك تستوحى في الغالب سياستها من أمهاتها في الخارج . وقد رأى بنك مصر العبء الذي تركته هذه البنوك فادحاً وثقيلاً ولكنه لم يتردد في أن يحمله فحمله وحده بشجاعة وأمانة معتمداً على الله وسرعان ما لاحت للبنك تباشير النجاح وصادفه التوفيق وطالعه الحظ الحسن فثبتت الله اقدامه وعبد الطريق امامه والتفت لحاجات الامة يصورها في صور شركات مساهمة مصرية واحدة أو اخرى مستقلة عنه في رأس المال وفي الادارة تحمل جميعاً اسم « مصر » برأ بوعده ووفاء بعهده

شركات البنك

ولم يكن للبنك مفرد من « الاسراع » في تأسيس المشروعات الهامة الضرورية لاسباب وعصرنا الحاضر عصر « سرعة » بكل ما يحتمل معنى هذه الكلمة وقد يكون هناك بعض الذين يخشون هذه « السرعة » التي جرى عليها البنك في تأسيس مشروعاته ولكن امثال هؤلاء لا يلبثون ان يقتنعوا بأن استمرار تطفل الامة على موائد غيرها يعرض كرامتها للتجريح الاليم

لقد كان من الخير فيما نعتقد ان نسارع الى عمل شيء من صنع ايدينا وقد وفقنا الله في ذلك فكان لنا في هذه الفترة القصيرة — فترة الخمسة عشر عاماً — ان ركز البنك — في السهل والجبل وفي الشرق والغرب وعلى الماء ومتن الهواء — علم البلاد . . . يخفق تحت الشمس باسم بنك مصر وشركات مصر بل باسم « مصر » كلها بعد ان طال احتجابه بين الظلام عهداً طويلاً ومهما يكن من شيء فان (السرعة) التي قد يأخذها على البنك بعض الناس قد آتت أكلها باذن ربها واتضح من نتائجها الكبرى ان البنك قد نجح نجاحاً لا شك فيه حتى لم يكن ان نقرر



البهو الكبير في بناء بنك مصر

باطمئنان انه لم يعيش فقط هذه الخمسة عشر عاماً التي نحتفل اليوم بمرورها، بل انه قد عاش في الحقيقة وعلى اقل تقدير خمسين سنة اذا قدرنا ما قام به من الاعمال وهذه شركات مصر ماثلة امامكم نستطيعكم ان نسرد اسماءها عليكم ، وان كانت هذه الاسماء قد أصبحت من الشهرة والذيع بحيث تجري على كل لسان ^(١) وهي :

عدد	الشركة	عدد	الشركة
١	مطبعة مصر	٨	شركة مصر لمصايد الاسماك
٢	الشركة المصرية لصناعة الورق	٩	شركة مصر للسكتان
٣	شركة مصر لحليج الاقطان	١٠	شركة مصر لاصدار الاقطان
٤	شركة مصر للنقل والملاحة	١١	شركة مصر للطيران
٥	شركة مصر للتمثيل والسينما	١٢	شركة مصر لعموم التأمينات
٦	شركة مصر للنسيج الحرير	١٣	شركة مصر للملاحة البحرية
٧	شركة مصر للغزل والنسيج	١٤	شركة مصر للسياحة

لم يكن بعيداً ، ايها السادة ، لولا بنك مصر ، ان تتخذ رؤوس اموال هذه الشركات سبيلها خارج بلادنا سرباً ، فيستفيد بها من لا يعطف على مصر ، ومن لا يتصل بها بنسب أو سبب ... ولكن هؤلاء الالوف من العمال وانصاف المتعلمين عاطلين يزيدون الخطر الاجتماعي الذي يهدد البلاد بل إننا لنزعم ان تأسيس هذه الشركات كان حقيقة — كما يقول الناس — عملاً صالحاً ، فقد كان لها جميعاً ابلغ الاثر في بث روح الادخار والتوفير في نفوس الشعب من حيث لا يشعرون ودليل ذلك انه حيثما توجد منتجات شركة من شركات مصر بجانب منتجات ماثلة اخرى — تهبط الاسعار ويحل الرخاء . ولسنا نزي منتجات شركائنا بشيء من الدعاية والترويج ، اذ يغنيانا عن ذلك كله ما حازته معروضات شركات مصر من المداليات الرفيعة الشأن في المعارض العامة ، سواء داخل القطر او في البلاد الاوربية ، اعجاباً واستحساناً وتقديراً

وبعد ، فبنك مصر وشركات مصر ليست الا معاهد للتربية الاستقلالية يكمل فيها الشباب المتعلم علومه بالعمل ، والماراة عليه ، حتى لقد تكونت منهم طائفة صالحة يمكن ان تعد ذخيرة للوطن ومن نافلة القول ان نذكر مقدار ما ساهمت به هذه المعاهد في قص اجنحة العطلة ، على قدر المستطاع ، وافتداء البلاد من شرورها الوبييلة

[المقتطف : تمشياً مع تقدم البلاد الاقتصادي سوف يعنى المقتطف بوصف هذه الشركات من الناحيتين الصناعية والاقتصادية في اعداد متواليه . ولذلك اجتزأنا من خطبة طلعت باشا بما تقدم عن شركات بنك مصر مع انه وقف نحو ثلث خطبته النفيسة عليها]

ويسرنا كثيراً أن ننوه في هذا الصدد بما قام به بعض المصريين الذين اقتحموا الميدان، وثبتوا فيه، وترسموا خطى البنك وشركاته، فأسسوا مصانع وبيوتات تجارية وشركات لعتبت بها كما لو كنا نحن انفسنا الذين اسسناها، وزجوا لها دوام المزيد والثبات والتقدم والنجاح... وكل يوم نرى جديداً في نهضتنا الصناعية والتجارية التي دب ديبها في نواحي البلاد واصبح الكل مهتماً بالمساهمة فيها. ومما يدعو للفخر ان في البلد الآن روحاً قومياً لتشجيع كل ما هو مصري حتى انقلب الحال واصبح بعض من لاخلق لهم يحتمي بالمصرية لبيع سلعه الاجنبية باعتبار انها مصرية. وقد اهتمت مصلحة التجارة والصناعة بصالح التجار فاعدت تنظيم الغرف التجارية وانشأت « السجل التجاري » لفائدة التجار وتميز انواع تجاراتهم وليكون مرجعاً محترماً يمكن الرجوع اليه بين البيوتات التجارية. ونحن نرجو من ورائه ان يكثر في مصر « التاجر » الذي يعرف قيمة الورقة التجارية والذي يحرص كل الحرص على الوفاء حرصه على الاعتبار والشرف. بل هناك اهتمام آخر بالحياة الاقتصادية فان مصلحة التجارة والصناعة التي كانت في اوائل الحرب لجنة صغيرة اوشكت ان ترتقي الى وزارة وتنتظم في عقد الوزارات المصرية

تأثيره في الحياة الاجتماعية

نعيد هنا ما سبق ان قلناه وهوان البنك لا يريد ان يحتكر القيام بالمشروعات الصناعية او غيرها ويود دائماً ان يظهر بجانبه مصريون يخففون عنه الحمل. ويضطلعون مثله بالمسؤولية وهو على استعداد لان يمد لهم يد المساعدة بكل ما يستطيع ويكفي البنك فخراً انه فتح الطريق لسكل من يريد ان يسير فيه من المصريين

كما يكفي البنك فخراً ان وجوده بين سمع المصريين وبصرهم، ساعد على تغيير بعض الافكار الشائعة فمثلاً بعد ان كانت الجمهرة من ابناء البلاد يستغلون اموالهم في ناحية واحدة من نواحي الاستغلال وهي شراء الاطيان او يودعون عفواً اموالهم في بنوك اجنبية تذهب ارباحها في جيوب الاجانب التفت الكثيرون الى ناحية اخرى فاستغلوا بعض اموالهم في مرافق بلادهم وساهموا في السندات التي رفعت من روتهم واصبحوا يتبهون بها ويفخرون. بل ومنهم الكثيرون ألقوا اقتناء سندات الدين المصري العام واوراق الشركات الاجنبية. ووجدوا في ذلك مصدراً جديداً للاراد والثروة. وزادت هذه الحركة نشاطاً بدخول المجالس الحسينية في هذا المضمار تشتر اموال عديدي الاهلية بشراء القراطيس المالية المختلفة وخاصة سندات الدين المصري العام

ولا يفوتنا في هذا المقام ان ننوه هنا بملاحظة جديرة بالذكر: وهي انه لو كان المصريون افراداً وجماعات تنبهوا فيما مضى الى حصر سندات الدين المصري كلها او معظمها بين أيديهم لكننا الآن حكومة وشعباً في غنى عن مشاكل كثيرة...!

ونعود فنذكر لكم أن خزائن حفظ الأوراق المالية بالبنك ، تضم في جدرانها من قراطيس الدين العام وأوراق الشركات والبنوك الأخرى سواء لحسابه أو لحساب عملائه من الافراد والهيئات ما يقدر بعشرات الملايين من الجنيهات . وفي هذا دليل على التقدم والتطور وليس ذلك فحسب ولكن هناك أثراً لا يخفى لبنك مصر وشركات مصر فإن كثيراً من الناس قبل انشاء بنك مصر لم يكونوا ليعرفوا طريق البنوك ولا التعامل معها بل كانت حدود التعامل بعضهم مع بعض حدوداً ضيقة لا تسمح للثقة ان تقوم بدورها المهم فكان وجود بنك مصر وشركات مصر كافياً لاجتذاب كثير من عملاء البنوك الأخرى اليه وكافياً ايضاً لتشجيع غيرهم على الخروج إلى معاملة البنوك

وفي يقيننا أنه كلما كثر عدد الطبقة التي تعامل البنوك وانتشرت هذه العادة عادة التعامل مع البنوك بين العامة والخاصة انتشرت الثقة بين الافراد وقام على الثقة ما يقوم عليها من تنظيم سبل الانتاج في كل نواحي الحياة . بل ان لبنك مصر وشركات مصر أثراً آخر . فقد دعا الناس مجرد وجود هذه المؤسسات وانتشارها في انحاء القطر الى ان ينظروا الى العمل الشريف غير النظرة التي كانوا قد تعودوا ان ينظروا بها اليه من قبل . وهي نظرة الترفع والاشمئزاز ولا سيما اذا كان العمل يدوياً او آلياً غير انيق كل الاناقة او جذاب كل الجاذبية . ولكن هذا الاعتبار العتيق وذاك المقياس المريض بدأ استبداهما والحمد لله بنظر صحيح هو نظر الرجولة الى كل عمل شريف منتج نافع وليس بعيداً ان تعم هذه العقلية الجديدة وان تعم كل شيء . كما انه ليس بعيداً ان يتأثر بها جانب حيوي كبير من الخلق المصري فترى كثيراً من شبابنا المتعلم تعليماً فنياً او عالياً يتقدم الى العمل الآلي في المصانع المصرية التي ستتشر وفقاً لحاجات البلاد فينزِع عن نفسه راضياً لباسه الانيق وزينته من الحلى ويستبدلها عن طيب خاطر برداء العمل والعمال

ان التطور الذي ستقبل عليه البلاد لا شك فيه وسيكون لنا من ورائه ان شاء الله رصيد من الاخلاق القويمة والخير الكثير والانتاج الكبير وزيد ان نشير هنا بوجه خاص الى ما كان من الاثر الفعلي في تعويد عامة المصريين خصلة الاقتصاد في الانفاق تلك الخصلة التي يعتبر نقصها ثغرة فسيحة من ثغرات التربية المصرية عامة ومهما يكن من شيء فان كل قرش يدخل في ارباح بنك مصر او شركات مصر انما يبقى في البلد لا يترحل الى الخارج فاذا تحرك ثمانية فخرته بركة للمصريين وفائدة للمصريين فضلاً عن ان هذه المؤسسات تعتقد فوق خصائصها المادية والكسبية انها مؤسسات وطنية لا يغرب عن بالها لحظة ان عليها نصيباً في اصلاح القومي المنشود

بنك مصر والاجانب

كان هم بنك مصر اولاً واخيراً ان يكون رأس ماله خالصاً للمصريين وخدمهم لكي تكون ادارته مصرية دائماً توجه سياسته لما فيه مصلحة مصر اولاً وقبل كل شيء وفيما عدا ذلك فان بابه ظل مفتوحاً للجميع فهو يخدم المصري والاجنبي سواء بسواء والبنك كما جاء في خطبة افتتاحه سنة ١٩٢٠ أنه لا يضر عداءً لاحد فهو بعيد كل البعد عن فكرة الانانية والتعصب . بل هو استعان في الواقع بخبرة الاجنبي . واشرك معه بعض الاجانب الذين يتفقون مبدأً وغاية مع مصلحة مصر ، في بعض شركاته كشركة مصر للطيران . وشركة مصر لعموم التأمينات . وشركة مصر للسياحة . وشركة مصر لاصدار الاقطان . وليس هناك عيب ، فيما نعتقد ، في الاستعانة بالاختصاصيين من الاجانب ما دام في الامكان ، دائماً وفي كل وقت ، جعل هذه الاستعانة عند حدودها من الخبرة والارشاد والخدمة الصادقة لمصر اولاً واخيراً ونحن نذكر بالفخر ان علاقاتنا مع البنوك الاخرى ومع الاجانب كانت في الداخل والخارج على ما يرام . كما كانت كذلك علاقاتنا مع مراسلينا في جميع انحاء المعمورة وكان ذلك سبباً في تشجيعنا على انشاء ما يعزز هذه العلاقات ويزيدها وثوقاً ومثانة فاشتركنا في تأسيس بنك مصر — فرنسا في باريس وبنك مصر — سوريا — لبنان في بيروت ودمشق وطرابلس وحمص ولا يخفى ان فروعنا سواء كانت في مصر او فيما وراء البحار ، انما هي كالسفير بين المصري واخيه المصري وبين المصري وغيره . وما السفير الا رسالة طيبة ودطاية حسنة لو عرف كيف يؤدي عمل السفير . وبنك مصر نفسه اصبح والحمد لله رسالة يقرأ فيها الناس معنى الصدق والحق والنقطة . حتى انه لا تؤلف لجنة ، او هيئة ، او مجلس في الحكومة وغيرها الا دعى اليها احد رجال مجلس ادارة البنك . وحتى انه لا يفكر اجنبي او مصري في مشروع مالي أو اقتصادي بمصر الا خطر له ضرورة الاحاطة برأي بنك مصر فيه ، ثم لا يلبث ان يبادر توجهاً الى عرضه عليه

البنك واللغة العربية

هذا اول بنك قومي مصري تأسس بأموال مصرية بحتة . وبادارة مصرية محضة . وقد قررنا ان تكون المراسلات فيه ، بينه وبين عملائه باللغة العربية ، وان تكون حساباته باللغة العربية فهزأ بنا الهازئون وقالوا « ان المحاسبة من واردات الغرب . وانها فن من فنونه غير قابل للانتقال الى الشرق بغير لغة من لغات الغرب » . ولكننا اهملنا استهزاءهم وأجرينا مراسلاتنا وكتبنا تقاريرنا باللغة العربية . وانا اؤكد اننا ما وجدنا صعوبة في ترجمة معنى من معاني هذا الفن او في تقريب اصطلاح من اصطلاحاته . وكان مما ساعدنا على سهولة التطبيق في العمل ان كانت قد انشئت قبيل الحرب مدرستان للتجارة تكونت فيهما طائفة من الشبان تلقوا العلم فيها باللغة العربية فسهل قيادهم في حياة البنك العملية^(١)

(١) هذه الفقرة الاخيرة مقتطفة من خطبة سابقة لطلعت باشا نشرت في مجموعة خطبه التي صدرت سنة ١٩٢٨

مفردات النبات

بين اللغة والاستعمال

لمحمود مصطفى الرمياطي

[اجتمع لي طائفة من أسماء المفردات النباتية وحررت ما يقابلها في بعض اللغات الاجنبية لترتيبها في معجم والآل عن لي أن أنشرها تباعاً في مجلة المقتطف الغراء في بيان موجز أذكر فيه المفرد ووصفه وموطنه واستعماله مشيراً الى بعض فوائده في الزراعة أو الصناعة أو التغذية أو الطب عسى أن يكون في ذلك بعض الفائدة — الدمياطي]

شجر السنط

معروف باسم (السنط) في مصر والسودان أو (الصنط) قال الصاغاني هو معرب (چند) بالهندية وقد يطلق عليه اسم (الشوكة المصرية) و (أم غيلان) و (القرظ) وطاميته (القرص) والقرظ برمة^(١) السنط أي ثمرته فاطلاق القرظ على الشجر تسمية الشيء ببعضه وشجرته كبيرة اوراقها من نوع الريشية المركبة المضاعفة في كل ورقة من ٣ — ١٢ زوجاً من الوريقات الريشية في كل واحدة من هذه من ١٠ — ٣٠ زوجاً من وريقات أصغر غير ريشية وشوكها مستقيم قد يبلغ طول الواحدة منه ٥ سنتيمترات . أما أزهارها فمكتظة في رؤس كرية صفراء . وثمارها قرون ضاربة الى البياض عليها شعيرات قصيرة ملساء وكل قرن مجزأ بأشباه فواصل تفصل الحبة عن الحبة

اسمه العلمي (Acacia Arabica, Willd.) (آكاسيا عربية) وفصيلته السنطية أو المستحجية (Mimosaceae) (ميموزاسية) وبالانجليزية (Gum Arabic Tree) وبالفرنسية (Acacia d'Arabie) ينبت في بلاد السنغال والسودان والديار المصرية والجنوب الغربي من آسيا ولاسيا في بلاد العرب والهند يؤخذ منه الصمغ العربي فيتجر به في السودان وغيره ويستعمل قرظه في الصباغة والدباغة وخشبه مرغوب فيه لصناعة الزوارق وادوات الزراعة ويصنع منه خم جيد . وأهل السودان

(١) جاء في الجزء الثاني من كتاب الفلاحة لابن العوام ان الوصف الوارد عن الثرة والزهرة يذكرنا بما نقل عن ديسقوريدس فيما يختص بزهرة السنط وثمره . والآكاسيا وبرا (acacia vera) وهي الاكاسيا (akakia) في اليونانية كما جاء في كتاب لينوس وفي رأي شبرنجل وابن البيطار هي البرم وهو زهر شجرة من نوع السنط

يستعملون الخشب في البناء أيضاً ويستخرجون اليافاً من قلف الشجرة الحديث ويستعملون القلف في الدباغة كما يستعملون مغليه في علاج مرض الديسنطاريا
ويقال إن حشرة الالك (lac-insect) تعيش على أغصان الشجر في السند وتقرز من جليدها صبغاً أحمر يصبغ به يسمى (الالك) ويحصل من القرظ قبل نضجه على عصير يسمى (أَقَاقِيَا) (١)
يستعمل في الصباغة والدباغة

شجر المسشاب

نوع من السنط معروف في السودان مشهور بصمغه ويقال له (الصباحي) أيضاً وشجرته صغيرة او متوسطة الحجم . أوراقها من نوع الريشية المركبة المضاعفة في كل ورقة من ٣ - ٥ أزواج من الوريقات الريشية في كل واحدة من هذه من ١٠ - ١٥ زوجاً من وريقات اصغر من السابقة وشوكها قصير غليظ حاد السن اسمر قائم كل ثلاث منه مجتمعة معاً ثنتان مستقيمتان وواحدة متقوسة . أما أزهارها فبيضاء مجتمعة في سنابل اسطوانية متدلية . وثمارها قرون مستقيمة رقيقة طول الواحد منها ٧ سنتيمترات تقريباً

اسمه العلمي (Acacia Verek, Guill. & Perr.) (أَقَاسِيَا وَرَك) وفصيلته السنطية أو المستحية (Mimosaceae) (ميموزاسية) وبالانجليزية (Verek gum-arabic Tree) وبالفرنسية (Gommier blanc ou acacia à gomme arabique)

وهو ذائع في بلاد سنغيبيا الى السودان وخشبه ابيض يحتمل المؤثرات ويحصل منه على اجود انواع الصمغ العربي الابيض فيتجر به ويدخل في المركبات الطبية والصناعية

شجرة البَا أَوْ بَاب (٢)

من اشجار الحبشة والجانب الغربي من افريقية ولا سيما بلاد السنغال والسودان ويسمونها فيه (التَّيْبِلْدِي) او (الْحَمِيرَا) او (الْحَمْر) (٣) وهي شجرة يمكن للانسان معرفتها من ضخامتها لا ترتفع اكثر من ٢٠ متراً ولكن جذعها يبلغ من الغلظ اكبر ما عرف بين الاشجار الى الآن فقد يكون قطره من ٨ - ١٢ متراً ويتفرع من ثلثها السفلى فروع عديدة اغلبها افقيّاً لا رأسياً فتبدو الشجرة باغصانها كأنها قبة تشغل فضاء قد يكون عظيماً . وقلفها (قشرها) أبيض برّاق . وأوراقها من نوع الاوراق المتساقطة مسننة الحافات ووضعها على الاغصان متخالف

(١) جاء في بعض المراجع ان العرب اطلقوا كلمة (أَقَاقِيَا) على العصير المذكور وعلى الشجر نفسه

(٢) ادخلت الى مصر من السودان في القرن الماضي ثم اندثرت

(٣) الحمر بوزن قر كاسم وفي القاموس الحمر كصرد النمر الهندي

والواحدة منها من ٥-٧ فصوص كالاصابع وأزهارها بيضاء كبيرة إبطية متدلّية عرض الواحدة منها من ٥-٧ سنتيمترات. وثمرتها بيضية الشكل مستطيلة طولها من ٢٠ - ٢٥ سنتيمتراً تشبه كوز اللوف الجاف وبها تجاويف ممتلئة اليافاً ولُبّاً كاللدقيق المعجون مُزّ الطعم في داخله يزور كزور التمر الهندي المعروف قيل إن الناس يحب اكل الثمرة فسمها البعض (خبز الناسانس) ويسمى في عرب السودان (القنقلوس)

اسمها العلمي (*Adansonia digitata*, L.) (ادانسونيا ديجيتاتا) نسبة الى مكتشفها (ادانسون)^(١) وفصيلتها البأ أوبائية (*Bombaceae*) (بومباسية) وبالانجليزية (*The Baobab Tree*) وبالفرنسية (*Baobab*)

واهل السودان يستعملون جذعها كصهر يجفيدخرون فيه الماء ويزودون منه قاصدي دارفور في اسفارهم وقد يستعملونه قبوراً لموتاهم ويصنعون من الياف القلف حبلاً وسلات ويتخذون من لب الثمر المُنزّ شراباً مرطباً باضافة الماء اليه او غذاء وفي بعض الكتب الطبية ان الاوراق والقلف يستعملان للتداوي من امراض متنوعة وفي رأي (ادانسون) ان هذه الشجرة قد تعمر الى ستة آلاف سنة وهي مقدسة عند الزنوج

الخرشوف^(٢)

معروف وفي الشام يسمى (أرضى شوكي) ولعل هذه التسمية من الافرنجية (*Artichaut*) والعرب يسمونه (خرشف) وفارسيته (كنسكر) نبات عشبي معمر ولكنه يزرع سنوياً يرتفع متراً الى متر وربع وساقه شحمية مخططة طولاً تتفرع من اعلاها على هيئة حزمة واوراقه عريضة جداً طولها اكثر من متر ريشية خشنة بيضاء من وجهها السفلى . ونوراتها كبيرة قد يزيد عرضها عن ٦ سنتيمترات تشتمل على أزهار زرقاء محاطة بقشور غشائية كثيرة . وزوره سنجابية عليها خطوط سوداء وتحتفظ بقوة النبات فيها من ٥-٦ سنين اسمه العلمي (*Cynara Scolymus*, L.) (سينارا اسقوليموس) وفصيلته المركبة (*Compositae*) (قومبوزيتية) وبالانجليزية (*The Artichoke*) وبالفرنسية (*Artichaut*) يزرع في جنوب اوربا وشمال افريقية وقد دخل الى مصر من بلاد اليونان في القرن الماضي

(١) هو (ميشيل ادانسون) (*Michel Adanson*) النباتي الفرنسي ولد في مدينة ايكس وطاش من (١٧٢٧ - ١٨٠٦) ميلادية وهو اول من حاول تقسيم النباتات تقسيماً طبعياً

(٢) وجاء في كتاب الفلاحة لابن العوام ان من اسمائه (القنارية) و (الطرية) و (الكجر) وبالفارسية (كنسكر) وان منه نوعين بستاني وهو المعروف في مصر بالخرشوف ويري يسمى (الخرشف) (*Carduus silvestris alter*) ومن رأيه قصر اسم (كنسكر) على النوع المسمى (قردون) (*Cynara Cardunculus*) وجاء في عمدة المحتاج للرشيدى ان اصناف الخرشف كلها تسمى بالعربية (هيشر) وقيل هو اسم للبري فقط

والذي يؤكل منه رءوسه قبل ان تشيخ ولا سيما التخت والقلب وقواعد الحراشف وهو من الخضر الغذائية المحبوبة . واوراقه اذا وضع منها في اللبن الحليب خثرت له ولذلك يستعاض بها عن الإنفحة المعروفة في صناعة الجبن

القردون (١)

نوع من الخرشوف معتبر من النباتات المعمرة ولكنه يزرع سنوياً ترتفع ساقه مترًا ونصفًا الى مترين وهي ضاربة الى البياض مخططة طولاً واوراقه ريشية كبيرة ذات ذنبيات شحمية طرية خضراء ضاربة الى السنجابية من وجهها العلوي والى البياض من وجهها السفلي . ونوراتها كبيرة طرفية مكونة من أزهار زرقاء محاطة بقشور غشائية . وبذوره طويلة متوسطة الحجم سنجابية اللون اسمه العلمي (*Cynara cardunculus*, L.) (سينارا قاردونكولوس) وفصيلته المركبة (Compositae) (قومبوزيتية) وبالانجليزية (The cardoon) وبالفرنسية (Cardon) يزرع في بلاد البحر الابيض المتوسط الى جزائر كنادية او الخالدات في المحيط الاطلنطي ودخل مصر من جزيرة كريد في القرن الماضي . وتؤكل منه الذنبيات من الاوراق وبذوره الغضة . واوراقه اذا وضع منها في اللبن الحليب خثرت له ولذلك يستعاض بها عن الإنفحة المعروفة في صناعة الجبن كما في الخرشوف

الكرفس

معروف في مصر وفي بلاد العرب و (بالكرفج) في لغة اهل غزنة من بلاد التركستان ولذا قيل إنه دخيل معرب

والكرفس نبات عشبي متفرع يعمر عامين ويرتفع الى ٦٠ سنتيمتراً أملس وجذره ليفي او درني مغزلي الشكل وساقه مجوفة عليها اخاديد في طول الساق . واوراقه شحمية على نوع ما عريضة ريشية الشكل خضراء ضاربة الى السمرة ذات ذنبيات . ونورته صيوانية تشتمل على زهرات صغيرة صفراء مخضرة . وثماره (البذور) صغيرة ذات رائحة تحتفظ بقوة النبات فيها سنين

اسمه العلمي (*Apium graveolens*, L.) (آبيوم جرافيوولنز) وفصيلته الصيوانية (Umbelliferae) (امبليفرية) وبالانجليزية (The celery) وبالفرنسية (Céleri) يزرع باوربا وشمال افريقية وشمال آسيا ووسطها وادخلت زراعته من اوربا الى مصر في القرن الماضي . والذي يؤكل منه اعناق (ذنبيات) الاوراق والقلوب . وقد تستعمل بذوره من قبيل التوابل وهي معروفة في العطارة

(١) وهذا يطابق ما جاء في بعض المراجع التركية من انه (الخرشوف الياباني) والقردون يسمى عند العرب (المكوب) كما جاء في عمدة المحتاج للرشيدي



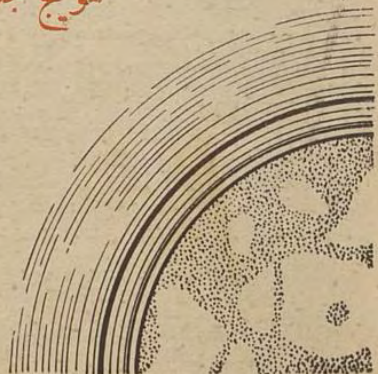
سَيَرُ الزَّمَانِ

الثورة

للدكتور عبد الرحمن شهيندر

الملك جورج الخامس
والتاج البريطاني

توزيع جورج الخامس



الثورة

للكرنور عبد الرحمن شريف

— ٣ —

الاعتراضات على الثورة

يرى أهل التبع التاريخي ان الثائر نوحان اثنان ثائر تحلى بالميزات التي تجعله فوق البيئة التي يعيش فيها وهو مع ذلك ليس منها بالمكانة التي تمكنه من العمل النافذ فيها ، وثائر تلتطخ بالمعائب والادران التي تجعله دون هذه البيئة ولكنه يطمح ان يحصل بواسطة الثورة على ما يحسبه حقاً له ضائعاً . ومن خير من استوفى هذه الاعتراضات حقها الكاتب الاميركي المعروف في العالم الاسلامي المستر (لوثر وب ستودارد) في كتابه «الثورة على المدنية» فقد سمي النوع الاول من الثوار «الرجل الاعلى» وهو في نظره فرد متفوق ممتاز بما تحلى به من الخصائص ولكنه وباللأسف مضلل مخدوع . وسمى النوع الثاني «الرجل الادنى» وهو فرد ليس فيه من بواعث الاحترام والتبجلة باعث . قال (ستودارد) فالرجل الاعلى المخدوع هو ظاهرة من الظواهر الغريبة فقد وضعت الطبيعة في مقدمة المدنية وأحلتها في المصدر منها الا انه انضم الى اعدائها ، ويلوح للقارئ ان مثل هذا الموقف الغريب لا يحتمل التعليل ولكن ذلك خطأ فالرجل الادنى من المدنية يثور عليها لانها ارفع منه كما ان الرجل الاعلى يثور عليها لانه أعلى منها ، يفعل ذلك اذا ما داخله القنوط من تقدمها البطيء وغشيتها الرعشة من اخطائها المتكررة ، ومتى ما زعم ان العوامل الباعثة في قلوب الناس على العمل هي ذات العوامل النبيلة السامية التي تحيى في صدره فان أحلامه الذهبية النبيلة الهائمة بطلب الكمال تختصر لها طريقاً قريباً تقطعه الى عصر السعادة المنشود فتندمج الى القوى الاجتماعية النائرة من غير ان تعلم ان غايات هذه القوى تختلف عن غاياتها اختلافاً جوهرياً وانها اتفقت في الذرائع بعض الاتفاق . وربما كان الرجل الاعلى المخدوع اعظم شخصية محزنة في التاريخ تثير العطف ، فاننا نراه وقد وقع في ملق الاشرار الاوغاد المبيتين واصبح أداة لتجويز الخطط المشؤومة وارتفع على الاعناق في أوائل الانقلاب باعتباره زعيماً لا يلبث أن يصل به فوز الثورة ونجاحها الى نهاية فاجعة . وهو عند ما يتولاه الذعر من رؤية التوحش عارياً يحاول ان يوقف سيله الجارف ولكنه عبثاً يحاول ، فيصل عليه الرجل الادنى مزججراً من بعد ما اتخذته درعاً يحمي بها ويلقيها في الوحل تحت قدميه ، ولكن هذا الرجل الادنى ان عاجلاً أو آجلاً يغلب على أمره فتستجد الضوابط الاخلاقية ويستقر النظام الاجتماعي مرة اخرى

ولكنه أي نوع من النظام الاجتماعي ياترى ؟ فقد يكون هذا الجديد أخط من القديم . ولا شك أنها نادرة تلك الثورات التي هي شر محض ، فطبيعتها الهدامة نفسها تنطوي على معنى ازالة المساوىء القديمة المنتشرة وجرفها للخلاص منها ، ولكن ما هو الثمن ؟ هو الثمن المقوم بالدم الغالي الذي يسفك في الثورة والتدمير والهلاك ، وليس ثمة طريقة ذات تكاليف باهظة مرعبة مثل الثورة ، فالخسائر الاجتماعية والانسانية الناشئة عنها مخيفة عادة وكثيراً ما يستحيل تداركها واصلاحها وفي الفرصة القصيرة التي تسنح للرجل الادنى لمجده يعمل عمله ويشفي غلته غير ملتفت الى العواقب مهما كانت خطيرة . أما وهو لا يكره المدنية فقط بل يكره المتمدين انفسهم ايضاً فتراه يوجه جنونه ويلقي جام غضبه على الافراد كما يليق به على الاوضاع ، ويكون الرجال الاعلون المتفوقون هدفه الخاص . وفلسفته المستولية على لبه في فهم الحياة هي بالاختصار المساواة دائماً وهو يسعى لتحقيقها بقطع جميع الرؤوس البارزة التي ترتفع عن رأسه ارتفاعاً بيناً . وقد تكون نتيجة هذا « الانتخاب الاجتماعي المعكوس » نقصاً فادحاً في الرجال المتفوقين بحيث يصاب الجنس البشري بفقر في الافراد دائم كما اصبحت اوربا عقب ديوان التفتيش الديني فيصبح عاجزاً عن تزويد المجتمع بالموهبة والنشاط الضروريين لاصلاح ما خربته يد الثورة ، وتكون المدنية قد اصبحت في مثل هذه الاحوال بالضربة القاضية فتتدنى الى أخط مما كانت عليه بصورة دائمة

هذه خلاصة رأي (لوثر وب ستودارد) ومن قال بقوله في الثورات مما ينطبق على الثورة الفرنسية اجمالاً والثورة الشيوعية خاصة ، وفيها ولا شك من الحقائق ما لا يماري فيه أحد ، غير ان هذه الثورات السياسية الاجتماعية الداخلية نوع والثورات لرفع النير الاجنبي الخارجي واناخذ البلاد من ربة الاستعمار نوع آخر . واننا ليس في وسعنا ان نتصور أحداً بالغاً ما بلغ من بيع وجدانه وايحار عقيدته يجرؤ على الخط من قدر تلك الجهود الجبارة التي يقوم بها المظلومون للخلاص من ظالمهم ، واذا صح قول (بورك) ان في كل ثورة شيئاً من الشر فلم لا يصح قولنا ياترى ان في كل ثورة شيئاً من الخير ؟

على ان انجانبنا بالثورة الوطنية واشادتنا بالبطولة القومية لا يمنعنا ان نعترف هنا ببعض عيوب للثورة اختبرناها بأنفسنا ورأينا نتائجها بألم العين وهي تحتاج الى الايضاح . فقد يندس بين الرجال العاملين افراد لا قيمة لهم في ميزان الرجولة والاخلاق يتظاهرون بالحرص على المصلحة العامة اكثر منهم وبالبدل في سبيلها اعظم من بذلهم وهم ينقصهم كل شيء من ميزات « الرجل الاعلى » الا الطموح الذي لا ينتهي بهم عند حد ، بل رأينا اسوأ من ذلك ، رأينا الخادم الرقيق العسافي في تصورات المتبدل في حركاته وسكناته ، الذي لا يكاد يؤلف جملة صحيحة التركيب والذي ينخر جسمه مرض الخسزوانية أو (المجالومانيا) ويقترح لسانه مرض البذاءة أو (الكوبرولاليا) لا يحجم ان يحشر نفسه بين العاملين من مجاهدين واعماء وحكماء وحضوره مجالسهم ، وقد يغضون الطرف عنه

خشية سفيهه وقلة أدبه ، وفاتهم أن السكوت عن السفيه هو مثل الصدقة في غير موضعها تشجيع للاشرار وان ترك الحبلى على غارب أمثاله هو فتح المجال لمن يندس بسوء سمعته ويلطخ بقذارته الاوساط الوطنية التي يجب ان تبقى مقدسة . وغني عن البيان ان الذين هم على هذا النمط هم الذين حملوا الكاتب العبقرى الكبير (صموئيل جونسون) على القول « ان الوطنية هي الملجأ الاخير للرجل السافل »^(١)

اننا نعرف ان هذا كله عيب في الثورة ولكن ماذا يضير النهضة العظيمة ان يندس فيها الضعفاء ؟ ألم يتظاهر المنافقون في صدر الاسلام بالدخول في الاسلام ؟ وماذا يعيب الشمس ان يشاهد الناظر على وجهها سفعا اذا كانت هذه السفح لا تحول دون ثبات حرارتها المحيية وارسالها أشعتها اللامعة ؟ ثم ان ظهور الطفح على الجلد في بعض الحوادث التي يعطى فيها المصل الشافي من الامراض الخطيرة لا يمنع الطبيب الحاذق من استعمال المصل الواقي من الدفترى مثلاً

ويضاف الى ما تقدم ان بعض الوصوليين المستقرصين النفعيين الخالين من جميع الوسائل التي تمكنهم من الحصول على الكسب بالطرق المشروعة الشريفة يجدون في الثورة باباً للرزق فينضمون الى صفوفها ولا يزالون ينفخون في نارها ما دامت مصالحهم مضمونة غير مباينين بالمصلحة العامة التي من اجلها اعلنت الثورة ، وشر من هؤلاء على التحقيق قوم يجعلون انفسهم وسطاء بين الثوار والسلطة العاتية لا لمصلحة البلاد وتقريبها من غايتها السامية بل لضمان مقاعد يجلسون عليها ومصالح خاصة يقبضون على ناصيتها وهكذا لا يتعففون ان يتخذوا من اشلاء شهداء الوطن مباداً لاراضيهم ومن دمائهم ريشاً لبساتينهم

اما اولئك الذين يتحينون اخفاق الثورة للنيل من كرامة الثوار واقصائهم عن حظيرة الوطن فليس في المعجم الذي تعلمناه مفردات تدل على التدني الاخلاقي الذي بلغوه

ومن الاعتراضات التي يوجهها انصار التدرج السلمي الدائم الى الثورة انها تؤدي عادة الى الرجعى ورد الفعل وبرهانهم على ذلك ان ما من حكومة تقف عثرة في سبيل التقدم الا قاومت بالشدة كل انقلاب ، بيد انها اذا لم تبلغ من القوة شأواً يمكنها من سحق الثورة واتحاد انفاسها فان عاقبة المقاومة التي تبديها تكون اضرار نار الحقد والقسوة في قلوب الثائرين واخراج الامر من يد المعتدلين والمتشددين الى المتطرفين المتعجلين . ففي اوائل الثورة الفرنسية مثلاً كانت الاضطرابات قليلة غير ان اعلان ملوك اوربا الحرب على فرانسة ادنى الى ظهور حزب « الجيرونديين » الخياليين على مسرح السياسة الفرنسية اولاً ، ثم ظهور « اليعقوبيين » القساة الشرسين بعدهم مما كان السبب الاكبر في احداث عصر « الهول » المشهور . بل ان انهيار النظام القائم كاف وحده لتحويل اشرس الزعماء

(١) "Patriotism is the last refuge of a scoundrel." (Remarks, by Samuel Johnson)

الشعبيين اعظم فرصة للاستبداد حتى لو لم تكن ثمة مقاومة محسوسة من الحكومة السابقة . اضاف الى شراسة هؤلاء الزعماء الخافلة بانواع التحدي ان المصانع والمتاجر في ارباب الشدائد والاهوال تقف فتقل البضائع وترتفع الاسعار ويلوح شبح المجاعة على الافاق ، وقد لا تؤثر هذه الشدائد في الزعماء القابضين على ناصية الحال ولكنها شديدة الاثر في الدهماء ، فالبؤس والاضطراب والتقلقل تفعل فيهم فعلاً كريهاً لان معظمهم يتوقع من الحكومة ان يتمتع بالأمن والنظام علاوة على سائر تلك الخدمات المطلوبة منها . لا جرم ان هؤلاء الدهماء ينقلبون على نائفي بوق الاضطراب ومسبي الاهوال فتنبئ الرجعي وينشط رد الفعل من عقالة ويأخذ الرجعيون في تنظيم امرهم حتى ينالوا التأييد الكافي فتنب ريجهم الصرصر على الثورة وزعمائها فتكتسح من تكتسحه ولا يلبث الموظفون القدماء المطرودون ان يعودوا الى مناصبهم ويعتلوا عروشهم مرة اخرى

الى هنا نحن نجاري خصوم الثورة فيما نقلناه عنهم ونعتقد ان براهينهم تنطبق في الاكثر على الازمنة الماضية وعلى الثورات التي ادار دفعتها ضعفاء العزيمة قليلو الثقة بانفسهم وبالعاملين معهم امثال (كرنسكي) في روسيا ولكن متى كان على رأس العمل اناس من اهل الحزم والعزم قد قنعت بالبابهم بوجوب انقاذ امتهم من الصغار ولعنة الاستعمار امثال (جورج واشنطن) في الماضي و (دي فاليرا) و (مصطفى اتاتورك) في الحاضر ، او اناس رأوها ينخرها سوس الشقاق الداخلي والمذاهب السياسية البالية امثال (موسوليني) و (هتلر) او اناس آمنوا بالاصلاح العالمي الذي يجلبه مذهبهم ويؤدي اليه انقلابهم امثال (لينين) و (تروتسكي) فدسائس الظالمين المستكبرين وخزعات القياصرة والسلاطين وشعوذات الدجالين لا تغني قليلاً

الثورة والتطور العضوي

مهما حاول الكتاب اظهار البون الشاسع بين الجسم الحيواني او الكتلة العضوية وبين المجتمع الانساني او الجمعية البشرية فان في التشابه بينهما ما يفتق الذهن ويؤدي الى ادق الاستنتاجات الصحيحة . فمن ذلك ان (دارون) بعد ما وضع مذهبه في النشوء والترقي ونشره في الاوساط العلمية ترجحت فكرة النمو البطيء عند علماء الحياة حتى صاروا يزعمون ان كل تدرج انما يتم بتغير بطيء يطرأ على الكتلة العضوية نباتية كانت ام حيوانية في حقبة من الزمن تحسب بالوف السنين الى ان يتم هذا التغير فيصير ملموساً يؤدي الوظيفة الحيوية المستحدثة التي يتطلبها المحيط الجديد . فاذا صح ان الجمعية البشرية كتلة عضوية او جسم حيواني كما يذهب اهل النظر البيولوجي من الاجتماعيين تنطبق عليه قواعد الحياة فان كل تغير فيها يحتاج على هذا القياس الى الوف السنين كي يصير ملموساً لذلك تكون الثورة بهذا المعنى ليست عبثاً فقط بل غير ممكنة لان الطفرة كما كانوا يقولون الى اجل قريب محال . ولكن الطفرة صارت في علم الحياة قاعدة من قواعد العلم وما كان محالاً

بالامس اصبح لازماً اليوم لان التتبع الدقيق دل على ظاهرة في علم الحيوان والنبات من اهم الظواهر وهي حدوث ما يدعى Mutation اي التحول الفجائي وهذا هو الطفرة بعينها وتعريفها ان يحدث في النسل الطبيعي المعتاد من حين الى آخر ولادة مخلوق يختلف عن جنسه في صفة او اكثر اختلافاً عظيماً يتينا ، ثم اذا ما توالد هذا المخلوق العجيب يحفظ في نسله تلك الصفات التي ظهرت فيه فجأة . ويجوز لنا ان نعبر عن هذا الحادث الحيوي المفاجيء بالعبارة الاجتماعية السياسية الاتية وهي حدوث ثورة في بناء سلالة هذا المخلوق حوّلته فجأة من حال الى حال

والآن فاذا كانت الجمعية البشرية جسماً حيوانياً تنطبق عليه قواعد الحياة الاساسية فالثورة فيه ليست جائزة فقط بل ضرورية ايضاً لان البيولوجيين كما قلنا يعتقدون بالتغير الفجائي وهو الطفرة كما يعتقدون بالتغير البطيء . وكما يحدث الانتقال الفجائي في السلالة من ولادة مولود جديد ذي خصائص مغايرة لسلفه ينقلها بالتوالد الى خلفه ، كذلك يحدث الانقلاب الاجتماعي الفجائي من حدوث ثورة تقلب النظام رأساً على عقب وتحفظ بالتغير الطارئ وتنقله للاجيال القادمة . وعلى لنين وتروتسكي وستالين وكال اتاتورك وعصمت ان يزدودوا علم السياسة والاجتماع بتجاربهم الثورية الدالة على امكان الطفرة وان الرجعى بالمعنى العلمي مهما كانت عظيمة لن تعود بالروس والترك الى ما يشبه عهد القياصرة من آل رومانوف والخلفاء من بني عثمان

وفي مقدمة البراهين التي يوردها اعداء الثورة والقائلون بعقمها البرهان المأخوذ من الثورة الفرنسية في القرن الثامن عشر ، فان الفرنسيين في نظر هؤلاء النقاد قد عادوا الى الشيء الكثير مما سفك الثوار دماءهم للخلاص منه والقضاء عليه ، ولكن فاتهم ان المبادئ التي اعلنتها تلك الثورة للخلاص من الظالمين على انواعهم تعمل اليوم كالسحر حتى في البلدان الخاضعة للحكم الفرنسي نفسه ، والوطنيون في المستعمرات ينظرون بلهفة وشوق الى انهيار النظام السياسي الجائر المتصرف في امواهم وارواحهم واقدس مقدساتهم نظرهم الى انهيار (الباستيل) في اليوم الرابع عشر من يوليو سنة ١٧٨٩ ناهيك بتلك الآراء التي بثتها الثورة في كل دولة حية وسلطتها على كل قلب شاعر من ابطال تلك الامتيازات الجائرة التي كانت تتمتع بها الطبقات العظامية وتحقيق حرية اللسان وحرية القلم وحرية الوجدان وتأييد ارادة الشعب . اما اذا اخفقت الثورة في عاجلها وأجلها ولم تأت بالنتيجة الطيبة التي توقعها منها الزعماء فقد تكون العلة كل العلة في الامة نفسها لان الامة اذا كانت عقيمة فقد يضيع سيل ثورتها الغزير في رمالها القاحلة ، والزعيم مهما كان عظيماً يعجز عن احياء الميت من الجماعات كما يعجز الطبيب مهما كان حاذقاً عن احياء الميت من الافراد ومن الاعتراضات التي يوردها اعداء الثورة قولهم ان كل انقلاب تحدثه الثورة بالعنف يمكن لحصول عليه بالطرق السلمية وذلك بمجرد قرار يصدر في مجلس النواب او بتعديل طفيف في دستور البلاد لذلك تكون الشدة وما احدثته من دمار وسفك دماء فضلة زائدة ما اغني الناس عنها .

ولعمري ان في هذا البرهان شيئاً من الوجهة والحق في البلدان التي تتمتع باستقلالها ولها رأي عام خير يبدو على السنة نوابها المنتخبين انتخاباً حراً وأما حيث يكون الشعب اداة مسخرة لاقرار مطالب الغالب ، وارادته تنمحي بحجة قلم يجرها الحاكم الاجنبي ، او حيث تكون الامة طبقتين اثنتين طبقة الاقلية من الغالبين الانانيين النفعيين الذين استعانوا بالتقاليد العتيقة الهرمة والعقائد التي من شأنها امانة الطموح واطفاء شعلة النبوغ كما كان الحال في زمن السلطان عبد الحميد في الدولة العثمانية ، وطبقة الاكثرية من المحرومين المسخرين عمالاً حقيرين عند اسيادهم حيث — تكون حالة الشعب كما وصفنا فرجماً كانت الثورة السبيل الوحيد للنجاة

ويقول خصوم الثورة ان الثورة مهما عظمت وبلغت من الشدة فليس في وسعها ان تغير الشعب نفسه وانما تغير الدستور والحكومة فقط وهذا كلام يجب ان نتلقاه باحتراس شديد لان تاريخ الانقلاب لا يطابق هذه النظرية دائماً فالاسلام مثلاً كان من بعض الوجوه ثورة دينية اجتماعية سياسية وهو يختلف عن كثير من الاديان الاخرى بميزة جوهرية من الطراز الاول وهذه الميزة هي سرعة انتشاره والانقلاب العملي الذي احدثه ، ومهما تعنت المحافظون من علماء الاجتماع وبالغوا في قيمة التغير البطيء فليس في وسعهم ان ينكروا ان قصور كسرى وقيصير لم تدك فقط بل تغير الناس الذين كانوا يترددون اليها ايضاً في نحو جيل من الزمن

وغير نكير ان بعض العنعنات والتقاليد القديمة بقيت في المملكة الاسلامية الحديثة ولكن نسبتها الى ما استجد وطراً نسبة ضئيلة على رغم المتظاهرين بالدين الجديد من الشعوية المضمرين في الباطن البغضاء للعرب والحق على ابطالهم . وأقل ما يقال في الثورة الان انها تجربة في خبر المجتمع البشري ومن التعصب الاحق ان يحكم المرء على بطلانها قبل التحقق من نتائجها وقد قيل لنا ان الخطأ الاكبر الذي يرتكبه دعاة الثورة انهم لا يفرقون بين الشعب وبين

النظام الذي يسير عليه هذا الشعب زاعمين ان مجرد استئنان السنة الصالحة يجعل الشعب صالحاً وان المجتمع يمكن دفعه الى الامام برفسة واحدة من وراء وان التبع التاريخي دلهم على ان الشريعة متى كانت ارقى من الرأي العام في الشعب لا يمكن تطبيقها وفي الطاقة جعل الشريعة موافقة للرأي العام ولا ثقة به ولكن ليس في الطاقة عكس ذلك اي جعل الرأي العام على غرار الشريعة ومطابقاً لها ، ويذكرون ان السبب الذي يجعل الرأي العام قليل التأثير بتغير الحكومات هو سبب عميق متأصل في طبيعة الانسان ومرتبطة بما للعادة من سلطان عليه نافذ بحيث يحول هذا السلطان دون التغيير الفجائي لان كل تقدم في المدنية محسوس ينطوي على تغير في الاخلاق والعادات والتقاليد والمعارف والنظرات وهذا جميعاً لا يتيسر بقفزة واحدة . وأوردوا من البراهين على ذلك ان سن الانظمة الجديدة لا يصير الكسالى مجتهدين ولا النفعيين ايثاريين ولا الجهلاء من حملة العلم ولا الخشنة من اهل التهذيب ولا من نحر اخلاقهم سوس الفساد اعمدة الاصلاح ، وان التغير الذي

يتطلب من الخصائص في الشعب والمزايا في افراده ما هو فوق طاقتهم وأعلى مما يتصفون به ويحملونه في نفوسهم محكوم عليه بالاخفاق
 اننا لا ننكر ابدأً ان في هذا الاعتراض شيئاً من الحق وجيهاً ولكنه في الاكثر حق ينطبق على العصر التي انقضت لا على العصر الذي نعيش فيه وذلك لان وسائل النشر والاقناع وتغيير العقائد وطرائق التعليم وبث الدعايات والمواصلات المعنوية والمادية بأنواعها اصبحت الآن من السهولة والتيسر والنفوذ بحيث يتعذر على ارباب المصالح الرجعية ان يسبلوا ستائر اغراضهم على الابصار او ان يضعوا السكائم في الافواه ليحولوا دون الصباح بالحق ، ولا شك ابدأً في ان تطبيق القانون السويسري في الاحوال الشخصية في تركيا الحديثة مثلاً هو ثورة شرعية تمت بين عشية وضحاها واذا دام (اتاتورك) قابضاً على ناصية الحال مدة وجيزة من الزمن اخرى فسي تعود الجبل القديم بهذه السرعة الفائقة الزواج الموحد والطلاق المعدل مرغماً ، وأما الجبل الجديد فيعده هذه الشرعة المبتدعة تراثاً من الآباء والجدود ، وهكذا ينتقل الترك في سنوات معدودة في وضع الزواج — وهو وضع محافظ — انتقالاً اقل ما يقال فيه انه ثورة اجتماعية

من المؤسف جداً ان شجرة الحرية كما قال (توماس جفرسون) يجب ان تنبت من حين الى آخر بدم الوطنيين والمستبدين وان هذا الدم هو سمادها الطبيعي ، ولو فكر الذين يطمعون في استعباد الاقوام واستثمارها ان الجماعات اشد حرصاً على حريتها من الافراد وان الرق الحديث — رق الشعوب والاقوام الراقية — هو اشنع من رق الافراد وأضر بمصالح المجتمع وأشد خطراً على الحضارة للتقليل الدائم الذي يحدثه فيها ما كانوا اندفعوا في هذه البسطة السياسية المخوفة بالمهالك وعلى كل حال فالرجل المتحلي بالشجاعة في البلدان التي تنوء بالمظالم لا تستطيع القوة الغاشمة بالغة ما بلغت من الجور والعسف ان تكتم فيه عن الافصاح عما يحول في نفسه من الهواجس والافكار وعن الثورة التي تضطرم في فؤاده على الاوضاع التي تغلغل وتغل قومته وتقف عقبة في سبيلهم ، وفي طاقته ان ينادي كما نادينا في اواخر الشهر الماضي في القاهرة في احدي الحفلات فيقول : « ارتفع يابنادق ، وقعقي يا حراب ، وفرقي يا قنابل ، وانجري عباب البحر ايتها الاساطيل العاتية واملاي كبد السماء ايها الطائرات المستكبرة ، وميدي يا جبال الوطن العزيز بضعايف النفوس من ابنائك ، امانحن فسكاً قال (فردريخ نيتشه) في قصيدته الغنائية^(١) سنجلس على الرغم من ذلك كله بين فكي التنين ونترجع على انياب الكارثة ونصيح بأعلى اصواتنا وملء افئدتنا فلتعش الحرية وليجي الاستقلال وليهنأ الوطن المقدس بأبنائه البررة الاوفياء »

الملك جورج الخامس

والتاج البريطاني^(١)

[على ذكرى الاحتفال بعيد الفصح]

في الاسبوع الثاني من شهر مايو الماضي احتفلت الامبراطورية البريطانية بانقضاء ربع قرن على اعتلاء الملك جورج الخامس اريكة الملك . وقد خلف الملك جورج والده الملك ادوارد السابع عند وفاته في ٦ مايو سنة ١٩١٠ وكانت جدته الملكة فكتوريا من قبلهما قد ارتقت العرش سنة ١٨٣٧ فبين ارتقاءها العرش والاحتفال بانقضاء ربع قرن على ملك حفيدها قرن من الزمان تقريباً

في خلال هذا القرن انثلت طائفة من اعظم عروش العالم واقدماها ، وحلت الحكومات الجمهورية محل الحكومات الملكية في فرنسا واسبانيا والبرتغال ، والحكومات الدكتاتورية في امبراطوريتين عظيمتين هما المانيا وروسيا ، وتفرقت البلدان التي كان يجمعها صولجان آل هابسبرج بعضها عن بعض ، ولكن العرش البريطاني اصبح في هذا القرن نفسه اشد رسوخاً مما كان . فالمرور على التاج البريطاني ، في سنة ١٩٣٠ ارسى منه في سنة ١٨٣٠ او سنة ١٨٧٥ عندما كان بعض الانكليز وفي مقدمتهم جوزف تشمبرلين — والد السر اوستن تشمبرلين والمستر نيفيل تشمبرلين وزير مالية بريطانيا الآن — يُعرفون جهاراً باسم الجمهوريين . بل ان المرء كان له ان يتساءل في القرن التاسع عشر ، هل يتاح لابن الملكة فكتوريا ان يرتقي العرش ، ولكن قلما نجد الآن احداً من الانكليز يرتاب في ان ابنة الملك جورج الخامس سوف يتمتعون بتراسهم الملكي

فالولاء الملكية في انكلترا ليس مسألة حزبية . والعمال هناك يشاطرون المحافظين هذا الولاء . ويرى ان المستر مكدونالد دعي في سنة ١٩٢٨ الى باريس ليخطب في جماعة من النواب الفرنسيين اكثرهم من الاشتراكيين ، في سياسة حزب العمال ، وكانت وطأة المرض مشددة على الملك جورج حينئذ ، فلما نهض المستر مكدونالد للحاضرة قال : « ايها السادة قبل ان ابدأ في معالجة موضوعي ارى من الخير ان تترث قليلاً ضارعين الى الله لئلا بالشفاء على ملكنا ، الذي يصارع الموت الآن »

(١) من بحث للكاتب الفرنسي اندريه موروى صاحب المؤلفات النفيسة في شلي ودزرائيلي وبيرون ودكة

فدهش كثير من الحاضرين ولو انهم كانوا يفهمون الامة الانكليز لما دهشوا . فالحب للأسرة المالكة هناك اقوى واعم بين جمهور الامة منه بين الاعيان (١)

وقد تخيل برنارد شو في احدى رواياته التمثيلية ، بريطانيا وقد انقلبت شيوعية ولكنها مع ذلك ظلت محتفظة بملكها وكان ملكها من احب الناس الى الامة . وهو تخيل قد لا يكون مستحيلاً فيجدربنا ان نبحت عن الصفات الخاصة التي اتصفت بها الملكية البريطانية والحوادث المؤاتية التي مكنت للعرش ووطدت مقامه في بريطانيا . ما مقام الملك في نظام الحكم البريطاني ؟ واية خدمات يؤديها ؟ وعلينا ان نجيب عن هذين السؤالين قبل ان نجعل حكم الملك جورج الخامس ان الحكم الملكي الدستوري ، كمعظم المنشآت البشرية ، لم يجيء نتيجة لتفكير الناس الواعي . فالملك جورج الاول الذي دعي الى العرش من هانوفر كان لا يتكلم الانكليزية فتخلّى عن رئاسة مجلس الوزراء في القرن الثامن عشر . وكذلك انفصلت السلطة التنفيذية في البلاد الى جانبين ، من دون اي نضال او نزاع . ولما كانت الملكة فكتوريا امرأة ، اصبح الولاء للعرش نوعاً من الشعور الرومانطيقي . ولما كان زوجها البرنس البرت متصفاً بجميع الفضائل العائلية ، أصبحت الاسرة المالكة في نظر شعب متدين ، موضوع حب مقرون بالحنان . وقد توالى على العرش البريطاني ثلاثة ملوك — فكتوريا وادورد السابع وجورج الخامس — اشتهروا بالحكمة والاعتدال والقدرة على التجرد عن النزعات الحزبية ، فأصبح للملك عمل مفيد لا يستغنى عنه . ولو كان في انكلترا في القرن التاسع عشر ملك حاول ان يحكم حكماً مطلقاً لتحوّلت انكلترا الى جمهورية . ولكن أسرة كوبرج المالكة ، ادركت في بريطانيا والبلجيك ، ادراكاً تاماً سر النظام الملكي الدستوري

فما هو هذا النظام ؟ وما القواعد التي يقوم عليها ؟ القاعدة الاساسية هي ان يكون الملك دائماً حكماً محايداً . والقاعدة الثانية ، ان يسلم الملك بالمقترحات التي يعرضها وزرائه . وفي ذلك يقول بايمجهو : عليه ان يوقع الامر باعدامه اذا قدّم اليه بعد موافقة المجلسين عليه . وقد كتب المستر اسكوت في مذكرة مشهورة : « على التاج ان يعمل وفقاً لمشورة وزرائه الذين يمثلون في وقت تقديم المشورة ثقة مجلس النواب وسواء كانت هذه المشورة تنفق مع رأي الملك أو لا تنفق . ان الوزراء يصغون باحترام عميق الى نقد الملك واعتراضه ويحسونها بعناية عظيمة ، ولكن القرار الاخير يجب ان يبقى لمجلس الوزراء . لان مجلس الوزراء لا التاج ، مسؤول امام البرلمان . وبتطبيق هذه القاعدة تطبيقاً دقيقاً يستطيع ان يحفظ التاج فوق شدائد المعارك السياسية »

(١) المقتطف : قرأنا من ايام ان انكليزياً من رجال الاعمال كان يستأجر كل صباح سيارة توصله الى مقر عمله فوذات يوم اذ كانت وطأة المرض شديدة على الملك قال الرجل لسائق السيارة عرج بنا على قصر بكنهام لاني اريد ان افرا النشرة الطبية الاخيرة ففعل ولما وصل الرجل الى مقر عمله كانت قيمة اجرة السيارة قد بلغت اربعة شلنات وهي عادة ثلاثة فقال السائق « ثلاثة شلنات يا سيدي فقط » فقال الرجل « والكننا عرجنا عن طريقنا العادي ويجب ان اوفي الفرق » فقال السائق بلهجته الدارجة « أليس هو ملكي كما هو ملكك »

يقابل ذلك أنه لا يغتفر لوزير ما ان يزج اسم الملك في إحدى هذه المعارك . وليس عليه فقط أن يمتنع عن التصريح بما قاله الملك حرفياً ، وعدم اقحام اسم الملك في الشؤون الحزبية ، بل الواجب على رئيس الوزراء أن يتحمل كل المسؤولية الخاصة بأعمال وزارته ، وأن لا يحاول الاحتواء بالعرش فما هي أعمال الملك؟ يقول بايمهو أنه يحتفظ بثلاثة حقوق: أن يشاور وأن يشجع وأن يحذر فلا يمكن أن يعمل شيء في المملكة من دون اطلاع الملك عليه ، وملوك انجلترا قد طلبوا — وكانوا على حق في ذلك — بأن يحتفظوا بهذا الحق كاملاً غير منقوص . وبفضل الحقائق التي يطلعها عليها وزرائه ، مضافاً إليها الآراء التي يكونونها بالاصغاء الى زعماء المعارضة من دون أن يطلب مشورتهم ، يستطيع الملك في الازمات الخطيرة ان يحكم حكماً منزهاً بصفته مشاهداً محايداً . ولكنه لا يستطيع ان يحول دون شيء تقترحه الوزارة ويقره البرلمان . فقد يقول الملك لرئيس وزرائه ، انك مقبل على خطة خطيرة . واني لا ذكر سابقة من هذا القبيل تبعث على الامس . لاريب في انك أنت المسؤول ، واذا اصررت على هذه الخطة كان علي ان اوقع . ولكنني احذرك . فانك ترتكب هفوة هذه الآراء يتقبلها رئيس الوزراء باحترام عظيم من ملكه لما له من المكانة والهيبة ولانه يكسب بفضل استمراره في منصبه ، خبرة أوسع نطاقاً من خبرة أي وزير من وزرائه . وقد ضرب السير موريس الموس مثلاً لتفسير عمل الملك هذا بشركة مساهمة فقال : لنفرض ان الامة شركة مساهمة وان مجلس الادارة المهيمن على شؤونها هو البرلمان . فالملك كان أصلاً صاحب الشركة فتنازل عن ملكه واصبح لاحقاً له في الاقتراع ولكنه مع ذلك لا يزال أعلى المستشارين مقاماً . فكل شيء يعمل باسمه وهنا يبادر الى الذهن السؤال التالي : ما الفائدة من الاحتفاظ بصاحب الشركة الاصيل في مقامه الجديد الفائدة منوغة لاريب فيها . فنجاح النظام الملكي الدستوري في بريطانيا والبلجيك قائم على اربع حقائق : اولاً — أن الجماهير تفضل ان تمنح ولائها لشخص معين دون نظام عام — فالبرلمان يتناول في الغالب الآراء المجردة التي لا يدركها الجمهور . ان النزعة الاميركية الجديدة في الحكم المعروفة باسم « التوزيع الجديدة » تتمثل للأميركي في شخص الرئيس روزفلت ، والفاشية في شخص موسوليني . وهذا الميل لا يختلف في الشعوب البدائية عنه في جماهير الامم المتحضرة . فقد كنت في خلال الحرب ضابط اتصال بين الجيش الانكليزي والفرنسي وكان الزعماء الافريقيون في بعض فرق الجيش البريطاني يرفضون أن يجددوا عقودهم الا في حضرة الملك . فكان قواد الجيش البريطاني ينتهزون فرصة زيارة الملك جورج للسيدان الغربي ويأتون بهؤلاء الزعماء اليه

ثانياً — ان الشعب يتتبع بعناية عظيمة اعمال الاسرة المالكة . ومن شأن هذه العناية في بعض الاحيان تقريب حياة الاسرة المالكة الى حياة الشعب الخاصة . فاذا تزوج أحد الامراء ، كانت الحفلة عيداً قومياً ، واذا كان الزواج قائماً على الحب ، كزواج دوق يورك وزواج دوق كنت ، وكانت العروس جميلة ، استولى على الجماهير نوع من التمل النفسي

ثالثاً — ان التقاليد التي ترعاها الاسرة المالكة ، وقيود وراثه العرش التي تتقيد بها ، من شأنها ان تسمو بنفوس اعضائها فوق الشهوات الدنيئة كالغيرة والحسد وحب الاذى رابعاً — اذا عرف اعضاء الاسرة المالكة ان نهضوا بواجبهم نحو الامة اصبحت الاسرة مرجعاً لحياة الامة الاجتماعية والادبية . فهي تحافظ على التقاليد المحترمة وتصد أي انقلاب مفاجيء في آداب السلوك . وقد أدت الاسرة البريطانية المالكة هذه الناحية من عملها على أتم وجه وأوفاه

هذا هو عمل الملك الدستوري بوجه عام . ولكن الملك في انكلترا مضطراً أحياناً وفي احوال معينة ، ان يشترك اشتراكاً فعلياً في شؤون الدولة فالقاعدة ان الملك يختار رئيس وزرائه . ولكن اذا كانت اكثرية مجلس النواب تابعة لحزب واحد فزعيم ذلك الحزب يصبح بطبيعة الحال رئيساً لمجلس الوزراء . وليس الملك ان يتجاهله . وقد حاولت الملكة فكتوريا — وكانت لا تميل كثيراً لغلاستون — ان تفضل بعض اتباعه عليه ، فذهبت محاولتها ادراج الرياح ، لان مفاتيحها لهم في هذا الموضوع كانت تفضي الى التماس العذر . وكان غلاستون في كل محاولة من هذا القبيل يطلب في النهاية لتأليف الوزارة . فاذا انقسم حزب كبير الى فريقين واصبح زعيم الحزب لا يملك ولاء جميع أعضائه ، فيستطيع الملك ان يرشد زعماء الفريقين الى الطريق الصواب من دون ان يفرض مشيئته عليهم . وهذا ما وقع في سنة ١٩٢٣ لما اضطر المستر بونارلو ان يستقيل من رئاسة الوزارة لمرضه . فقد كان اللورد كرزون مقتنعاً أن رئيس الوزارة لا يمكن أن يكون احداً غيره . ولكن المستر بلفور وغيره من زعماء المحافظين بينوا للملك أن طبع اللورد كرزون لا يتلاءم ومقتضيات المنصب وكانت النتيجة ان استدعي المستر بولدون الى قصر بكنهام فقطع الملك العقدة بسيفه

والقاعدة كذلك ان الملك له حق حل مجلس النواب . ولكنه في الواقع لا يستطيع ان يحل مجلس النواب من دون ان يشير بذلك رئيس وزرائه . الا إنه قد تجيء احوال تصبح فيها مسألة حل المجلس مشكلة معقدة . فاذا كان في المجلس ثلاثة احزاب بدلا من حزبين ، فقد يتفق ان يكون حزب رئيس الوزراء — كحزب مكدونالد الآن — اقلية في المجلس . وقد يشير رئيس الوزراء بحل المجلس في وقت يكون فيه السبيل قد تمهد لائتلاف الحزبين الباقيين والنهوض بشؤون الحكم من دون انتخاب جديد . في هذه الحال تكون كلمة الملك المرجع الاخير

ولملك وحده الحق في اسباغ القاب الشرف على العوام . وهذا الحق على ضيق نطاقه ، يمكنه من ان يقترح اسماء او ان يرفض اسماء اخرى مقترحة لهذه الالقاب . ولكن الفائدة الكبرى من هذا الحق هي ان الحكومة تستطيع ان ترجع الى الملك في ممارسته عند ما يرفض مجلس اللوردات الموافقة على مشروعات اقرها مجلس النواب . فقد حدث مرة ان مجلس اللوردات رفض

ان يقر الميزانية فاضطرت الحكومة القائمة ان تهدد مجلس اللوردات بتعيين لوردات جدد يكفي عددهم لمنح الحكومة اكثرية في ذلك المجلس . ولكن رئيس الوزراء لا يستطيع ان ينفذ تهديداً من هذا القبيل الا اذا وافق الملك عليه . وهذه المشكلة توقف الملك احياناً موقفاً حرجاً ، لانه من ناحية ، رئيس اعيان قومه بطبيعة مقامه ، ومن ناحية اخرى يرغب في ان يتصرف تصرفاً دستورياً لا غبار عليه . وسوف نرى في صفحة تالية كيف تصرف الملك جورج الخامس عندما واجهته حالة من هذا القبيل

ثم ان للملك ، اذا اقتضت الحال ، حق مبهم الآن لقلة الاستناد اليه ، ولكنه فعال في الملان وهو ان يكون وسيطاً بين الاحزاب السياسية ، اذا بلغ النزاع بينهما مبلغاً من الحدة والعنف يهدد سلامة الدولة . فالملك ادورد السابع ، لم يحجم عن دعوة المستر اسكوت رئيس وزرائه ، والمستر بلفور ولورد لنسدون زعميي المعارضة ، الى قصر بلورال لتخفيف سورة النزاع عند ما اشتد بين مجلسي النواب واللوردات

وكذلك نرى ان عمل الملك معقد وذو شأن خطير في آن واحد . فهو رئيس للدولة لا سلطة واسعة له كسلطة رئيس الجمهورية الاميركية الذي يجمع بين رئاسة الدولة ورئاسة السلطة التنفيذية - اي بين عمل الملك وبين عمل رئيس الوزراء - ولكن سلطة ملك انكلترا اوسع نطاقاً من سلطة رئيس الجمهورية الفرنسية . فهذا لا يستطيع ان يحل البرلمان الا بعد موافقة مجلس الشيوخ . ومجلس الشيوخ اذا عارض في امر اقره النواب فليس لرئيس فرنسا ان يعين شيوخاً تتغلب بهم الحكومة القائمة على معارضة المجلس لها

فاذا اضيفت الى سلطة الملك الدستورية هيئته التي تأذن له في التوسط في بعض شؤون السياسة الخارجية وأمور الجيش ، ادركت ان للملك الدستوري في بريطانيا شأنًا كبير في تفسير دفة الحكم فلننظر الآن في حكم الملك جورج الخامس ، ومحاولين ان نبين كيف مارس الملك هذه الحقوق وكيف نهض بهذه الاعمال في خلال ربع القرن المنصرم

كان جورج الخامس الابن الثاني للملك ادورد السابع . فلما توفي شقيقه الاكبر ، دوق اوف كلارنس اصبح ولياً للعهد . وكان قد تلقى العلوم التي تعدّه للانتظام في السلك البحري ، وقضى معظم حياته قبل وفاة شقيقه بعيداً عن البلاط وقد قلّد في فترة ما قيادة سفينة طور بيد ثم قيادة طراد . فلما توفي والده وذهب المستر اسكوت (وكان رئيس الوزراء حينئذ) لمقابلته تركت هذه المقابلة أثراً عظيماً في نفسه لما شاهده في الملك الجديد من الدعة والرأي السليم . ولكن جورج الخامس ورث من عهد والده مشكلة معقدة . ففي ميدان السياسة الخارجية ، كانت المنافسة بين انكلترا والمانيا قائمة على قدم وساق . الا ان الملك جورج الخامس لم ينظر الى القيصر على انه عدو شخصي

كما كان يفعل والده ، ولذلك كبر الامل بعد اعتلاء الملك جورج العرش ، بان يسوّى هذا النزاع العائلي على احسن وجه . ولكن هذا الامل لم يلبث قليلاً حتى تبدد . وأما في سياسة البلاد الداخلية ، فكان النزاع بين مجلسي اللوردات والنواب ، قد بلغ اشدّه . فحزب الاحرار القابض على زمام الاحكام من سنة ١٩٠٦ كان قد تبع خطة ترمي الى غرضين هما ، فرض قبول الميزانية التي اعدّها لويد جورج وتعديل الدستور حتى يجرّد مجلس اللوردات من قوة النقض لقرارات مجلس النواب . فبعد نزاع وانتخاب عام وافق مجلس اللوردات على ميزانية لويد جورج . ولم تكن ثمة وسيلة للتغلب عليه فيما يختص بالغرض الثاني ، الاّ بتهديده بتعيين ٣٠٠ لورد جديد . وكان الملك ادورد السابع قد وعد المستر اسكوث ، انه يوافق على ذلك ، اذا اقتضى الامر ، بعد انتخاب عام آخر لتبين اتجاه الرأي العام

ف وفاة الملك ادورد ، والمسألة لا تزال معلّقة ، وضعت المستر اسكوث في مأزق ، لا سبيل الى الخروج منه الاّ بالبراعة والكياسة . فرأى اولاً انه لا يليق ان يطلب الى الملك ان يتخذ قراراً حاسماً في موضوع خطير كهذا في مطلع حكمه وخاصة في فترة الحداد . وفي هذا مثل بليغ على ان وجود التاج يفعل بحكم الطبع ، فعل مسكن في حلبة النزاع السياسي ، وينفخ في السياسة شعوراً انسانياً قريباً من القلب . ولما كانت المعارضة تشاطر الحكومة هذا الرأي اجتمع مؤتمر خاص من زعماء الفريقين قصد الوصول الى اتفاق ، فكان سبيله الى الاخفاق بعد جدال طويل

فتحمّ عند ذلك على رئيس الوزارة ان يعلم هل يعيد الملك جورج وعد أبيه ، ويتعهد بتعيين لوردات جدد اذا اسفر الانتخاب العام عن عودة الاحرار الى الحكم . والواقع انه لم يكن ثمة سبيل الى حل آخر . فاذا رفض الملك استقالت الوزارة ، وعندئذ يستدعى المستر بلفور زعيم المعارضة ويطلب اليه ان يؤلف وزارة فيؤلفها وعند تقدمها للمجلس يخذلها فتضطر الى الاستقالة . وعندئذ يحق للملك من الناحية النظرية ، ان يحلّ المجلس لاجراء انتخاب آخر ، ولكن ذلك يزعج بالتاج في معارك الانتخابات ويقضي على القاعدة الاساسية التي شيّد عليها النظام الملكي الدستوري . وهذا تحول كان المستر اسكوث عازماً كل العزم على اجتنابه ما استطاع الى ذلك سبيلاً . فاذا وعده الملك بتعيين اللوردات عند ما تقتضي الحال ذلك ، وخاض هو وحزبه الانتخاب مسلحاً بهذا الوعد السري يبقى مقام الملك محفوظاً من الاذى . قال المستر اسكوث : « فاذا خذلنا في الانتخاب لم تكن ثمة حاجة لتنفيذ وعد الملك فيبقى في طي الكتمان . واذا نلنا اكثرية ، اضطر اللوردات الى الاذعان ، وكذلك نجتنب ذكر اسم الملك على كل حال »

ومع أن الملك جورج كان قليل الرغبة في اتباع هذه الطريقة ، رأى بعين حكمته ان لا سبيل

آخر للخروج من المأزق . فاتفق على ان يحفظ وعد الملك طي الكتان وان يسعى الوزراء جهد الطاقة الى الحيلولة دون ذكر الملك في معارك الانتخاب . فلما أسفر الانتخاب عن اكثرية للاحرار اضرب الملك على أن يعلن الوعد الذي قطعه خشية ان لا تفهم المعارضة موقفه اذا ظل هذا الوعد مكتوماً ثم تسرب نبأه الى الصحف . وقد اذيع ذلك في كتاب ارسل الى المستر بلفور ولورد لانسدون . فغضبت المعارضة ولكنها لم تحر عملاً . فتعين ثلاثمائة لورد جديد يضعف من مقام الارستقراطية البريطانية ، ويقضي على كل حال الى اقرار ما رفض مجلس اللوردات اقراره . فرأى المجلس عندئذ ان يذعن لمشيئة مجلس النواب وافرء القانون المطلوب

وخرج الملك من هذا النزاع وقد زادت هيئته ومكانته ، لانه لم يحد في خلاله قيد شعرة عن عمله وهو ان يكون حكماً منزهاً عن الغرض الخاص . فقد كان في ناحية الحكومة مستقلاً حكماً ولكنه لم يقف عثرة في سبيلها ، وكان في ناحية المعارضة ، صديقاً ولكنه لم يكن حليفاً

كان حكم الملك جورج حافظاً بالمشكلات . فما كادت تحل المشكلة الدستورية على الوجه المتقدم حتى استفحلت المشكلة الارلندية . ذلك ان المستر اسكوث كان قد اضطر الى التحالف مع النواب الارلنديين الوطنيين في مجلس النواب بغية الفوز بأكثرية كافية ووعدهم بتحقيق آمانيهم فيما يخص «الهوم رول» اي الاستقلال الذاتي ، وهو يكاد يكون استقلالاً تاماً لارلندا . فاقسم البروتستانت في ارلندا الشمالية انهم لن يخضعوا بحال من الاحوال لحكم دبلن وطلبوا ان يفصلوا عن سائر ارلندا ويتركوا وشأنهم . ولكن الوطنيين الارلنديين هالهم ان يفقدوا اغنى شطر من ارلندا . فاقترح المستر بلفور على الملك ان يتوسط ويعلن ان تجزيء الامبراطورية على هذا الوجه . موضوع يجب ان يتاح للبلاد ان تعرب عن رأيها الصريح فيه . وهذا يعني ان بلفور اقترح على الملك ان يحتم على اسكوث فض البرلمان وخوض معترك انتخابات جديدة . اما لورد روزبري فكان رأيه ان رفض الملك توقيع قانون اقره البرلمان مخالف للتقاليد وامتنع لسلطة الملك في غير محله . وظل الجدل محتمداً خلال شتاء سنة ١٩١٣ و ١٩١٤ والآراء متناقضة

الا ان الملك كان حكماً ، فلم يصغ الى اصحاب الآراء المختلفة ، المخالفة للتقاليد الدستورية . وظل محتفظاً برباطة جأشه ، ولكنه لم ين عن تذكير وزرائه بان الحالة في نظره كانت اشد خطراً منها في نظرهم لانه باق رئيساً للدولة حالة انهم خالعون جلباب الحكم عند ما يتحوّل الرأي العام عن تأييدهم ، فيحل غيرهم محلهم . ومضى شهراً بعد شهر محاولاً اقناع المتطرفين من الفريقين بالتربث والتأني ، طالباً من كل فريق تخفيف الحدة في الخطب والتصريحات التي يفوهون بها ، وان ينظروا بعين الاهتمام لمصاعب التي تعترض موقف الفريق الذي يخالفهم . ودما الى قصره في بلمورال الى زعماء الاحزاب المختلفة فلعب اللورد كرو احد زعماء الاحرار الجولف مع المستر بونارلو زعيم المحافظين

الجديد . فبدأ في موقف بونارلو شيئاً من اللين في حلبة اللعب لم يؤثر عنه . واصر الملك على اجتماع اسكوث رئيس الوزراء ببونارلو زعيم المعارضة وكان الاجتماع سرّياً خشية لوم المؤيدين لكل منهما فوجد كل منهما صاحبه أقرب الى التعقل مما كان يتصور . وفي مارس سنة ١٩١٤ كادت المشكلة ان تتخذ شكلاً عسكرياً ، وبدرت بوادر الحرب الاهلية في ايرلندا ، فدعا الملك مؤتمر من زعماء الاحزاب المتعارضة الى الاجتماع في قصر بكنهام وافتتح هو المؤتمر بخطبة مؤثرة ، ولكن النفوس كانت ثائرة فلم يسفر المؤتمر عن نتيجة ما ، ولم تنج ايرلندا من نشوب الحرب الاهلية فيها سنة ١٩١٤ الا بنشوب الحرب العامة على اثر حادثة سرايشو

في اول اغسطس سنة ١٩١٤ بعث ملك انكلترا بنداء الى قيصر روسيا يطلب اليه فيه ان يوقف تعبئة الجيش الروسي . وكان اسكوث قد كتب هذا النداء مستعيناً برجال وزارة الخارجية . قال اسكوث : فلما انتهينا من كتابته ذهبت في سيارة اجرة مع ترل الى قصر بكنهام وكانت الساعة الحادية والنصف بعد منتصف الليل . فدعي الملك من سريره وصورة الملك في قبائه في تلك الميلة التاريخية من أعجب الصور التي اذكرها

وقد اصر الملك في خلال الحرب ، على ان غذاء الاسرة المالكة يجب الا يختلف بوجه من الوجوه عن غذاء الجمهور . فلما قضت حالة الحرب بان توزع بعض اصناف الغذاء ارزاقاً بمقتضى بطاقات لفلها كان قصر بكنهام ينال من هذه الارزاق ما يناله بقية الناس . وامر الملك بان لا يقدم على مأدته خمر ولا جمعة . وقد ذهب في خلال الحرب غير مرة الى فرنسا ، لزيارة ابنه وولي عهده ، وليكون وجوده هناك من بواعث النشاط والحماسة في نفوس الجنود . فلما انقضت الحرب ، اعرب المستر اسكوث عن اجلاله للملك بهذه الكلمات :

« اما والعروش تهوي حولنا ، وقد كان بعضها قائماً على الظلم ، وبعضها مؤيداً بهيكل ضعيف من التقاليد ، فاننا نرى عرش هذه البلاد راسخاً لا يتزعزع قائماً على مشيئة الشعب البريطاني » وقد كانت الصعاب التي واجهتها بريطانيا بعد الحرب لا تقل عن الصعاب التي واجهتها قبيل الحرب وفي خلاها . فالاضراب العام ، وفوز حزب العمال ، اقتضيا من الملك ان يبرهن مرة اخرى على قدرته وحكمته ، بحكم منزله عن النزعة الخاصة او الحزبية . وقد اصاب في ذلك قسطاً وافراً من النجاح ، حتى انه لما مرض سنة ١٩٢٨ كانت الجماهير تقف امام قصره وهي متلهفة لاخباره ، ضارعة الى الله ان يمن عليه بالشفاء ، ففاقت بولائها له ما عرف عن الولاء لملوك انكلترا الذين تقدموه

وهذا كله يفسر لك قول السر ستافورد كريس احد زعماء العمال المتطرفين اذ قال من عهد قريب : « ان الملكية الدستورية سوف تبقى زمناً طويلاً في هذه البلاد افضل وسيلة لاختيار رأس الدولة »

تويج جورج الخامس

السبق الانكبيير غيرهم من امم هذا العصر الى الحكم الدستوري ونزع السلطة من ملوكهم ولكنهم مع ذلك لا يزالون متمسكين بكثير من عاداتهم وتقاليدهم القديمة كتتويج ملوكهم والباس قضائهم الشعور العارية وحراسهم الثياب المقصية . وفيما يلي وصف جانب من حفلة تتويج الملك جورج الخامس في ٢٢ يونيه سنة ١٩١١ في دير وستمنستر |

... ووقف رئيس اساقفة كينتربري ونادي قائلاً ايها السادة قدمت اليكم الملك جورج ملك هذه المملكة الذي لا شبهة فيه والذي جئتم جميعكم اليوم لكي تقدموا له الطاعة فهل انتم راغبون في ذلك . فهتف الجمع هتافاً متكرراً قائلين احفظ اللهم الملك جورج . ثم ابتدأت الخدمة الدينية وتلى قانون الايمان ووعظت وعظته مختصرة وفي ختامها تقدم رئيس اساقفة كينتربري الى الملك وقال له هل انت مستعد يا مولاي ان تقسم اليمين فقال الملك نعم وأقسم انه يحافظ على الديانة البروتستانتية ويحكم شعبه بالعدل . وسار الى المذبح وركع امامه ووضع يمينه على التوراة وقال ان كل ما وعدت به هنا افعله وأحفظه فليعني الله . وقبل التوراة ووقع صورة القسم ورجع الى كرسيه بجانب كرسي الملكة وسجدا كلاهما ثم عاد الى المذبح وخلع حلة الملك وتقدم الى عرش الملك ادورد المعترف وجلس على حجر تاريخي مشهور فمسحه دين وستمنستر بالزيت المقدس والبسه مهمازه ووضع سيفه على المذبح . وصلى رئيس الاساقفة ضارعاً الى الله ان لا يقتله الملك سيفه عبثاً بل يستعمله لخدمة الله بارهاب الاشرار وحماية الاخيار ثم ناوله اياه قائلاً اجر بهذا السيف العدل وأوقف نمو الشر واحم كنيسة الله واعن الارامل والايتام وجدد ما عتق واحفظ ما تجدد وأصلح الاثيم وأيد الصالح حتى تنمو كل فضيلة . وناوله بعد ذلك رداء الملك والكرة والصليب قائلاً فليلبسك الله رداء البر وثوب الخلاص واذا رأيت هذه الكرة موضوعة تحت الصليب فتذكر ان العالم كله خاضع لقوة المسيح فاديننا ولسلطته . ثم البسه خاتم الملك في اصبعه وناول الصولجان قائلاً تناول صولجان العدل والرحمة وليعنيك الله في اجراء كل ما وهبك من السلطة وكن رحيماً ولكن لا تتناه في الحلم وعادلاً ولكن لا تنس الرحمة وعاقب الشرير واحم الصالح وقُد شعبك في السبيل الذي يجب ان يسير فيه . ثم رفع التاج عن المذبح وتضرع الى الله ليبارك الملك ويتوجه بكل فضيلة ووضع التاج على رأسه قائلاً ليتوجك الله بتاج المجد والبر . ولالحال رفع الاعيان تيجانهم من تحت مقاعدهم ووضعوها على رؤوسهم وهتفوا للملك . وجلس الملك على عرشه وجعل رجال المملكة يمرون امامه ويسجدون له واحداً بعد الآخر وأولهم رئيس اساقفة كينتربري والاساقفة ثم ولي العهد وامراء بيت الملك وكان كل منهم يرفع تاجه عن رأسه ويركع امام الملك ويقول اني اخدمك بحياتي وأكون اميناً لك حتى الموت فليساعدني الله ثم يلمس تاج الملك بيده ويقبله في وجهه . وفعل مثلهم كل رؤساء فرق الاعيان اما اعضاء تلك الفرق فبقوا راكعين في مجالسهم حاسري الرؤوس



مملكة المرأة

الزواج والبيت والاولاد

من نافذة القطار

لكامل كيلاني

الانجاء الجديد في تربية الاطفال

درة البول عند الاطفال

للدكتور عبده رزق



النزاج والبيت والاولاد

يجب ان تكون هدف

المرأة في المانيا النازية

فلما ادركت نساء المانيا في بدء الانقلاب النازي ما يكون اثره في حياتهن ، ولكنهن يعلمن الآن انه كان فاتحة عهد جديد يختلف في قواعده واتجاهاته عن العهد السابق كل الاختلاف في خلال الحرب الكبرى ، وفي السنوات التي تلتها ، ارتفع مقام المرأة ارتفاعاً سريعاً في ميادين الاعمال والحرف المستقلة والحياة السياسية . ولكن الرنج الثالث يرمي الآن الى اعادتهن الى البيت على قدر المستطاع

ففي ميدان الحياة الاقتصادية قضت كثرة العمال المتعطلين عن العمل ان تستبدل النساء العاملات بعمال . وكذلك صدر قرار في يونيو سنة ١٩٣٣ يحول دون اشتغال النساء بالاعمال المدنية اذا كان لهن أزواج او آباء عاملون . وليس يقصد بالاعمال المدنية هنا مناصب الحكومة فقط بل جميع ضروب العمل في المنشآت التابعة للحكومة مثل المدارس والبنوك وسكك الحديد والجمعيات والمؤسسات الدينية . وقد عمدت الحكومة الى تطبيق هذه القاعدة تطبيقاً واسع النطاق . ففي مدينة همبرغ اقيمت مائة معلمة دفعة واحدة وعين محلهن مائة معلم . بل ان الحكومة عمدت الى التفريق بين الرجال والنساء في مؤسساتها . بجعل راتب النساء اقل من راتب الرجال ، ورفض النساء اللواتي لم يبلغن الخامسة والثلاثين حالة ان الذكور يقبلن في الاعمال نفسها ابتداء من السنة الحادية والعشرين . ولكن هذه القواعد لا تطبق تطبيقاً عاماً مطلقاً . فالنساء اللواتي يعلنن اسرعهن لا يستبدلن في اعمالهن برجال . وقد احتفظ بالنساء الكواتب على المكاتب (التيب ريتز) والعاملات في مصانع النسيج ، لبراعتهم وتفوقهم على الرجال . ثم ان القابلات المتزوجات تشجعن على العمل لانهن يخدمن هدفاً من اهداف الحركة النازية وهو زيادة النسل

فالزواج في ظل النظام الجديد ، هو الهدف الذي يجب ان تسعى اليه المرأة . ولكن من الواضح ان كثيرات من الفتيات الالمانيات لا يستطعن بلوغه . لان في المانيا ١٩٠٠ ٠٠٠ امرأة زيادة على الرجال . ولا يزال امام هؤلاء ميدان للعمل ، مع ان نطاقه قد ضاق كثيراً . فالطبيبة يجب ، بحسب الرأي النازي ، ان تركز عملها في امراض النساء ، والحماية يجب ان تقف نفسها على الناحية القانونية من شؤون المنزل ومحاكم الاحداث . فلا الجراحة في الاول ولا العمل كقاضية في الثانية ، من الاعمال التي يجب ان تزاوها المرأة في المانيا النازية . اما الصحافية فيجب ان توجه عنايتها الى الموضوعات الخاصة بالبيت والطفل واذاغة فلسفة النازي السياسية بين النساء . ولا ريب ان ميدان الحرف الحرة سوف يتأثر في المستقبل ، تأثراً عظيماً ، بتحديد عدد الفتيات اللواتي يسمح لهن بالانضمام في معاهد التعليم العالي أي الجامعات

والخيلولة بين المرأة الألمانية والجامعات، يجعل عدد الفتيات اللواتي ينتظمن في الجامعات بعشرة في المائة من مجموع الطلاب، يصحبها توجيه عناية المرأة توجيهاً خاصاً الى مسائل البيت والعناية بالأطفال والوالدات من نواحيها المختلفة ولذلك يشاهد عدد كبير منهن مقبلاً على اعمال الخدمة الاجتماعية، ولكن المناصب الادارية في جميع هذه المنشآت الاجتماعية، هي في الغالب في ايدي الرجال. والحكومة تسهل بواسطة مكاتب خاصة للتخديم، سبيل الخدمة في البيت للفتيات اللواتي لا يستطعن الزواج ويرغبن في هذا النوع من العمل

وقد كان من شأن هذه الخطة التي اختطتها الريح الثالث نحو النساء، ان فرض لعمل النساء السياسي، حدوداً ضيقة. فقد نقص عدد الوظائف منهن في الوزارات المختلفة، وحيل بينهن وبين عضوية الريخستاج، مع انه في سنة ١٩٣٣ كان في الريخستاج ثلاث وثلاثون امرأة بين اعضائه. ولكن تجريد المرأة من حق العمل في منصب سياسي، لا يعني حرمانها حق الانتخاب. بل ان الانتخاب في الفلسفة النازية، ليس حقاً للمرأة فقط، وإنما هو واجب مقدس عليها. فقد ذكرت احدى الصحف في السنة الماضية ان سيدة لها مقعد في السوق العامة، اشير اليها بالاشترك في الانتخاب مرتين فلم تفعل، فخرمت من مقعدها هذا وحتم عليها ان تلبس بطاقة كتب عليها: «لم اشترك في الانتخاب لان سلامة المانيا واستتباب السلام فيها لا يهمني». وقد تكون هذه الحادثة فريدة في بابها ولكن الواقع ان النساء الألمانيات لا ينظرن نظرة استخفاف الى حق الانتخاب

ثم ان الحكومة لا تكتفي بالقوانين تحد بها من نشاط المرأة في ميادين العمل والسياسة، بل تعتمد كذلك الى وسائل الترغيب والدعاية لتغري المرأة بالعودة الى البيت. ومن اشهر هذه الوسائل نظام الزواج الذي وضع في يونيو سنة ١٩٣٣ وبمقتضاه تمنح الفتاة العاملة الف مارك ديناً طويلاً الاجل، اذا تركت عملها وتزوجت وعادت بعد الزواج لا تبحث عن عمل. وهذا المبلغ لا يدفع لها نقداً، بل تعطاه اذونات، تستعملها في تأثيث بيتها. ثم هي تستطيع ان توفي هذا الدين بأسلوب غريب، فعند ولادة ولدها الاول يحذف من الدين ربعة، وعند ولادة الولد الثاني يحذف الربع الثاني. فاذا ولد لها اربعة اولاد، مُسَوَّى الدين كله. فكان هذا النظام باعثاً على اقبال مئات من الفتيات والشبان على الزواج، فقرعت أجراس الافراح في طول المانيا وعرضها، وتزوج في مدينة همبرج وحدها، ٥٠٠ فتاة و ٥٠٠ شاب دفعة واحدة. وكان من آثاره، ان الاقبال على تأثيث البيوت زاد عدد العمال في الصناعات المختلفة الخاصة بالاثاث وأدوات المنزل ١٥٠ الف عامل. ولكن غرضه ليس زيادة العمال العاملين فقط بل رفع متوسط المواليد في المانيا، بعد ان نقص نقصاً تدريجياً من سنة ١٩١٣ الى سنة ١٩٣٢ حتى أصبح متوسط المواليد في المانيا اقل منه في اي بلاد اوربية اخرى عدا بلاداً واحدة [راجع الفصل الذي نشرناه في مقتطف اكتوبر ١٩٣٤ صفحة ٢٢٩-٢٣١ بعنوان «مقام المرأة واتجاهها في المانيا النازية»]

من نافذة القطار

لظلم كبيرني

هيهات ، هيهات ، لا جن ولا سحره
هذي المنازل قد مرّت على عجل ،
هذي القناطر — والاشجار تتبعها —
هذا قطيع — من الاغنام — ألحى ،
وهذه رعة — في إثرها ظهرت ،
هذا سواد علا فوق القطار ، وقد
هذا القطار بطيئاً — بعد سرعته —
هذي المحطة قد لاحت لاعيننا
يحمل فيها قليلاً ، ثم يتركها
كالسهم منصلتاً والسيل مندفعاً ،

هيهات ، هيهات ، لا جن ولا سحره ،
هنا غلام أراه صاعداً حذراً
وزارع دائب في حرث دسكرة ،
وهذه ثلة — من قرية — خرجت ،
وهذه مركبات حملت ثقراً ،
وتم طاحونة ، لاحت — لاعيننا —
هذا غدير ، وهذي روضة أنف ،
وتم مئذنة في الجو ذاهبة ،
شقي مناظر مرت — خطف بارقة —
مرت ، وليس لها من عودقة — ابداً —

بقادرين على ان يلحقوا اثره
على النخيل يرحي — فوقه — ثمره
وهضبة ، ومروج — بعدها — نضرة
وكلهم — رافع — من دهشة بصره
وفوق اخرى حشيش يابس ، وذره
ثوانياً ، واختفت في الحقل — مستتره
تهب منها — علينا — نسمة عطره
وتلك سوق ، بها التجار منتشره
كما تمر بك الاحلام منتثره
كالطيف ولّى ، فنذا يقتني اثره

الإنجاه الجديد

في تربية الاطفال (١)

كان أبناء السادة في بلاد الفرس في العصور القديمة يدربون على ثلاثة أمور : الرمي بالنشاب ، وركوب الخيل ، وقول الصدق . ومتى جهزوا بهذه العدة اعتبروا أشخاصاً كهلت تربيتهم مستعدين لما يتطلبه منهم المجتمع الفارسي من المطالب البسيطة ، ولم يكن هذا المجتمع ليتطلب من أعضائه غير قليل عدا الشجاعة الحربية ، والقوة البدنية ، والاستقامة الخلقية . ولا جدال في أنه — حتى في تلك العصور — كان المربون والحكام غارقين في المذاهب النظرية والجدل حول تربية النشء وتقرير مستقبلهم . ولكن غايات التربية كانت على كل حال محددة بجملاء ، وكانت الوسائل لا تدرك تلك الغايات في متناول اليد ، وليس الحال كذلك الآن وبالإلحاح ! قلب النظر في مجموعة حديثة من كتب التربية تجد آراء كثيرة مختلفة في إدراك حقيقة وظيفتها ، بقدر عدد من كتبها فهل الهدف الذي يرمي إليه هو منزلة رفيعة من القوة الذهنية أو اعداد ضيق للاحتراف ؟ وهل نؤكد الاهتمام بالفرد وحده أو بمنزلة المستقبل في المجتمع ؟ وهل تكون الوسيلة نظاماً آلياً صارماً ، أو حرية تمتد الى حدود لا تكاد تصدق ؟ وهل نعني كثيراً بالادب القديم وتعاليم الماضي أو نستبدل العلوم ومخترعات العصر الحاضر ؟

من يدري ؟ وأي الناس لديه من الحكمة ما يخوله أن يجيب عن ذلك ؟ أليست كل ظنون هؤلاء المربين سواء في قيمتها ؟ يلوح أن هذا هو الواقع فانهم على الرغم من نظرياتهم وتوكيداتهم الجريئة ليس منهم من يبدو على ثقة مما يقرره إلا حين يهاجم اخوانه على أمر واحد اجتمعت كلمتهم ، وذلك هو سحق الطفل — منشاء كل منافراتهم — أو على الأقل اخضاعه وتحويله من مخلوق أبي مستقل وهو ما فطر عليه الى شخص سهل القياد اكثر متابع لاغراضهم . أن نظرية تأييم (٢) الطفولة لا تزال تسيطر جانباً كبيراً من سياستنا التعليمية فيجب وفقاً لها ان يبرأ الاطفال من الشر الاصيل الذي يلبسهم ويحتث منهم ما فيهم من هراء ، ثم يصبون في القالب المطلوب حتى يصيروا ملائمين للمجتمع ! ولولا أن اولئك الاطفال يرغمون على التعلم بحيش من المعلمين والضباط ويد القانون لفروا منه ومن كل ما يتصل به من الاعمال على أنه قد بدأ حديثاً انتفاض وثورة على تلك التقاليد المريعة

(١) هذا الفصل النفيس هو جانب من مقدمة كتاب « ضحايانا الاطفال » الذي وضعته المربية أغنيس دي ليل ونقله الى العربية الاستاذ محمد عبد الواحد خلاف ونشرته لجنة التأليف والترجمة والنشر في سلسلة مكتبة المعلم

(٢) اشارة الى المذهب المسيحي القائل بان الانسان ولد في الخطيئة

فقد جرأت بعض المدارس بالفعل على ان تضع موضع التجربة والاختبار نظرية تخالف النظريات القديمة كل المخالفة وتقرر ان النزعات الفطرية للطفل ابتكارية وانه لو اعطي المواد الملائمة واتيحت له الفرص لاستعمالها ، واطلقت له الحرية فلا تمل عليه ارادة ، لظهرت منه قوى وكفايات لا يحلم بها الى اليوم . وليس معنى هذا ان ندع الاطفال يهيمنون في كل واد ، بل ان نعطيهم قدرًا من الطمانينة ومن الفرصة للتعبير عن انفسهم يلائم ما بلغوه من اطوار النمو . ان التربية القديمة — او على الاصح اسلوب التعليم السائد المسمى تربية — قد جمعت اعتبارًا علم الماضي وثقافته ، ثم قسمته الى اقسام تامة الانفصال تسمى مواد ، ورتبت هذه المواد الى اجزاء متسلسلة تتدرج من البسيط الى المركب ويرتبط كل منها منطقيًا بالجزء الذي سبقه . والواقع اننا وان كنا لا نعلم كثيرًا عن عملية التعلم على الرغم من كثرة رسائل الدكتوراه في الموضوع فاننا قد اهتمدنا على الاقل الى انها ليست عملية منطقية اصلا ، وعلى الرغم من مجهوداتنا المنطقية فان الاطفال لا يتعلمون على هذا النحو . ففي الفصول التجريبية التي تشرف عليها المس ارون والتي جئنا على وصفها في الفصل الرابع وجد ان عددًا من تلاميذ الفرقة الثانية الذين لم يعطوا شيئًا في الحساب في سنتهم الاولى قد طلبوا نجاة ان يتعلموه وفي شهر واحد قطع بعض نجباءهم فيه شوطًا بعيدًا حتى لقد وصلوا سريعًا الى عمليات معقدة في الكسور من غير ما حاجة الى حفظ جدول الضرب والتشكيلات التي تسبق عادة مثل هذا العمل

وكذلك شأن الجغرافية فهي في هذه المدارس الحديثة ليست قاصرة على دروس مأخوذة عن كتاب كبير واحد مملوء بالخرائط وكشوف الانهار والعواصم والمحصولات . ان الصغار الذين هم دون روضة الاطفال يبدأون تحديد موضعهم في الفراغ فيحددون وضع حجرتهم بالنسبة للحجر الاخرى في البناء ويحددون وضع المدرسة بالنسبة للعباني الاخرى في الشارع . وبعد زمن يسايرون الطريق الى النهر ويرون المراسي والاحواض والمعاوي والسفن . وهل من دافع اقوى من هذا يحملهم على ان يحصلوا الحقائق الجغرافية وحدها بل معلومات اقتصادية وصناعية كذلك ؟ وبدلك على صواب هذه النظرية ان الاطفال في هذه المدارس الحديثة لديهم قدر مدهش من المعلومات . لقد لوحظ على فريق من الاطفال في الثانية عشر من عمرهم بمدرسة « والدن » وكانوا قد طلبوا الى الدكتور اسكندر جولدنويذر أن يدرس لهم علم نشأة الانسان^(١) انهم كانوا يعالجون مسائل المدنية ، ووراثه الخصاص المكتسبة ، وحرية الارادة والتقديس والتقاليد الدينية للشعوب الفطرية ، والاباحة والتحرير ، والعرف الاجتماعي ، وقيمة العادة ، وغير ذلك من المسائل التي تؤجل عادة لفرق اكثر رشداً ومع هذا فليس اولئك الاطفال بمعجزات او خوارق من الناحية العقلية ، ولكنهم مجرد صبية وبنات لم نجمع فيهم النزعة الفطرية الاستغلاخ ، ولم يحدد فيهم المبلل للتفكير . فابكي يفكر

(1) Anthropology

الانسان لا يكفي ان يجلس ساكناً ويمتص العلم من فم مدرس . ان الطفل لا يتعلم المشي بأن يأتي شخص تام النمو فيخبره كيف يمشي ، ولا باعطائه وصفاً فنياً للتوفيق الحركي الذي تنطوي عليه هذه العملية ، بل انه حين يثرون الاوان يعلم نفسه بالمحاولة والخطأ والتخبط والوقوع كيف يثزن ، وكيف يدفع قدماً قبل اخرى

وكذلك الحال في تلك المدارس الحديثة تعطي للاطفال كل فرصة ليكشفوا الاشياء بانفسهم . ومن الوسائل الوثيقة الاكيدة لتحقيق ذلك امدادهم بكثير من الادوات التي يستطيعون بواسطتها ان يعيدوا ويحيوا تجارب سابقة ، وبذلك يضعون اساساً لمواصلة بحث جديد . وحقاً لاشيء أوضح تمييزاً لهذه المدارس الحديثة عن القديمة من استعمال الادوات . ففي المدارس التقليدية تجد غرف الدراسة فضاءً خرباً من الادراج وألواح الكتابة والمواد المستعملة قاصرة على الورق والاقلام والكتب وحتى في رياض الاطفال تجد المواد محدودة واستعمالها مقيداً بقيود . اما في المدارس الحديثة فان الاطفال الى أعلى الفرق يحاطون بعدد كثير من الاشياء المتنوعة ليشتغلوا بها ككتل خشبية ، وأصباغ ، وأقلام تلوين ، ومناسج ، وطين ، ورمل ، وخشب ، وقوارب ، ومكابس طبع ، وآلات كتابة ، وأدوات للعلوم الطبيعية ، وأطقم مسرحية ، وآلات خياطة ، ومعدات كهربائية ، وكل ضرب من الآلات الموسيقية — وأن بيان الادوات في احد الكتب التي تصف تجارب التعليم ليسغل عنه صفحات بالخط الصغير . وللكتب مكانها الذي تستحقه بين الادوات كمصادر للمعلومات تكمل ما اكتسب بالاختبار الذاتي أولاً . وكما رجع ذاخرة يرجع اليها

ماذا يكون إذن متى ترك الطفل لشأنه دون ان تمل عليه اوامر ، وترك مع ادوات كتلك اذا لم تكن به موانع وجدانية ، وكان سليم البنية بحيث يؤدي وظائفه الطبيعية بلا شذوذ ، فنحن في أمان من الخطأ اذا قلنا ان استعماله لتلك الادوات سيكون ابتكارياً . راقب طفلاً في الثانية من عمره يرص كتله الخشبية فاذا لم يفسد عليه محاولاته الاولى من هو اسن منه بتفهمه عن غباوة كيف يعمل ، فانه بلا عناء يرتبها في اشكال ليس حظها من الاتزان والتناسب قليلاً . دع طفلاً وحده ومعه ألوان او اقلام تلوين وصحائف كبيرة من الورق تجده بعد فترة من التلويث والعبث يبدأ يرسم أشياء مدهشة ، مدهشة في الشكل والتلوين . وحتى لو لم تكن لمنتجاته معنى لدى شخص راق فانها له كطفل ذات معنى ودلالة . لقد اطلعت بنت في الثالثة من عمرها احد الزوار حديثاً على رسم لرجل رسمته فصاح بها الزائر انه لرجل مضحك ، لانه ليس له الا رجل واحدة ، فاحمرت الفقا خجلاً لبقده ، ولكنها لحسن الحظ ثبتت في موقعها وقالت : نعم هذا هو نوع الرجل الذي اردن أن يمثله الرسم

حقيقة ان المدارس الحديثة تواجه مسائل كثيرة لم تحل ، وليس اقلها الضعف البشري العادي الذي يدفعنا الى أن نستبدل بامم الحرية استبداداً جديداً باستبداد قديم . فكثير من المدارس

الحديثة تميل الى اعتبار بعض المبادئ الاجتماعية أو البسيكولوجية أكثر حرمة من الطفل ، وفي كثير منها تقدم فكرة المجتمع المستقبل — وهي محض فكرة معنوية — على كل اعتبار آخر. فالمنهج مصبوغ بالصبغة الاجتماعية ، وكل الجهودات تميل الى جعل الطفل شريكاً فطناً في الديمقراطية الاجتماعية المستقبلية . ولهذا الغاية تعطى للطفل موضوعات لا نهاية لها تتصل بنظام الصناعة والحكومة الحديثتين — وهي نوع من التربية الوطنية المضخمة ترمي الى تحويله الى ضرب من الانسان الميكانيكي مصبوغ بصبغة المجتمع من المحقق أن يتعاون بهدوء وكفاية مع رفاقه . وآخرون من دماء الحرية منهمكون في غرس عادات فيمن هم مردّ صغار يتعثرون في مشيهم ، عادات لا ندري ان كانت تحد قوى البداة والاستقلال والابتكار أو لا تحدّها . وآخرون يغالون في قيمة « التركيز الوجداني » و« العقد » الى حد غير معقول . وبعض هذه الاخطار قد اشير اليه بالتحديد في هذا الكتاب ، ومع أن هذه العيوب خطيرة ، وقد تزداد خطورة كلما تضاعف عدد المدارس التجريبية ، فاننا لم نصل بعد الى الفوز ولو بقليل من حرية العمل في المدارس العادية . ومع أن عدم التقيد بالمراسم في فصول الدراسة أخذ في التزايد فان الكثرة من الأطفال لا يزالون ضحايا نظم قاهرة تشبه كثيراً ما جاء وصفه في الفصول الاولى من هذا الكتاب . ولم يتقدم قليل من المدارس العامة الى مثل ما وصلت اليه المدارس النموذجية المحافظة كمدرسة هوراس مان ، ومدرسة الثقافة الخلقية التي يحمي وصفها في الفصل التاسع . ويكاد جمهور المدرسين في أنحاء هذه البلاد لا يعلمون شيئاً عما أدته مدرسة لنكولن^(١) من الخدمات في وضع المنهج على أساس علمي . ولا تكاد تشق مدارس جاري ودالتون لنفسها الطريق الاً ببطء مجهد ، مع أنه من السهل التوفيق بينها وبين ظروف المدارس العامة . وفي حالات قليلة فقط أنشئت فصول في المدارس العامة — ولم تعمل طويلاً في الغالب — لتجربة مبادئ انقلابية ، منتهجة السبل التي اقترحتها هيئات ، كمدرسة المدينة والريف ، ومدارس والدن في مدينة نيويورك^(٢)

رأى زعيمه هندي

سئلت إحدى زعيمات النهضة النسائية في الهند عن رأيها في اتجاهات المرأة الالمانية الحديثة الى البيت وفقاً لفلسفة النازي الاجتماعية فقالت : ان الشرق على ما ارجح سوف يكون اقل تأثراً من الغرب بحركة المرأة الالمانية . فهذه الحركة تطرف في الناحية الاخرى من نهضة المرأة الحديثة والغرب اقرب الى الاخذ بالحركات المتطرفة من الشرق . اما نحن فسوف نمضي في اخراج نساءنا من البيت ولو تبعتم انتم اثر المانيا واعدتموهن اليه »

(١) مدرسة نموذجية تابعة لكلية المعلمين في جامعة كلومبيا

(٢) سيأتي وصف نظم هذه المدارس في الفصول القادمة (السلام راجع الى كتاب : ضحانا الاطفال)

درة البول عند الاطفال

أسبابها وعلاجها

الدكتور عبده رزق

من أكثر أنواع التبول قهراً عن الانسان واعمها حدوثاً هو سلس البول في الأطفال الذي غالباً ما يكون في أثناء الليل عند ما يكون الطفل نائماً . وهي علة كربية مزعجة ، وابتدائها يرجع أحياناً الى الايام الاولى بعد الولادة ، لكنها لا تظهر عادة الا بتقدم الولد قليلاً في السن . وفي بعض الاحيان تراها تصيب البالغين ايضاً

واكثر الاصابات بهذه العلة يكون من السنة الثالثة الى السنة الرابعة عشرة ثم تقل تدريجاً بعد ذلك . أما اذا أتى دور المراهقة ولم يشف المريض منها فتستمر اذ ذاك حتى دور الكهولة او أحياناً ما بعده ، وفي هذه الحالة لا بد ان يكون هناك سبب مرضي

ومن الاطفال من يتبول ليلياً مرة واحدة أو مرات كثيرة في الليلة نفسها وآخرون يتبولون ليلة واحدة من آن الى آخر . وفي أحيان أخرى يكون هذا التبول متتابعاً أي ان العلة تظهر مدة ٨ ليال أو خمس عشرة ليلة متوالية ثم تزول حيناً من الزمن ثم تعود بعدئذ من جديد الى ما كانت عليه قبلاً . وهذه الحالات تكون مصحوبة أحياناً باضطرابات التبول نهراً تارة من كثرة عدد هذا التبول أو من عدم تفريغ المثانة تفريغاً تاماً . لكن في حالات المرض المألوفة تقتصر الاضطرابات المذكورة على وقت النوم ليلاً

ومما يجدر ذكره هنا هو أن الحمى التيفية والحميات الناتجة عن البثور الجلدية كثيراً ما تعمل على توقيف المرض وقتياً ، ان لم تقطعه تماماً في بعض الاحيان . كما أنه لوحظ الشفاء منه فجأة في بعض أدوار الحياة ، سواء أثناء بروز الاسنان ، أو في سن البلوغ ، أو وقت ظهور الطمث ، أو ايضاً في الزواج ، كذلك بعد الوضع الأول . لكن ذلك لا يعني انه يجب الركون الى هذه الحالات الفسيولوجية للشفاء من تلك العلة المزعجة بل من الحكمة وسداد الرأي الاهتمام بأمرها والتخلص منها بالمداداة الجلدية

والاصابات بدرة البول أكثر بين الذكور منها بين الاناث . وقد لوحظ حدوثها على السواء عند الاولاد البدينين وأشداء البنية مثلها عند الضعفاء والعصبين . وهذه العلة كثيراً ما تكون

ورائية وتشاهد في أفراد العائلات وراثي داء الزهري أو ذوي الاستعداد لبعض الامراض العصبية كالصرع أو الخبل مثلاً

أسبابها

تنشأ أسباب هذا المرض أحياناً عن التكاسل عن النهوض من الفراش ، وغالباً عن تهيج المثانة أو صغر حجمها عند الطفل أو وقت وجود حصاة فيها . ومن الجائز أن يكون منشؤه أيضاً عدم التوازن بين أعصاب الطفل المختلفة التي تسيطر على فتحة المثانة أو غلقها ، أو شلل يصيب الصمام أو العضل الذي يعلق هذا العضو . وقد يكون السبب أيضاً نتيجة لمرض في الدماغ أو النخاع الشوكي أو السكر أو أيضاً وجود سرطان في المثانة ، فيعمل على تقلصها وانقباضها كلما وصل إليها البول من الحالبين . وثمة شيء لا ينكر هو أن زيادة حموضة البول الناتجة عن تناول الاطعمة الحارة أو الملهبة تكون سبباً مهماً لظهور المرض وهكذا قل عن الافراط في شرب السوائل في الساعات الأخيرة قبيل النوم وخاصة اللبن الحليب أو الحليب والقهوة معاً وقت طعام المساء

عدا ذلك فأمراض الكلى تلعب من هذا القبيل دوراً خطيراً . وقد شوهد حدوث ذات العلة عند الفتیان المصابين بتضيق فتحة الفلقة وكذلك عند الفتيات المصابات بالتهاب الشفرين الناتج عن الالها في النظافة . وقد يكون سبب ذلك أيضاً وجود ديدان دبوسية في القسم الأسفل من المعى الغليظ . أو اورام صغيرة أو سلية في الانف التي من شأنها أن تعيق التنفس وتسبب بذلك تسماً بجمض الكربون — تسمم ناتج عن نقص في تجديد الغازات بين الدم والهواء في الرئتين مما يؤول الى نوم عميق جداً بحيث تكون حاسة الطفل او حاجته الى التبول غير كافية لاستيقاظه

أنواعها

ودرة البول تكون على ثلاثة أنواع : —

- ١ — درة البول التي تنتج عن التهاون في النهوض من الفراش
- ٢ — درة بول الطفل الذي يبقى نائماً فيبلى ثيابه وفراشه بدون وعي
- ٣ — درة بول الطفل الذي يحلم أنه يبول مثلاً على حائط أو في وعاء فيبلى أيضاً فراشه من دون أن يشعر بذلك أيضاً

ومن ذلك نستنتج ان هذه العلة تظهر عادة في الدور الاول من الطفولة . والنقطة المهمة التي يجب التنويه بها هو ان كل ولد بلغ السنتين او السنتين والنصف وهو لا يزال يتبول أيضاً في فراشه فدوائه ضرورية بلا ابطاء . وبوجه عام هذا التبول لا يكون الا في الساعات الاولى من الليل او قرب الصباح ومقدار البول وافر في الغالب وفي بعض الاحيان يشعر الولد انه يتبول في فراشه ويحاول ان يمسك نفسه لكن بعد فوات الوقت

علاجها

قبل كل شيء لا يجوز ضرب الولد وتعنيفه لهذا السبب . بل تحريضه فقط بكلام فعال لان المعالج او احد الوالدين ينال بعبارات التحريض والتشجيع اكثر مما ينال بعبارات التهديد والارهاب بعد هذا علينا الاستقصاء عن سبب هذه العلة او اسبابها ومداواتها جدياً مع العلم انه لا بد من المثابرة وطول الاناة للحصول على الغاية المبتغاة . عدا ذلك يقتضي استعمال الوسائط الصحية التالية:

- ١ - منع الولد عن النوم حالاً بعد طعام المساء وليكن تناول هذا الطعام باكرآ
- ٢ - الزامه بتفريغ المثانة قبل النوم ووضع وطاء صغير عند فراشه ويوقظ نحو نصف الليل ليبول
- ٣ - منعه شرب الماء مطلقاً من العصر فصاعداً وخصوصاً من شرب الحليب أو القهوة والحليب معاً او الشاي ايضاً - وقت طعام المساء او حملة على تقليل ما يشرب منها
- ٤ - العمل على تدريب المثانة وزيادة تحملها وذلك بتعويد الولد حبس البول ما امكن خلال ساعات النهار

- ٥ - ايقاظ الولد ليلاً لتبويله مع تأخير ساعة هذا الايقاظ في كل مرة وبذلك يتوصل الولد اخيراً الى تمضية الليلة من دون ان يبول في فراشه
- ٦ - اذا كانت درة البول ناشئة عن ضعف في صمام المثانة فيلجأ الى الغسل بالماء البارد صباحاً في الصيف او الى استعمال الكهربائية « التيار الفارادي او التيار المتصل او التيار المترن » كما انه يستحسن وقت تنويم الولد ان يكون مقعده مرتفعاً اكثر من بقية انحاء جسمه وبذلك تمتلئ المثانة قبل وصول البول الى عنقها . لان وجود هذا البول في القسم الخلفي من المجرى البولي اي في منطقة الموثة ، يسبب تهيجاً فيه من شأنه ان يفرغ المثانة ليلاً رغماً عن الولد . وبسط طريقة الى تحقيق هذه الفكرة هو ان تكون رجلا السرير مرتفعة نحو ١٠ - ١٢ سنتيمتراً فاذا قرنت هذه الطريقة باستعمال الوسائط المبينة اعلاه نزول حينئذ تلك العلة في خلال ٤٠ الى ٦٠ يوماً . وقد جربها كثيرون من الاطباء فاسفرت عن نتائج مرضية

واذا لم تكف هذه الوسائط يعطى البلاونا بمقادير متزايدة . والانتبيرين والبرومور . وخلصا الجوز المتقي مرتين في اليوم لولد بين السنة الثالثة والسنة الخامسة عشرة . كذا الصبغة العطرية Aromatica ٢٠ - ٣٠ نقطة وقت النوم ليلاً . وفي حالة حموضة البول الشديدة يعطى الولد ايضاً في اوقات الطعام بيكاربونات اشترات الصوديوم . اما اذا كان البول قلوياً فالشفاء يحصل باستعمال الحامض القوي صفوريك وقد نصحوا ايضاً بوضع حراقة على اسفل الظهر

فستنتج من ذلك ان هذا المرض يتطلب كثيراً من العناية والصبر توصلنا الى انقاذ الولد من علة وان لم تكن بذاتها خطرة لكنها ذات نتائج وبيلة اجتماعية وادبية

بَابُ الْمَرَاتِلَةِ وَالْمُنَاطَةِ

ارْتَادُ لُغَوِي

فِي كُلِّ جُزْءٍ كَلِمَةٌ

لِلْمُرَاتِلَةِ عِبْرَةُ رَمِيمِ بْنِ مُحَمَّدٍ

الحمى الويلة أو الأجمية « الملاريا »^(١)

أطوار الحمى الويلة أو الأجمية :

(أ) الرّسُّ — أول ما يجده الإنسان من الحمى قبل أن تأخذه وتظهر — ويقابل الرّس بالغة الانكليزية (prodroma)^(٢)

(ب) العُرّواء — (Rigor) إذا أخذته لذلك قرّة ووجد مسّها

(ج) الرّحَضَاءُ (perspiral stage) إذا عرق من الحمى ويقال للعريض مرحوض وقد عني المتنبي المادح هذا الطور في مقام حسن التعليل لجود الممدوح وهو هرون بن عبدالعزيز

الاوراجي الكاتب مبالغاً في قوله

لَمْ تَحْكْ نَائِلَكَ السَّحَابُ وَإِنَّمَا حُمَّتْ بِهِ فَصَيَّبُهَا الرّحَضَاءُ^(٣)

(د) البُرْحَاءُ وهي شدة الحمى (Fever in its acme)

(١) قد سمي الشيخ ابراهيم اليازجي (الملاريا) بالحمى الويلة والحمى الاجمية وقد أصاب كل الاصابة في تسميتها بهذين الاسمين وقد تبعته مذكنت أدرس فن تدبير الصحة بمدارس المعلمين والمعلمات الاولى من سنة ١٩١٠ م الى سنة ١٩٢٢ م وأيدنا الاطباء الخذاق عشاق اللغة العربية في هاتين التسميتين

(٢) أخذت الالفاظ الانكليزية التي في هذا المقال عن صديق الطبيب سامي الياس

(٣) النائل العطاء . الصيب الماء المصبوب . والسحاب اسم جنس يذكر ويؤنث (ادعى المتنبي أن علة نزول الامطار من السحاب على الارض هي عرق حماها بغطاء هرون لانه جعل نواله أكثر من نوال الغمام فاصابتها الحمى حسداً) . والمعنى ان السحاب لا تقصد محاكاة جودك بمطرها لان عطائك المتتابع أكثر من مائها وأغزور ولكنها حمت حسداً لك فلما الذي ينصب منها هو عرق تلك الحمى

أنواعها :

- (١) حمى مستديرة وهي التي تأتي كل يوم ويقال لها المَطْبَقَة إذا لم تقلع
 - (٢) الغيب أن تأخذ المريض يوماً وتدعه آخر ويقال لها ايضاً حمى ثلاثية لأنها تأتي المريض يوماً وتدعه يوماً وتأتي ثالث يوم (Tertian)
 - (٣) حمى رُبْع وهي أن تأخذ يوماً وتدعه يومين ثم تجيء في اليوم الرابع (Quartan Malaria)
- ويقال رُبْعَت على فلان الحمى أي جاءته رُبْعاً وأربعته عليه وقد رُبِع كعُنِي فهو مربوع وأُرْبِع فهو مُرْبِع فإذا دامت مع الصداع أو الشغل في الرأس والحرارة في الوجه وكرهه الضوء فهي البرسام أو البرلسام وليست الحصبة وإن أشبهتها في كثير من الاعراض

توجهات :

- (١) الوَعْكُ أذى الحمى ووجعها في البدن ويقال رجل وَعِكَ وموعوك
- (٢) الورد يوم الحمى وقد وردته أو الورد الحمى النابتة كل يوم
- (٣) القَلَمَح. حين تقلع الحمى أي تفارق المريض
- (٤) القفقة (Chill) صوت المحموم من الرعدة أو إذا اضطرب فكاه واصطكت أسنانه وفعله قَفَقَفَ
- (٥) الحَلَأُ — الحَرُّ الذي يخرج على شفة الانسان عقب الحمى الويلة (Herpes)
- (٦) الحمى الصالب هي التي تُسِيل العرق الغزير وقد صلبت على المريض إذا اشتدت حرارتها ولا يكن معها برد. وقد رأى صديقي الطبيب سامي الياس أن الحمى الصالب هي (الملاريا) لأن وصفها يشتمل على أظهر أعراضها ولكنني آثرت تسميتها بالويلة أو الاجمية على تسميتها بالحمى الصالب لأن الشيخ ابراهيم اليازجي قد اختار (الملاريا) الحمى الويلة أو الحمى الاجمية وقد رأيت من صديقي الطبيب محمد عبد الحميد بك موافقة تامة على تسمية اليازجي مذ كنت في قليوب معه من سنة ١١١٢ إلى اليوم وإني أثق كل الثقة بالطبيين الفاضلين كما أثق بما نقلته عن علماء اللغة ومن شأن أن أشأن الفاضلين وأنسب الفضل إلى ذويه وهذا جنائي وخياره فيه إذ كل جان يده إلى فيه

(٤) لم يخطئ الطبيب سامي الياس تسمية (الملاريا) بالحمى الويلة أو الاجمية ولكنه يرى ان اللفظ الذي وضعته العرب — الحمى الصالب — أولى بالتسمية

أمراض وأعراض بوزنه فعال

محرم المقتطف الفاضل

للاستاذ عبد الرحيم بن محمود فضل بين على اللغة العربية ببحوثه النفيسة المتتابعة على صفحات المقتطف ونشره الفاظاً فصيحى يود الى العلماء والادباء احياءها باذاعتها في مؤلفاتهم وكتاباتهم فهو من البحات الذين يقومون بقسطهم من خدمة لغتهم ولو كان كل علماء اللغة نصفه نشاطى لها غيراً على نموها وازدهارها لما تركوا الوفاً من الالفاظ الفصيحة مهمة في مثاني معاجمها وهناك عشرات في الامصار العربية ممن احاطوا بأمرارها ووقفوا على فصيحها ووفق بعضهم الى معرفة اصول كثيرة من الفاظها وكلهم آوون على رفع شأنها واصلاح ملاغيبها لو شاءوا ولكنهم لاصر ما مهملون واجهم البنوي بيد ان بعضاً منهم يقومون بقسطهم من الخدمة على عزلة متجنبين سبل النشر مخفين علمهم ونتائج بحوثهم وكان يخلق بهم ان يذيعوها ليستفيد منها اخوانهم ويعمموها فأنا لذلك اثني على همة الاستاذ عبد الرحيم وأستاذته باضافة بعض اسماء الامراض مما جاء على زنة فعال تتمتع لبحثه راغباً اليه ان يطلعنا على ما يقابلها بالافرنجية فاني اجهل ذلك ولا اجد امامي من الاطباء من استطيع الركون اليه في هذا البحث واني له سلفاً من الشاكرين واما الالفاظ فهي :

الرُداع : وجع الجسد اجمع وقيل النكس ، والغثار : ابتداء الغشوى ، والهيام : داء يصيب الابل من ماء تشربه مستنقعا فتهم في الارض لا ترعى وقيل هو داء يصيبها فتعطش فلا تروى وقيل داء من شدة العطش ، السُّهاف : العطاش ، والبوال : داء يكثر منه البول يقال اخذه بوال اذا جعل البول يعثره كثيراً ، والسكات داء يمنع من الكلام تقول اصابه سكات ولعله بمعنى السكته الداء الذي تتعطل به الاعضاء عن الحس والحركة الا التنفس ، وبمعنى السباه وهو سكتة تأخذ الانسان ، والعُساف : داء يأخذ الابل من الغدة وقال الاصمعي « قلت لرجل من اهل البادية ما العُساف قال حين تقمص حنجرته اي ترجف من النفس وهو اللابل كالنزع للانسان ، والقشاع داء يؤس الانسان والبطاح مرض يأخذ من الحمى وروي عن ابن الاعرابي ان البطاح هو المرض الشديد والملال : وجع الظهر — والتقلب مرضاً او وجعاً يقال اخذه التملان — وعرق الحمى ، والغضاب : داء يصيب بصر الانسان يقال غضب بصر فلان على المجهول اذا انتفخ من داء يصيبه — وقيل هو الجدري فهو رجل مغضوب ، والجحام داء في العين يصيب الانسان فترم — وداء في رؤوس الكلاب فتكوى من بين عينيها ، والمضاض : وجع يصيب الانسان في العين

والسُّود : داء يأخذ الانسان والابل والغنم من شرب الماء المملح ، والسُّود : داء في الاسنان — وصفرى في اللون — وخضرى في الظفر وفي اللسان السواد بالفتح صفرى في اللون تصيب القوم من الماء المملح

والقُدَاد : وجع في البطن ، والرُّمَاع داء في البطن يصفر منه الوجه — ووجع يعترض في ظهر الساق حتى يمنع من السقي ، والشُّفَاف : وجع البطن أو وجع شفاف القلب — وداء يأخذ من الشراسيف من الشق الأيمن ، والقُضَاع : وجع في بطن وتقطع فيه وهو من الابدال أي من الانقطاع والتقطع ، وسمي أيضاً القَضْع والتقضيع ، والجُعَام داء للابل وغيرها من الدواب يعرض من رعي النضر. وقال الهجري في نوادره انه داء يصيب الابل من الندى بأرض الشام يأخذها لي في بطونها ، والحَبَاطُ داء يعرض الابل وهو وجع في البطن من كلاً تستوبله ويسمى الحَبَطُ أيضاً والظَّلَاع داء في قوائم الدابة لا من تعب ولا من سير ، والعَقَاف والقَفَاع داء في قوائم الشاة تعوج منه وهي شاة عاقف جمع عواقف ، والقُومَام داء يأخذ في قوائم الدابة تقوم منه فلا تنبعث ، والقَفَاص : داء يصيب الدواب فتدبس قوائمها وقال الامير مصطفى الشهابي « كل التحام يحصل في مفاصل الدابة في اي موضع كان من قوائمها بسبب ظهور زوائد عظيمة يسمى القفاص ولعله بالفرنسية Fausse anhylose

والرُّحَام : داء في الرحم والنُّحَاز : داء للابل في رثتها تسعل به شديداً والحُكَاك : الجرب او داء يُحْكُ منه ، والحُصَاص : الجرب لانه يتمعظ من الشعر وينتثر والدُّغَام : وجع الحلق ومثله الذُّبَاح والذُّبَاح والحُلَاق والدُّكَاع : داء يصيب صدور الخيل والابل قال القطامي : ترى من صدور الخيل زوراً كأن بها نحرّاً او دُكَاماً والسُّوَّاس : داء في اعناق الخيل يبيسها والقُعَاص : داء في الصدر كأنه يكسر العنق — وداء في الغنم لا يلبثها ان تموت وفي الأسرار « اصاب الغنم والناس قُعَاص داء يقعضهم ، اي يقتلهم مكانهم. وقد قعصت الشاة اذا اصابها القعاص والنُقَاز : داء للماشية شبه الطاعون تنقر منه حتى تموت مثل النزاء ، والذُّبَاب : الطاعون والقُحَّال : داء يصيب الغنم فتجف جلودها وتموت وقُلَاع الاذن : شقاق يعرض في اصل الاذنين يرشح بالمدة والماء الاصفر ، القُلَاع أيضاً بثران تكون في جلدة الفم واللسان ، والذُّكُاف : وجع يأخذ في الاذن — وقيل ورم يأخذ نكفي البعير وقيل داء في حلقها يقتلها قتلاً ذريعاً فلهله Mumps والهُنَاع : داء يصيب الانسان في عنقه ، والقُعَاص التواء يأخذ في العنق من ربح كأنها تهصره الى ما وراء والدُّود : وجع يأخذ في الفم والحلق ، والخُنَّان داء يأخذ الطير في حلقها والخُمَاق : شبه الجدري يصيب الانسان فيتفرق في الجسد ، وقد حمق فهو محموق والقُقَاس : داء في المفاصل ، والحُمَال داء في مفاصل الانسان وقوائم الحيوان يظلع منه ونه

خُلْ فهو مخمول وقالوا قَفَسَ قَفَسًا إذا اخذه داء في المفاصل كالقشنج
والكُنْع: قصر اليدين والرجلين من داء على هيئة القطع والتعقف يقال بها كُنْع (التاج)
والشَّقاق: تشقق يصيب ارساغ الدواب وربما ارتفع الى وظيفها^(١) وتقول بيد فلان ورجله شقوق
ولا تقل شقاق، واليُداء: وجع اليد وقد يدي من يده اذا ذهبت يده وليست يقال ماله يدي
من يده وهو دواء عليه كما يقال ماله ربت يده (الصحيح)

والنفاص: داء في الشاء تنفص بابلها حتى تموت يقال اخذ الغنم النفاص، وقد اطم الرجل اذا
احتبس بوله من داء يلم به، وأطم عليه عسر عليه بروز غائطه واحتبس بوله فهو مأطوم، وكذلك
أولطم عليه اذا اصابه الأطم وهو احتباس البول او تعسر بروز الغائط
والكُتاف: وجع الكتف وقد كتف الدابة اذا اشتكى كتفه وظلع منها، والخُرَام فساد
يعرض في جانب الكتف

والخُلاع شبه خَبَل يصيب الانسان، والخُباط داء كالجنون وليس به، والخُراع جنون
الناقة — وانقطاع في ظهرها تصبح منه باركة لا تقوم

والقُعَاد: داء يُقعد من أصيب به — وداء يأخذ في ادراك الابل فيميلها الى الارض،

والذُّبَل: النقابات وهي قروح تخرج في الجنب فتنتفخ الى الجوف

Pyorrhoea

والشلاق بثر يخرج على اصل اللسان وقيل تقشر في اصول الاسنان

والجُهام: حمى الابل وجميع الدواب،

والقُلاح: حفرة الاسنان — وخضرة بين اسنان البعير

وبما يلحق بالدواء الادوية فكثير منها على وزن فعول: كالسعوط وهو الدواء الذي يُستعط،
والنَشْوَق وهو كل دواء ينشق مما له حرارة او يذني من الانف ليجد ريحه وحره. والسفوف وهو
كل دواء يؤخذ غير ملتوت او معجون، والسهول: الدواء المسهل، والاجور وهو الدواء يوجر اي
يصب في الفم، والنشوع وهو بمعنى الوجور، والعقول وهو الدواء يعقل البطن اي يحسكه، والحنوط
وهو كل دواء يمنع الفساد، والذُّرُور وهو ما يذر في العين وعلى الجرح ونحوه، والدقوق وهو
دواء يذق للعين واللدود وهو ما يصب بالمسعط من الدواء في أحد شقي الفم ج الدة، والغرور وهو
ما يتغرغر به من الادوية، والقشور وهو دواء يقشر به الوجه ليصفو لونه، والقويوه وهو الدواء
يشرب للقيء. والزروق وهو دواء للجرح يلزمه حتى يبرأ ومثله اللصوق، واللعوق وهو ما يلحق من
الادوية، والسنون وهو الدواء اليابس المسحوق الذي تدلك به الاسنان

سالم خليل رزق

النبيك سورية

(١) قال الشهابي هذا الداء تسميه العامة الجفام وهو بالفرنسية Yavart cutané

حول ارتداد لغوي

مستشفيات صيغة صحيحة

يشكر الاستاذ عبد الرحيم بن محمود فيما قام به من نشر مباحثه اللغوية الاصلاحية الثمينة وحسن فعل بنشرها في المقتطف لانها المجلة العلمية الادبية الوحيدة التي يفاخر بها الشرق الناهض. وفي جزء فبراير ١٩٣٥ من المقتطف بحث ممتع من تلك البحوث المفيدة بعنوان «المستشفى» أجاد فيه كاتبه اللغوي اذ اوضح فيه ان «المستشفى» هي الكلمة العربية الفصيحة التي يجب ان تحل محل «اسبتالية» الدخيلة وفي اثناء هذا البحث حاول الاستاذ اتقاء المؤاخذة بالخطأ على من يجمع المستشفى جمع مؤنث سالماً فيقول «مستشفيات». وفيما يلي تلخيص حججه التي بنى عليها هذا الرأي :-

١ - ان الف المستشفى لام الكلمة وليس للتأنيث ، فهي مثل باء «مستغرب»

٢ - إنه لا يصح ان يراد بالمستشفى : بقعة الاستشفاء فيجمع حينئذ على مستشفيات لعدم

صحة ان يقال . « هذه منزل » . وقال لم ينطق بهذا عربي ولا مستغرب

٣ - انه سداسي وليس خماسياً كأصطلح حتى يصح جمعه جمع المؤنث السالم . هذه خلاصة

دلائل الاستاذ التي بنى عليها رأيه في تخطئة صيغة «مستشفيات» اما نحن فنسقوم بايضاح صحتها

تمحيصاً لحقيقة لغوية هامة . والمأمول من رئيس تحرير المقتطف ان لا يضمن بنشر بحثنا هذا لان

العبارة بما قيل لا بمن قال . نعم يا حضرة الاستاذ ان الف مستشفى هي لام الكلمة كما ذكرت وليس

للتأنيث . وبما ان «مستشفى» يصح ان يكون وصفاً وبما ان هذا الوصف هو لما لا يعقل اي المكان

المستشفى فيه ، فقد نص علماء النحو والصرف على صحة وقياس جمع اشباهه بألف وتاء ^(١) فيقال

مستشفيات كما يقال في جمع «مرتب» مرتبات

اما نقى الاستاذ لصحة ارادة بقعة الاستشفاء بالمستشفى فهو نقى نفيه ، ونقي النفي كما يقولون

اثبات . فقد ورد في كتاب مغنى اللبيب عن كتب الاطاريب لابن هشام الانصاري انه يصح مثل

ذلك وقد نطق به العرب ، لانه من باب التضمنين . ولا خلاف في جوازه في الاسماء فتقول انتك

كتابي مريداً انتك صحيفتي او رسالتي ^(٢) كما يصح ان تقول «هذه منزلي» قاصداً به «هذه دارى»

ولا دليل للاستاذ على تخطئة «هذه منزلي» - في قوله تعالى «وقل رب انزلي منزلاً مباركاً» لان

الآية جاءت على غير التضمنين وهو الاصل . مما شرح يتضح ان صيغة «مستشفيات» هي صحيحة من

هذه الناحية ايضاً . اما ان المستشفى سداسي لا خماسي ، فهو صواب ، وما سبق ايضاحه بينا ان ذلك

لا يمنع من صحة جمعه على مستشفيات وبناء على جميع ما تقدم فلا حق للاستاذ في تخطئة «مستشفيات»

في جمع مستوصف ايضاً المدينة المنورة عبد القدوس الانصاري

(١) انظر الصبان على الاشعوني «ج ١ ص ٧٣» (٢) ونص ما في المعنى «ج ٢ ص ١٧٢ طبع المطبعة الشرقية

بمصر» : - ولقد حكى ابو عمرو بن العلاء انه سمع شخصاً من اهل اليمن يقول «فلان لغوب اتته كتابي فانقرها» فقال له كيف قلت اتته كتابي ؟ فقال : اليس الكتاب في معنى الصحيفة ؟

عود على بدء

أشكر للأستاذ الفاضل عبد القدوس الانصارى المدنى لما أسداه إلى من شكر وحمد لبحوثى اللغوية التى طابت بقراءته إياها فى « طيبة » حيث رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو جدتى الذى أُنتمى إليه نسباً وحسباً وديناً ولغةً . وأرجو أن يستذكر هذا الرد الموجز فيذكره لا يصح أن يكون المستشفى الذى هو مكان الاستشفاء وصفاً لمذكر غير عاقل حتى يجمع على مستشفيات كما يقال معادن مستخرجات والمفرد معدن مستخرج وكما يقال أشياء مرتبات والمفرد شئ مرتب وقد يحذف الموصوف ويكتفى بالصفة إذا اشتهرت كواجبات جمع واجب (التقدير شئ واجب أو أمر واجب) قال الناظم فيما ينقص فيه جمع المؤنث السالم

وقسه فى ذى التا ونحو ذكرى ودرهم مصغر وصحرا

وزينب ووصف غير العاقل وغيرُ ذا مسلّم للناقل

فوصف ما لا يعقل يجمع جمع مؤنث سالماً غير منازع ولا ينظر إلى عدد حروفه فقالوا جبال شامخات والمفرد جبل شامخ فشامخ وصف للجبل جمعه على شامخات . وأيام معدودات والمفرد يوم معدود وقد أشرت إلى هذا فى مقالى بمقتطف فبراير ١٩٣٥ م فقلت (وإن عاملت ما زاد على الخمسة معاملته فى الجمع فليكن ذلك فى غير ما أشبهه هذا) أى أن المستشفى اسم جنس (مثل مسجد وكنيسة وأسد ورجل فتجمع جموعاً مكسرة فتقول مساجد وكنائس ورجال وأسد أو أسود أو آساد ويصح جمع كنيسة على كنيسات أيضاً لأن المفرد ختم بالتاء) وليس بوصف وكذلك مستوصف فتأمل . وما أغناك وما أغنانى عن التضمين فى هذا المقام وللتضمين البيانى شروط ليس هذا محلها أما التضمين اللغوى فى الكلمات الجامدة فقصور على السماع لنصون عرض اللغة عن الدنس وإلا اختلط الحابل بالنابل . وقول الحجة (أنتنى لسان فكذبها) دليل على أن المراد باللسان الوشاية وإن قيل أنتك كتابى فقد أريد أنتك رسالتى أو صحيفتى وهذا من التضمين اللغوى أى المسموع وقد أورد له علماء اللغة فى ملاغيهم أمثلة معلومة إذ أنه من اللغة ، والاستعارة التبعية — ولا تكون إلا فى المشتقات والحروف — من التضمين البيانى المقيس وحسبى أن القرآن ذكر المنزل وكفى بالقرآن دليلاً^(١) فلا يجمع مستشفى إلا على مشاف . والحمد لله الذى وهبلى الرجوع إلى الحق إذا شئت له بريفاً فأعلن الصواب وإن لم يرشدنى إليه مرشد فلست من الممارين فى الحق وكفى بالله شهيداً عبد الرحيم بن محمود

(١) قال ابن الانبارى (واعلم أن جمع غير الناس بمنزلة جمع المرأة من الناس تقول فى منزل منزلات وفى مصلى مصليات) فعلى هذا يجمع مستشفى على مستشفيات ولا يخطئ، جمعه على مشاف وقد خالف جمهور اللغويين ومنهم علماء الصرف — ولست الأستاذ الانصارى اطلع على قول ابن الانبارى هذا فرد به على بدلاً مما أنى به خطأ على أن ابن الانبارى لم يجعل منزلاً مؤنثاً ولا مصلى مؤنثاً أيضاً كما يفهم ذلك من عبارته. وإنى أقول رداً عليه ان ورد عن العرب منزلات فهى جمع منزلة لا منزل أمام مصليات فجمع مصلاة لا مصلى كمحلات جمع محلة لا محل الذى يجمع على محال

مكتبة المقتطف

حياة محمد

تأليف الدكتور محمد حسين هيكل بك — صفحاته ٥٤٤ — قطع المقتطف — طبع بمطبعة مصر

في دور من أدوار الحرب الريفية التي كان يخوض غمارها الأمير محمد بن عبد الكريم الخطابي (من سنة ١٩٢١ إلى ١٩٢٥) كان في جملة حملة الأعلام الفرنسيين الذين زاروا المغرب لتغذية صحف فرنسا بأخبارها كاتب مذهب منصف هو المسيو إميل درمنكهام Emil Dermenghem ، فأوصل في محيط المغرب ببعض الشبان المغاربة المثقفين — ومنهم الأستاذ السيد أحمد عبد السلام بلالفرج — فكشف له الاتصال بهم عن حقائق تتعلق بالاسلام ومبادئه وتاريخه وسيرة صاحب شريعته لم يكن اطلع من قبل عليها تمثل هذه الصراحة والوضوح وأسباب الاقتناع . فلما عاد إلى فرنسا شرع يدرس حياة صاحب الشريعة الاسلامية ليسبر الاساس الذي يقوم عليه تفكير اكثر امم الشرق من بضعة عشر قرناً إلى الآن ، وكان في دراسته منصفاً . وما قد يكون وقع في كتابه من هفوات قليلة يرجع إلى خطأ في الاجتهاد قد يتعرض لمثلها كل باحث ، ولا سيما فيما يكون بعيداً عن محيطه حرب الريف كانت الباعث المسيو درمنكهام على تأليف كتابه (حياة محمد^(١) La vie de Mohamet) وكتاب درمنكهام كان — بلا شك — الباعث للأستاذ الدكتور محمد حسين هيكل بك على تأليف كتابه بالاسم نفسه

بدأ هيكل بك دراسة حياة محمد (ص) بترجمة فصول من كتاب الأستاذ درمنكهام ونشرها في السياسة الاسبوعية ، وكان يقدر عندما امسك القلم ليكتب لقراء السياسة الاسبوعية ترجمة كتاب درمنكهام انه سيقف عند هذا الحد وسينتهي بترجمة كتاب فرنسي بالعربية . ولكنه لما سار في عمله شوطاً اعترضته النصوص العربية التي نقل عنها درمنكهام ، والاعلام العربية التي تكلم عليها درمنكهام ، والجو الذي كان موضوع كتاب درمنكهام ، فصار لا بداً للدكتور هيكل من أن يرجع إلى النصوص العربية فينقل منها تفادياً من ترجمتها مع وجود اصلها ، وصار لا بداً للدكتور هيكل من أن يحقق الاعلام العربية تفادياً من ترجمتها عند نقلها من حروف اللاتين إلى حروف العرب وامعاناً في معرفة مدلولاتها . وبذلك تحولت الترجمة إلى تأليف ، وكان من هذا العمل كتاب (حياة محمد) الذي نشره الدكتور هيكل بك على قراء العربية فاحتفل به اصداقؤه وزملاؤه رجال الصحافة والعلم وكان لذلك دوي بعيد

لقد كانت الصحافة العربية في حاجة إلى أن يدرس قاداتها مثل هذه الموضوعات التي يحج

(1) Librairie Plan, 1929, Paris

المستشرقون الى بلاد مترامية الاطراف ابتغاء درسها والوقوف على احداثها كما وقعت، ويتجشمون في سبيل ذلك جهوداً ونفقات وإعمال فكر قد لا نحتاج نحن الى جزء قليل منه لنقوم بعمل أجود من عملهم وأصح وأجل، ولست ادري لماذا يزهد كتابنا في ذلك وفيه ما فيه من توثيق او اصرهم بالامة التي ينسجون عقولها ويكوّنون رأيها العام، وستبقى غريبة عنهم ما داموا في معزل عن الاضطلاع بتاريخها وإكمال سلسلة ماضيها حتى يتصل بآتيها

من ميزات التاريخ الاسلامي ان مادته حُفِظت بأمانة وعناية وبالرغم مما ابيد منها في حوادث جلاء العرب عن اسبانيا، وفي حوادث غزوة الصليبيين للشرق، وفي حوادث اكتساح التتار غرب آسيا، بل بالرغم مما اضاعه المسلمون انفسهم في عصور الجاهل الاخيرة، فان الذي ورثناه من تركة السلف الادبية كاف لبناء مجموعات في تاريخ هذه الاوطان الاسلامية نباهي بها الامم، وتتمنى ارقى أم الارض لو ان ايجادنا كانت في صفحات تاريخها ووقائع ماضيها. فالمادة التي يبني منها صرح تاريخنا موجودة بين أيدينا، ونحن لا نستطيع أن نعرف قدر أنفسنا في حاضرنا الا اذا علمنا قدر أنفسنا في ماضيها، ولا يمكن ان نعين مطعمنا القومي الا اذا عرفنا اتجاه قافلتنا في التاريخ. ولدراسة تاريخ هذه الاوطان في بضعة عشر قرناً الماضية أثر عظيم في الروابط بين الاوطان التي تشرك الا في هذا التاريخ اهمال كتابنا هذا الواجب كان مما يؤخذهم عليه الجمهور، وقيام بضعة مؤلفين - آخرهم الدكتور هيكل بك - مما يدل على عناية جديدة بالتاريخ الاسلامي وقع عند الناس موقعاً حسناً، لان أمة تملك ثروة عظيمة من ايجاد التاريخ لا يعقل ان تبقى الى الابد محرومة من دفاتر حديثة تسجل ثروتها وتعرضها على انظار الاقربين والابعدين

كتبنا القديمة في التاريخ مادة خصبة للتأليف، بل هي عين ثروة وينبوع غزير من ماء عذب زلال لا نظير له في مصادر التاريخ عند الامم الاخرى. فدولة الرومان وهي اقرب الدول القديمة زماناً وأعظمها عمراناً، وأشهرها تشريعاً، لو اراد مؤلف أن يدونّ سند شرائعها التي هي اليوم من أهم مصادر القانون الحديث لما وجد شيئاً تطمئن النفس اليه يرجع الى زمن تلك الشرائع. وقس على ذلك كثيراً مما لا يتسع المقام هنا لاستعراضه او الاشارة اليه

لقد كان الدكتور هيكل بك موفقاً في هضم موضوعه والاحاطه بأطرافه، فأنشأ انشاء افرغ عليه من جمال الاسلوب وحسن التعبير ونظام التبويب والتقسيم ما يحببه الى القاريء، ولا سيما القاريء الناشئ الذي اعتاد أساليب العصريين، فصار لا يأنس الا بها ولا يستفيد الا منها. ولكن لاحظ عليه الكثيرون أنه ربما لم يفكر الا بهؤلاء عند ما دونّ كتابه

الموضوع الذي اضطلع به الدكتور هيكل بك حياة نبي، وحياة الانبياء فيها جانب غير عادي ولا يمكن لمؤلف يتعرض للكتابة في حياة نبي أن يغفل هذا الباب غير العادي الا اذا ألف كتابه لفئة دون فئة وأراد أن يكون لاهل مشرب معين لا تأليف عام. لان جميع الانبياء ثبت وقوع

الخوارق على أيديهم ، والتوراة والانجيل والقرآن مليئة بذلك ، وجميع أمم الأرض مصدقة بوقوع الخوارق للأنبياء ، وما وقع من ذلك لنبي الرحمة الذي اختصه الدكتور هيكل بك بتدوين حياته ثابت بروايات صحيحة معروفة الأشخاص ، وإذا فتحنا باب الشك في قبول روايتهم فتحنا بذلك باب الشك في جميع وقائع التاريخ بل في جميع ما تنقله الصحف الآن من الحوادث العصرية لانه ليس شيء منها اصح سنداً وأصدق شهوداً من هذه الحوادث التي مهما أولنا بعضها وخرجنا بعضها تخريجاً يحولها الى حوادث عادية ، فانه سيقى بعد ذلك ما لا سبيل الى تأويله وتخريجه ، والألم يكن النبي نبياً ويكون مصاحاً أو مرشداً أو قائداً. فغالب النبوة في حياة النبي له صفاته ولوازمه ، وله في أي كتاب يؤلف في حياة ذلك النبي حقته من العناية ، والأل كان للكتاب صبغة خاصة يفرغها عليه مؤلفه ويختارها له ، وكان للذين يحترمون ذلك الجانب من حياة الأنبياء وهم يعدون بعشرات الملايين بل بمئات الملايين عذرهم اذا اعتبروا الكتاب خاصاً لا عاماً . والمعجبون بكتاب الاستاذ هيكل بك يريدون لكتابهم اكثر مما أراد هو له

وهذا المسلك الذي سلكه هيكل بك أدنى به الى أن يفهم قراؤه (ص ٩٥) ان شيئاً من القرآن (سورة العلق) نزل على النبي (ص) في المنام كما أدى به الى ترجيح الرواية القائلة عن عائشة في الاسراء (ص ١٥٣) : « ما فقد جسد رسول الله صلى الله عليه وسلم ولكن الله أسرى بروحه » ، ولعله لاجل ترجيح هذه الرواية وضع حادثة الاسراء بعد حادثة زواج النبي صلى الله عليه وسلم بها . وإذا علم القارئ أن الاسراء كان قبل زواج النبي صلى الله عليه وسلم بعائشة وانها كانت في زمن الاسراء طفلة بعيدة عن منزل النبي صلى الله عليه وسلم ولا تعلم متى يبيت في منزله ومتى يفارقه ، يتبين حينئذ ان ترجيح هذه الرواية لا يوافق قواعد البحث ، وان تأخير حادثة الاسراء الى ما بعد زواج عائشة إخلال في ترتيب الوقائع ترتيباً تاريخياً

أما الذهاب في تأويل حادث المعراج مذهب وحدة الوجود ، فالاسلام لا يعرف وحدة الوجود ، لان الوجود في نظر الاسلام اثنان : واجب الوجود وجائز الوجود ، فواجب الوجود أزلي أبدي وهو الخالق وحده بصفاته المعلومة في القرآن ، وجائز الوجود هو هذه المخلوقات المتغيرة . ولا معنى لوحدة الوجود في نظر الاسلام الا اعطاء الكون صفة القدم والبقاء — اي الوجود وجوباً — ومعنى ذلك تأليه الكائنات وهو ليس من الاسلام

أما المقدمة البديعة التي توج بها الاستاذ الاكبر فضيلة الشيخ المراغي كتاب الاستاذ هيكل بك فقد وقع فيها سبق قلم نأمل تلافيه في الطبعة الثانية ، وهو قول فضيلته « وجاء الوحي مفصلاً قطعاً في كل ما يخص ذات الاله ووحدته وصفاته وكيفية عبادته ، ولم يكن كذلك فيما يخص النظم الاجتماعية للأسرة والقرية والمدينة والدولة منفردة ومرتبطة بغيرها من الدول . نعم ان الوحي — وبوجه اخص القرآن — جاء بالهداية الى الطريق ، وترك الدلالة على الطريق للرسول ، فالقرآن

ليس محلّ تفصيل فيما يخص النظم الاجتماعية ، لكن الاسلام كان صريحاً في انه دين عقيدة وعبادة وحكم ، وانه جاء للارشاد الى سعادة الانسان في الدنيا كما جاء للارشاد الى سعادته في الآخرة ، وليس ما في القرآن عن معاني الحكم في الاسلام والاشارة الى احكامه اقل مما ورد في القرآن عن العبادة وكيفيةها ، كالصلاة وهي عماد الدين ورأس العبادة ، لانستطيع ان نفهم من القرآن كيفيةها وعدد ركعاتها وما يقرأ فيها . وما في القرآن عن الجهاد اوضح بياناً مما فيه عن الصلاة

وهناك امور اخرى في الكتاب نبه عليها كثيرون من اهل الفضل كالاستاذ الشيخ احمد محمد حميدة والاستاذ الشيخ محمد زهران ، وكلها جديرة بأن تراعى عند اعادة طبع الكتاب . ان شاء الله واننا نتمنى أن يجعل الدكتور هيكمل بك في وقته نصيباً لمتابعة التأليف في سلسلة تاريخ الاسلام الذهبية ، فان ما استقبل به الناس كتابه جدير منه بمواصلة هذا العمل المجيد

محّب الدين الخطيب

أديب

تأليف الدكتور طه حسين — يطلب من مكتبة النهضة المصرية — ثمنه ١٠ قروش مصرية
الدكتور طه حسين أديب فذ نبه اسمه بين كتاب الشرق في القرن العشرين ، كما نبه اسم الأديب الفرنسي العظيم سانت بيغ في اواسط القرن التاسع عشر ، وهو كصاحبه الفرنسي ذكي القلب خصب الخيال موفور النشاط ، عظيم الاعتداد بنفسه ، جريء في النقد ، كف بالحريّة في شتى مناحي التفكير والكلام ، ولكنه ابعده من صاحبه الفرنسي أثر في الحياة الادبية ، فهو رجل ثورة وكفاح ، وهو رجل مفاجات لا يبرح يشير حوله كل يوم تيارات عنيفة من النقد الرائع والنقاش الممتع البارِع وهو صاحب مدرسة من اجل ذلك كثيرة الانصار المعجبين به وبأدبه ، على انها كثرة يناوحها جمهور آخر ممن لا يرضون عن مذهبه في التجديد كل الرضا ، ولا يسلّمون بأرائه في المدرسة القديمة وان شئت فقل من هؤلاء الذين يباديهم فيفوتهم ولا يملكون له ردّاً ولا يستطيعون معه صبراً . على ان هؤلاء الراضين والمغضبين يتلاقون على رأي واحد فيه ، ذلك انه استحدث لغة جديدة في النثر العربي الحديث لها من رشاقته وطلاقتها وجزالتها وعذوبة جرسها مميزات الفن القصصي وخصائص لغته العالية التي لا تضيق بالحوار والوصف والتحليل في اسلوب فائق وتخلص رشيق

وقصة اليوم «أديب» مزاج معتدل من تلك المميزات والخصائص ، على ان لها بعد ذاك قيمتها فهي ان لم تكن ترجمة حياة الكاتب نفسه ، او ترجمة فترة من حياته ، فهي عرض صادق لحياة الجيل الذي عاش فيه واستقرأ لأرائه في كل ما لابس شؤون الادب والعلم والفكر والحياة جميعاً . وهي ذكريات الحياة الحلوة الوادعة المضطربة الكثيرة الاحلام والاهواء التي ينعم بها العقل والقلب معاً في تلك القصة الممتعة ويستروح فيها الشباب الطامح ارق ذكريات الصبا والحب والامل قرأت هذه القصة مرتين فخرجت من قراءتها باعجاب لا حد له ، ولا زلت اذكر ليالي اقرية والقناة

وحديقة المعلم وشجرات التوت واولئك الفتيات الفقيرات الحسان المتبذلات بحكم الفقر وهن يطوفن بالحقول يلتمسن اقواتهن في التقاط ما يسقط من الحب . ثم ذلك الوصف الرائع لطبيعة مصر وجمال ريفها الذي تسبغه الحياة العاملة الجادة على اهله حين يخرجون من اطوار الجمود ويقفون في طبيعهم ويصبحون وكأنهم أدوات للعمل والانتاج لهم جد الاداة وصدقها واستقامتها وصبرها واعراضها عن الشكوى وبعدها عن الملل والسأم . ويمضي الكاتب في هذا التصوير الرشيق البديع الذي لا تكاد تخلو منه صفحة من صفحات « اديب » . والذي يذكرنا بصفحات اخرى من كتابه « في الصيف » الذي يدل على ترف في الحس ورقة في الشعور والتفاقات ذهنية خاطفة لا تكون الا للشعراء المغنين او الفنانين الموهوبين الذين تكشف لهم الطبيعة عن اسرار خلقها وابداعها

وهانذا انطلق بك من ذلك الجو السحري الهاديء الذي يستغرق التأملات في دعة وطأة نبتة الى جو آخر يرسمه لنا الكاتب بألفاظ لها من جرسها سرعة الحركة ، وخفة الطيف ، وتنقل الاشباح ، وذلك الغموض الرهيب الذي يكتنف حياتنا احياناً حين نقبل على امر من الامور التي تستبد بغير الزنا فنمضي وكأننا نستعجل دورة الزمن او نقاجىء القدر . وتحس هذا كله في حديث العربية حيث يقول : « واذا بالباب يطرق طرفاً عنيفاً واذا صاحي يدخل وكأنه العاصفة ، واذا هو يدعوني في صون سريع الي ان انهض فالبس ثيابي واخرج معه ، وان اسرع ، فان العربية تنتظرنا واحول ان اساء كيف خرج من ديوانه وما هذه العربية التي تنتظرنا والى اين يريد ان يذهب بنا ولكنه لا يجب ، وانما يستعجلني ويلج في الاستعجال ، حتى اذا تركته وذهبت لالبس ثيابي سمعته وهو يذهب ويحيى كالجنون ويتغنى في صوته الغليظ بما يحضره من الشعر . ثم اخرج له فيخطفني خطفاً ، ويعدو بي عدواً حتى يلقيني في العربية القاء »

ومثل هذا الابداع والترسل كثير حين تقلب صفحات هذه القصة الممتعة وانت لا تخطئ فيها فنوناً شتى من التحليل لنفسية ذلك الاديب الطموح وحياته المضطربة بين الامل والياس ، وحديث ذلك الصراع بين القديم والجديد الذي حملت لواءه مصر من فجر القرن العشرين الى اليوم وانت لا تخطئ ذلك التصوير الحزن احياناً لحياة السواد في مصر او عقلية آبائنا في نظرتهم الى العلم والى ما يصيب نفوس ابنائهم من دنس واثم اذا ما استقلوا السفن الى اوربا في سبيل تحصيله ، وانت لا تخطئ وصفاً بديعاً لحياة هؤلاء الشبان الذين بهرت الباهم ثقافة الغرب فودوا الا يحول بينهم وبينها حائل من التقاليد او المادة ، وانت لا تخطئ نبل الفطرة وتسامى الانسانية عن النظم الأرضية وأوضاعها في سياق تلك الرسائل التي تحدث فيها المؤلف عن صاحبه الالمانى ، وانت لا تخطئ بعد هذا كله الواناً شتى من الادب الحى والثقافة العالية والفلسفة المستقيمة في صفحات هذه القصة التي هي قصة الحياة والتي تعد في حقيقتها متممة لكتاب الايام الذي فتح به الدكتور طه الله جديداً في عالم القصة العربية

الاسلام والتجديد في مصر

الف. بالانكليزية الدكتور شارلز ادمز — ونقله الى العربية عباس محمود — نشر لجنة ترجمة دائرة المعارف الاسلامية كأن الاستاذ عباس محمود عز عليه أن ينفرد باحث اجني بالبحث في ناحية من أهم نواحي الحياة الاسلامية على اسلوب علمي منظم لم يجد عن سبيل الانصاف والنزاهة في الحكم، فنقل هذا البحث إلى اللغة العربية نقلاً راعى فيه الدقة والضبط وتحقيق كل نص ومراجعة الأصل الذي أخذ منه، ثم وضعه تحت نظر القراء المسلمين ليستفهم شعورهم ويحرك همهم للعناية برجالهم والانتباه الى سير ثقافتهم في تطورها بسبب اتصالها بمختلف المؤثرات الاجنبية

يبحث الكتاب في حركة التجديد الاسلامية في مصر، فيصور نواحيها المختلفة، ويصف الاشخاص الذين قاموا بها وصفاً تحليلياً مفصلاً، فيعرض للمغفور له الامام الشيخ محمد عبده ويعرض لتلاميذه الذين اقتبسوا من روحه وساروا على نهجه. والشيخ محمد عبده شخصية من اكبر الشخصيات الجديرة بالاحترام في تاريخ الاسلام الحديث، وهو زعيم حركة التجديد الاسلامية في مصر، ولاشك ان الذين درسوا افكار المسلمين في مختلف بلادهم يعرفون مبلغ تأثير الشيخ محمد عبده في مصر بل وفي جميع بلاد الاسلام من اقصاها الى اقصاها. وقد كان الامام شخصية متعددة النواحي، تغلب في مختلف شؤون الحياة واضطلع بمختلف اعبائها فبينما تراه عالماً وصحفيًا وقاضياً تراه ثائراً سياسياً ومصلحاً اجتماعياً وزعيماً دينياً يستهدف لخطر النفي وألم الاغتراب والخصومة، فيبرهن بذلك على قوة في الايمان وتمسك بالغاية وهمة لا تنضب. وانت تراه في هذا الكتاب مثلاً من الرجولة الكاملة التي يحب ان يقتدي بها

لم أكن قبل ظهور هذا الكتاب اعرف الكثير عن حركة التجديد الاسلامية في مصر، مثلي في هذا مثل سائر ابناء الجيل الناشئ الذين لم يولدوا الا بعد أيام محمد عبده ولم يقطنوا الى مختلف شؤون الحياة الا بعد وفاته بزمان طويل. ولم يكتب عن تلك الحركة كتاب مختصر سهل التناول مرتب يغري الشاب بمطالعتها. فهذا الكتاب يكشف لابناء الجيل الناشئ عن صفحة هامة من تاريخهم الفكري القريب ومن تاريخ العلاقة بين دينهم وبين مختلف نواحي الحياة السياسية والاجتماعية والعقلية، لان النهضة السياسية سارت مقارنة لهذه النواحي ولا غنى لمن يريد معرفة احداها عن ان يلج بالآخرى، لما بينها جميعاً من تأثير متبادل، وهي خاصة يمتاز بها تاريخ الثقافة الاسلامية من اوله الى آخره، لان الاسلام ليس عقيدة فحسب بل هو مدينة كاملة متشعبة النواحي، فله نظرته الخلقية ونزعتة العقلية ومذهبه السياسي وآراؤه الاجتماعية. والحق ان الاسلام هو الذي عيّن الشخصية الشرقية عن الشخصية الغربية، فهو عنصر اصيل متمكن في حياة الشرق، والشرق الان يتصل بالغرب اتصالاً وثيقاً ويتأثر به تأثراً بعيد المدى، والمسلمون يسلكون إزاء مدينة الغرب

مسلكاً يختلف باختلاف شعوبهم ، وهم يتخذون وسائل كثيرة ويصطنعون أسلحة الغرب ذاتها دفاعاً عن شخصيتهم وذوداً عن دينهم ورغبة في التوفيق بين مقوماتهم الدينية والاجتماعية وبين العوامل الآتية من الغرب ليبرهنوا على أنه خير دين وأنه يؤتي حاجة الانسانية في كل أطوارها والكتاب الذي نحن بصدد القول فيه يبحث في هذه النواحي في مصر ، ولا غنى للشرقيين — بعد ما تقدم — أن ينظروا في أنفسهم ويعرفوا الوجهة التي يقصدونها والعوامل التي تؤثر فيهم وان يعرفوا جهود المجاهدين في هذه الناحية ليوصلوها ويصلحوا ما فيها من خطأ ليمكنهم المحافظة دائماً على مقوماتهم التي لا حياة لهم الا بها . فالكتاب اذن حلقة لا غنى عنها من حلقات تطور الفكر الاسلامي ، جديرة بالبحث والتحصيل ، ثم هو قد ألفه اجنبي يستطيع ان يرى من شئون المسلمين ما قد يخفى عليهم احياناً ، وعلى كل حال فله قيمة اخرى لانه من وجهة نظر غير وجهة نظره والكتاب يثير مسائل كثيرة جديرة بأن تنال من عناية الباحثين ما هي خليفة به . يقول الباحثون ان الاسلام اليوم ، وهو يواجه المدنية الغربية بتنوع نواحيها ، في موقف شبيه بموقفه منذ ألف عام حينما كان يواجه المدنية الاغريقية . واذا كانت تلك الصفحة الهامة من تاريخ الاسلام وصلته بمدنية اخرى قد طويت ، ومن الاسف انها لم تسجل تسجيلاً علمياً دقيقاً ، فينبغي ألا يفوتنا تسجيل هذه الصفحة القريبة العهد قبل ان تعدو عليها عوادي النسيان . ولا شك أنه من الشائق ان نوازن بين الموقفين على قدر الطاقة . فالاسلام هو هو بأصوله المقررة وهو مع ذلك يتسع روحه فيضم مدنية اليونان ويتمثلها ويصبغها بصبغته ، وهو يريد اليوم هضم المدنية الاوربية الحديثة وصبغها بصبغته ايضاً معتدداً بأسلحتها العلمية والفلسفية والاجتماعية وقد اتصلت بلاد الاسلام بمختلف الدول الاوربية . وكل بلد اسلامي يسلك ازاء الدولة الاوربية التي اتصل بها مسلكاً خاصاً ويتأثر بها الى مدى معين ، فالبلاد الاسلامية متعاونة في أخذها ومدنية الغرب وتأثرها بها ، وفي هذا مجال للعوازنة واسع شيق ، وشتان ما بين ما يجري في تركيا وبين ما يجري في غيرها من بلاد الاسلام ، وقد نالت حركة التجديد من العناية في كتابات المستشرقين الذين اختص كل منهم بناحية كتب عنها ، وما أخرى المسلمين ان يلما هذا كله ويوجهوا اليه ما يستحقه من عناية ويفتقروا بما يمكن ان يكون فيه من ثمرات ، وهذا الكتاب يوجه نظرنا لهذه الناحية ومما يجعل لهذا الكتاب قيمة خاصة انه يشير الى النهضة السياسية والادبية في مصر الحديثة ، ويبين علاقة كل منهما بحركة التجديد ، فيوجهه نظر الباحثين الى هاتين الناحيتين ليدرسلهما درساً أكثر تفصيلاً . ولست ازعم ان الكتاب قدالم بكل تفاصيل موضوعه بل هو اشار الى اهم ما فيه وترك مجالاً لباحثين آخرين

فالشكر للاستاذ ادمس والاستاذ عباس محمود وللجنة ترجمة دائرة المعارف الاسلامية لما بذله كل من جهد في هذا العمل الجليل

محمد عبد الهادي ابو ريدة

تاريخ شرقي الاردن وقبائلها

تأليف الفتنت كولونيل فردريك ج . بيك . ترجمة بهاء الدين طوقان . مطبعة دار الايتام الاسلامية الصناعية بالقدس
قد يظن المرء ان شرقي الاردن لا يستحق تاريخاً ولكن المؤلف بين بأسلوب حسن جداً انه
جدير بذلك لانه على طريق الغزاة بين اشور وفارس ومصر فهو الطريق التي تمر فيها الجيوش الغازية
وانه يتعذر عليّ نقد هذا الكتاب الجليل بأسطر قليلة ولكنني سأفعل ذلك على قدر المستطاع .

فالكتاب جزء ان جزءاً تاريخي وجزء في وصف قبائل شرقي الاردن فنبدأ اولاً بالجزء التاريخي
فالجزء التاريخي من ازمته ما قبل التاريخ الى يومنا وهو مكتوب بدقة عظيمة وجهد كبير
ومؤيد بالاسانيد الكثيرة فقد ذكر المؤلف ما قبل التاريخ ثم مجيء بني اسرائيل وحروبهم ثم دخول
الاشوريين والبابليين والفرس ثم اليونان في زمن الاسكندر ثم البطالسة وثورة اليهود ثم دخول
الرومان ومملكة اليهود في زمن هيرودس ومملكة الانباط والغساسنة وحروب الغساسنة والمناذرة وما
جرى في تلك البلاد الى الفتح الاسلامي وما وقع من الحروب بين العرب والروم الى ان استتب الامر
للعرب ثم فصل في الحروب الصليبية الى جلاء الصليبيين ثم دخول الترك العثمانيين ثم جلاؤهم ودخول
الخلافة وجميع ما تقدم مؤيد بالاسانيد التاريخية كما ذكرنا . اما الجزء الثاني فخاص بقبائل شرقي
الاردن ذكر فيه المؤلف القبائل واحدة واحدة وانصف في ذكرها على عادة الضباط البريطانيين في
الانصاف بلا محاباة وانا لا ادري هل الجزء الاول اي التاريخي خير من الجزء الثاني فكله حسن جداً
ياخذ بمجامع القلوب والترجمة حسنة ولغته كذلك حسنة مما يدل على سعة اطلاع المؤلف والمترجم
واني لا اجد فيه مجالاً للانتقاد الاً أموراً طفيفة لا بد انها وقعت سهواً من المؤلف او المترجم

منها في ذكر حيوانات البلاد قوله الفهود الصغيرة واطنه يريد النمرة واشباهها
جميعها كانت في شرقي الأردن الى عهد قريب وهي اربعة انواع النمر Leopard والفهد
Hunting leopard or cheeta والوشق ويقال الشيب وعناق الارض Caracal وأما الببر Tiger
فبالطبع لا يكون هناك ولا عبرة لما جاء في المعجمات خلاف ذلك . وقال في الزراعة ان الدخان والقنب
قديمان هناك فالدخان حديث لا يعرف في البلاد العربية قبل الالف للهجرة قال الشاعر في وصفه

سألوني عن الدخان فقالوا هل له في كتابكم ايماء

قلت ما فرط الكتاب بشيء ثم ارخت يوم تأتي السماء

أما الفتنت فقد عديم جداً ولا سيما الهندي منه زرع المصريون القدماء ومما يؤخذ على المترجم قوله جستنيان
واظن الصواب يستنيان بالياء المثناة ومثله ترجان واظن الصواب تrianس أو طrianس فان العرب كتبوا
هاتين الكلمتين وأما هله بالياء منها يوليوس ويسوع ويوسفوس وبايزيد ويعقوب وهي كثيرة ويستنيان
أو يستنيان هذا هو القيص صاحب امره القيس واظن فؤاد باشا الخطيب لا يزال يذكر انشاده قصيدة

امرء القيس بصوته الرخيم في طريقنا الى جدة لاذكاه فار الثورة العربية وقول امرء القيس
بكي صاحبي لما رأى الدرب دونه وأيقن انا لاحقاف بقيصرا
فقلت له لا تبك عينك انما نحاول ملكا او نموت فنعذرا

فيستينانس هو القيصر الذي وفد عليه امرء القيس في القسطنطينية وما يؤخذ على المؤلف
قوله ان بعلمين ودوزارس وعلات آلهة مأخوذة من اليونانية واظن الصواب ان هذه الآلهة
عربية وصوابها بعل أو هبل واللات وذو الشرى وهو صاحبنا باخوس وقد جرت العادة حتى الآن
نسبة كل شيء الى اليونان كقولهم ان سير يوس اي الشعري يونانية من مادة يونانية معناها احرق
والصواب هي سامية قديمة جداً كما تجد في مادتي سعر وشعر في كتب اللغة وما يؤخذ على المترجم
استعماله التعريب بمعنى الترجمة فالتعريب على الاصح خلاف الترجمة ولا ادري لاي سبب جرى بعض
الكتاب في الشام على ذلك فيقولون هذا الكتاب تعريب فلان والصواب ترجمته وقوله في صدر
الكتاب الاردن بفتح الهمزة والصواب ضمها . قال المتنبي

وقعت على الأردن منه بلية فضدت بها هام الرفاق تلولا

هذه هنات قليلة جداً كنت اود ان يخلو منها هذا الكتاب النفيس

والكتاب مقدم الى صاحب السمو الأمير عبد الله أمير شرقي الاردن ومزين برسوم كثيرة منها
رسم الامير ورسم نجليه الاميرين طلال ونايف ورسم المغفور له الأمير شاكر من أبطال الثورة
العربية ورسم مؤلف الكتاب وغيرهم . وقد قال المؤلف في أول الكتاب انه ليس له أية صبغة رسمية
وهذا صحيح فقد قرأته من اوله الى آخره فليس فيه شيء من السياسة او الامور الرسمية ولكن
ما قول المؤلف في صورة الزعيم كلوب بك فلو ازدردتها أنا فلا اظن سائر العرب يقوون على ازدرادها
وهضمها فقد ازدردوا كثيراً حتى الآن . أما القول بأن كلوب بك لا صبغة رسمية له او سياسية فقليل
من المعد يقوى على هضمها ! على أن الكتاب نفيس جداً يعود على مؤلفه ومترجمه بالثناء العظيم

مصر الجديدة امين المعلوف

مقتل عثمان بن عفان

تأليف محمود الغزاوي عضو الماجستير في التاريخ الاسلامي بالجامعة المصرية

كنت اعتقد ان موضوعاً كهو موضوع مقتل عثمان بن عفان رضي الله تعالى عنه، موضوع لا يمت
الى طبيعة الاشياء بصلة ، وانما هو حادث من حوادث حجة انتابت الاسلام في ابان قيامه . لكنني
اذ انتهيت من قراءة ذلك السفر الجميل عن هذه المأساة المروعة استشعرت من نفسي القوة
على ربط الحوادث التاريخية بعضها بأطراف بعض ، وخرجت من ذلك كله بأن هذا الحادث وان
يكن مشتهراً في ذاته ، الا انه كما يقول المؤلف نتيجة ثورة « كانت المنفذ الطبيعي أمام شعب
ساخط رأى دستور الدولة في يد اناس يتعصبون لذوي قرياتهم من سائر عباد الله المسلمين ، وما

هذه الثورة إلا النتيجة الكيميائية لجملة مواد كانت فوق بوتقة ما لبثت ان تفاعلت كلها بعضها مع بعض وتخصت عن قتل الخليفة عثمان بن عفان رضي الله تعالى عنه »

هذا مثل من الامثلة العديدة التي يسجلها المؤلف في مواضع كثيرة من كتابه بمثابة آراء شخصية له . وهي ميزة تميز الطابع الذي الطبع به المؤلف في دراسته التي تشرب بها في الجامعة . فهو صريح في تحليل مختلف الآراء شأنه في ذلك شأن كبار المؤرخين الذين لا يكتفون برواية الحوادث التاريخية فحسب بل يعللون هذه الحوادث ويرجعونها الى أسباب قد تكون غامضة بعض الغموض فما يزالون بها حتى يكشفوا الستار عنها

على ان المؤلف قد تعرض في الحقيقة لبحث نقطة واحدة من التاريخ الاسلامي على جانب كبير من كبر الشأن والدقة قل من تعرض لها من المؤرخين على حدة ، فمقتل الخليفة عثمان بن عفان هو حلقة وسطى بين نمو دستوري وبين نمو دستوري آخر : نمو دستوري نشأ بنشوء الاسلام ويعتمد على كلمة الله ، ونمو دستوري آخر اظهر سلطة الامة وصوت الشعب الى جانب كلمة الله . بل ان مقتل عثمان كان بصريح العبارة اول ثورة في الاسلام على المحابة والمطامع الاشتراكية وقد قدم الكتاب للجمهور حضرة الدكتور حسن ابراهيم حسن استاذ التاريخ الاسلامي في الجامعة المصرية فشاد بذكر المؤلف — وهو من تلاميذه — وتمنى عليه مواصلة البحث والدرس حتى يكشف عن كثير من حوادث التاريخ الاسلامي الغامضة

ميشيل سليم عبده

جبال النور

[بقية المنشور في صفحة ٢٤]

وارتفاع هذا الهرم الموهوم يساوي ١٣٧ ١٢٩٥٠ سنتيمتراً اي ١٢٩٥١ متراً اي ان « جبل النور » الهرمي الشكل هذا يبلغ طول ضلع قاعدته المربعة اكثر من ١٨٠٣١٥ كيلو متراً وارتفاعه اكثر من ١٢٠٩٥١ كيلومتراً . فتأمل !!

واذا بسطت هذه البرتقالات اللوامع فوق سطح الاراضي المصرية الصالحة للزراعة لبلغ ارتفاعها :—

٢٠٤٨ كيلو متراً مكعباً حجم البرتقالات اللوامع

$$= ٠.٦٤ \text{ ر. كيلو متراً}$$

٣٢٠٠٠ كيلو متر مربع مساحة الاراضي المصرية الصالحة للزراعة

ولأصبحت الاراضي المصرية الصالحة للزراعة التي تبلغ مساحتها اثنين وثلاثين الف كيلو متر مربع صحيفة لامعة متلازمة تهر الابصار بارتفاع أربعة وستين متراً . فتأمل !!

ولكن دعني أهمس في أذن قارئ العزير أن هذا ان يتم فهذه البرتقالات بحجمها الطبيعي العظيم معلقة في الفضاء متماسكة بقوة الجاذبية فاذا ما جمعناها على الوجه الذي تخيلناه لاختل نظام التجاذب الكوني ولهوت كرتنا الارضية وتخبطت في الفضاء اللانهائي، فسبحانك اللهم يامبدع الكائنات

الجزء الاول من المجلد السابع والثمانين

صفحة	
١	اثبات الابوة
٨	لورنس والثورة العربية (مصورة)
١٦	سوريا في زمن الصليبيين . لنقولا زيادة
٢٣	جبال النور : لصبحي جلي
٢٥	عالم المستقبل العجيب
٣٧	الفاظ التصنيف في الحيوانات الدنيا : للامير مصطفى الشهابي
٤٢	البعث الاول (قصيدة) : لعلي محمود طه
٤٣	لواء الادب القديم : ل احمد يوسف
٤٧	خدمات العرب للكيمياء الحديثة : لحسن السلمان
٥٤	الباياز : ثمر عجيب : لعوض جندي
٥٧	الشعر الحديث : للدكتور احمد زكي ابو شادي (مصورة)
٦٥	موسى بن ميمون : للدكتور الفريد يلوز (مصورة)
٧٠	عيد بنك مصر وخطبة طلعت حرب باشا (مصورة)
٨١	مفردات النبات : لمحمود مصطفى الدمياطي
٨٥	باب سير الزمان : الثورة : للدكتور عبد الرحمن شهبندر . الملك جورج الخامس
	والتاج البريطاني . تتويج جورج الخامس
١٠١	باب مملكة المرأة : الزواج والبيت والاولاد . من نافذة القطار : لكامل كيلاني .
	الاتجاه الجديد في تربية الاطفال : لاغنس دي ليم . درة البول عند الاطفال :
	للدكتور عبده رزق
١١١	باب المراسلة والمناظرة : ارشاد لغوي : لعبد الرحيم بن محمود . أمراض وأعراض
	بوزن فعال : لسالم خليل رزق . حول ارشاد لغوي : لعبد القدوس الانصاري
	عود على بدء : لعبد الرحيم بن محمود
١١٨	مكتبة المقتطف * حياة محمد : لمح الدين الخطيب . أديب . الاسلام والتجديد : لمحمد عبد الهادي
	ابو ريده . تاريخ شرق الاردن : للدكتور امين المفلوف . مقتل عثمان بن عفان : لميشيل سليم عبد